دانيـة قصاص
الغلاف: أسيمة طيفور
رواية
ليالٍ باردة

رواية

ليالٍ باردة

دانية ياسر قصاص

الإهداء:

إلى كل من يحمل بين جنبيه قلبًا دافئًا.

"لم يدفئني نور العالَم
بل قولُ أحدهم لي
أنّي ذات يوم، أضأتُ نورًا في قلبِه".

- أنسي الحاج

كانت تركض بكل قوتها، تتعثر ثم تنهض تمسح دمعاتها، تبتلع شهقاتها تتلفت حولها ثم تعاود الركض بسرعة أكبر، دخلت حديقة عامة تعج بالناس والفوضى انخرطت بينهم ولكن شيئًا ما فيها كان ملفتًا للنظر، طالتها بعض النظرات الفضولية، مالذي سيأتي بفتاة إلى الحديقة بهذا الشكل مساءً؟ فستان أزرق بخامة غالية، وزركشات شيفون أسفله وفي نهاية أكمامه بلون أبيض، كان طويلًا يبلغ كاحل القدم، حقيبة يد سوداء صغيرة، وحذاء منزلي وردي اللون، وشعر طويل مبعثر إثر الركض، هرولت إلى دورة المياه دفعت الباب بسرعة ثم أغلقته خلفها، غسلت وجهها وعيناها المليئة بالدموع، ثم غسلت يديها من الخدوش والغبار الذي لحق بهما فآلمتها، أخرجت هاتفها وإذ برسالة تعتلي الشاشة، مسحت دمعتها بطرف إصبعها ثم أخرجت شريحة الهاتف كسرتها نصفين، رمتها في سلة المهملات، خرجت بقلب مرتجف وبخطوات تجاهد لجعلها متزنة، ما إن رفعت ناظريها حتى التقت عيناها بعينين تعرفهما جيدًا، ركضت فركضت الأخرى وراءها وللأسف كانت سريعة فأمسكت بمعصمها بقوة وأخذت تجرها معها، صرخت بصوت بُح لكثرة البكاء: _دعيني، أرجوكِ دعيني سأدفع لكِ كل ما معي، سأعطيك ضعف المبلغ الذي سيدفع إليك مقابل إحضاري، كرامة لله دعيني وشأني.

أجابت بحزم واقتضاب وهي لا تزال تسحبها وراءها:
_إن لم أحضركِ أنا إليها، سيحضرك رجال أدهم إليه هو، هيا معي هذه أوامر لمصلحتك!

*****

البداية

كان المنزل هادئًا في عصر ذلك اليوم بعد الضجة والانشغال الذي كان أشبه بعاصفة مرت منذ الثامنة صباحًا، تفوح رائحة مسحوق التنظيف النفّاذة من حديقة المنزل الواسعة، الحبال مليئة بالملابس المغسولة والستائر وملاءات الأسرة والطاولات، وفي جانب آخر هناك أغطية، وسجاجيد يابسة ممسوحة بمعطرٍ برائحة البنفسج، الدالية مشذبة ومقصقصة إذ تم القضاء على كل الأوراق الذابلة للتخلص من تساقطها يومًا بعد يوم ببطء، آه لو باستطاعتنا أن نستأصل ذكرياتنا الحزينة الذابلة لنتخلص من تناثرها وفوضاها في دواخلنا لنرتاح من تعب لملمتها وتناسيها مرة بعد مرة دون جدوى!

لا تزال الأرض تحتفظ ببعض قطرات الماء، ونسمات هواء لطيفة تعم الأجواء تهمس بصوت حفيف الأشجار: "إن الخريف قد حلّ".

انتهت من جمع بعض الليمون في سلتها الخشبية الصغيرة، رفعت ناظريها للسماء وتنفست بعمق وكأنها تريد استمداد القوة لا الهواء فقد أُنهكت اليوم كثيرًا، أصابعها متجعدة من كثرة المياه ومريولها الأبيض لم يمنع وصول الابتلال لكل

ملابسها، أزاحت غرتها القصيرة الكستنائية عن جبهتها وعادت للداخل بخطى حافية، وضعت السلة على طاولة المطبخ منادية بضجر:

_سارة... سارة، أين أنتِ؟ أحضرت لك الليمون كما طلبتِ، أنا ذاهبة للاستحمام لم أعد احتمل نفسي!

رد صوت بعيد بحماس:

_شكرًا، سأعد حساءً لذيذًا.

_السيدة مهجة لن تقبل بعشاء كهذا يا سارة!

_هاتفتنا قبل قليل وقالت بأنها ستعود متأخرة حتى نكون قد انتهينا من جميع أعمالنا.

قالت سارة ذلك وهي مقبلة نحو المطبخ ترفع شعرها كذيل الحصان وشرعت في الطبخ، ردت فلك بضيق وهي تخلع مريولها:

_جيد جدًا أنها تدرك كمية الأعمال التي توكلها لنا ومدى ما تحتاجه من جهد وتعب، المنزل نظيف أساسًا، لم أفهم ما المغزى من هذا العمل الشاق الموسمي لكل الأشياء وكأن الشتاء آتٍ لخطبتي، أو كأنه سيأتي ليجري اختبارًا للنظافة! اغسلن الملابس الشتوية كلها، والسجاجيد، وكل الأثاث تقريبًا، مسح الجدران والأسقف والخزانات والآرائك، كل هذا العمل على ثلاثة فتيات في منزل فيه تسعة غُرف وحديقة!

أقبلت سلمى تجر قدميها ببطء مردفة:
_لا يزال أمامنا إخراج الملابس الصيفية وترتيبها في العلية، لا تنسِ غرفة المكتبة تحتاج إعادة ترتيب الكتب تركتها مبعثرة بعد أن أنزلتها ومسحتها ومسحت رفوفها، لقد نال مني التعب مبلغه.
ضربت فلك الطاولة بقدمها بغيظ ثم انصرفت للحمام وهي تتمتم وتتذمر، يصبح الناس قليلي الصبر، سريعي الانفعال عند التعب، سارة الوحيدة التي بقيت هادئة رغم تعبها، هي فتاة قروية معتادة على العمل طوال النهار ولا تزال جديدة هنا، تراقب كل شيء وتحاول أن تعمل بجد لكي تحصل على أجر كبير فهي بحاجة للمال لأجل أسرتها، أخذت تقطع الخضار وهي تدندن بصوت خافت.
*****
في عصر أحد الأيام دلفت فلك للمطبخ مسرعة بفستانها الأصفر الطويل الخريفي قائلة بنبرة انتصار:
_سمعت بعض حوارهما.
ردت سلمى التي تجلس قبالتها وتطعم مريم الصغيرة ذات الخمس سنوات:
_مولعة باصطياد الأخبار يا فلك.
_من تكون تلك الفتاة؟

سألت سارة المنشغلة بتحضيرالطعام، فجلست فلك على طرف الطاولة مردفة:

_ستعمل معنا هنا.

التفتت كلاهما نحوها فتابعت:

_هي طالبة جامعية، واسمها نور من محافظة أخرى وآتية هنا للدراسة والعمل عندنا هذا ما سمعته.

_ماذا ستعمل؟ لدينا طاهية، ومدبرة منزل، ومربية.

ردت فلك على سلمى وهي ترمق سارة:

_ربما لم يعجب السيدة مهجة طبخ سارة وطلبت عاملة أخرى، لا يمكنها استبدالنا نحن طبعًا، وسارة لا تزال في مرحلة تجريبية هذين الأسبوعين، بعد زواج الطاهية القديمة ورحيلها.

عبث التوتر بقلب سارة واضطربت، أيعقل أنها لم تعجبهم؟! هذا العمل الوحيد الذي قبلت به أمها لأنه مريح ووسط فتيات فاطمأنت وأرسلتها، لا تريد لأمها المزيد من التعب والشقاء، ظروفهم الصعبة جعلت أمها تكبر فوق عمرها أعوامًا، أعوامًا سرقت منها عافيتها وأوهنت قلبها، وأحالت نضارة وجهها شحوبًا وتجاعيدًا، تذكرت وصولها مساءً بظهر منحني لا تقوَ على تحركيه وقدمين لا تحملانها، في الفترة الأخيرة باتت سارة هي من تطعمها وتدلك جسدها بعد العمل، حاولت إقناعها بالعمل بدلًا منها خوفًا عليها

وطلبًا لراحتها، لكنها ما فتئت تكرر رفضها إلى أن أقنعتها بهذا العمل كيف لها أن تخسره الآن؟

قرأت فلك حروف القلق المخطوطة في وجه سارة فأردفت وهي تسحب شريحة بطاطة من الصينية التي تعدها سارة:

_لا تقلقي، سأذهب لعلي أتبين الأمر جيدًا.

خرجت فلك وصعدت الطابق العلوي إذ أن البيت مؤلف من طابقين وعُليّة، اقتربت من غرفة الاستقبال لتسترق السمع فانفتح الباب فجأة وظهرت أمامها السيدة مهجة:

_ماذا هناك يا فلك؟

أعادت فلك السؤال "ماذا هناك؟" ثم استدركت:

_لا، لا شيء سيدتي.

أعادت خصلات شعرها وراء أذنها بارتباك وأكملت:

_جئت أسألكما ماذا ستشربان؟

_حسنًا، هذه نور خذيها للغرفة المقابلة لغرفتك وسلّميها المفتاح هي لها من الآن فصاعدًا، ثم خذيها لتتعرف على البقية.

مشت للأمام ثم استدارت قائلة:

_دعي سارة تجلب لي عصير برتقال إلى المكتبة.

مضت فلك مسرعة وهي تسترجع الأوامر المتتالية بينها وبين نفسها ونور وراءها تجاري خطواتها، توقفت عند

وصولهما للغرفة غابت قليلًا ثم عادت مبتسمة ومعها حمّالة المفاتيح، ناولتها مفتاحها فردت بصوت لطيف:

_شكرًا لكِ، أنا نور وأنتِ؟

_فلك.

_اسمٌ مميزٌ جدًا!

*****

كانت فلك تساعد سارة في تجهيز طاولة الطعام، سألت سارة:

_لماذا لم تخرج للآن؟ ألا تريد التعرف علينا؟

_لا أدري، ربما ترتب أغراضها، أشعر بالغيرة من حصولها على غرفة مستقلة وحدها!

_ألا تعجبكِ صحبتي يا فلك؟

_بلى، ولكنها تبدو مغرورة، طريقتها في الكلام رزينة وأنيقة، وخطوتها واثقة، وتريد غرفة خاصة بها، لا تُشبهنا ياسارة، إنها تستفزني!

_اهدئي، نحن لم نتعرف عليها بعد ولا نعرف سوى اسمها.

_لكنني أملك حدسًا يا سارة، هذه الفتاة لا تطاق.

أقبلت نور ملقية التحية ثم سألت:

_أساعدكما؟

_كدنا ننتهي.

_أنتما فقط العاملات هنا؟

_هناك واحدة ثالثة أكبر سنًا منا، أنا سارة الطاهية هنا.
ابتسمت نور تثني على رائحة الطعام الشهية، دلفت سلمى قائلة لمريم التي تمسك بيدها وتبكي:
_كفى يا حلوتي انظري حان وقت الطعام.
ثم رفعت ناظريها لنور:
_نور صحيح؟ أنا سلمى مربية مريم، دعينا نتعرف عليكِ.
_نعم نور.
ثم صمتت، لا تحب أن تعبّر عن نفسها دفعة واحدة، لا شيء مهم لتقوله في سيرتها سوى اسمها، تحب أن تكتفي به كتعريف عن نفسها، هل يحتاج النور لتعريف أكثر من ذلك؟ ألا يكفي كونهُ نورًا فحسب؟ تسعى كثيرًا ليكون لها من اسمها نصيب، تذكرت عملها السابق في المكتبة طلبوا منها معلومات حول حياتها ومهاراتها وحول كل شيء، وعرف الجميع عن نفسه حينها باستفاضة ثم انتهى اللقاء وانصرف كل واحدٍ فيهم لا يتذكر شيء عن الآخرين سوى اسمائهم، لا يمكن للتعارف أن يتم بلحظات إنه يحتاج مُدة وشدة حتى تتعرف على الناس معرفة جيدة، أما التعارف الأول فما هو إلا ثرثرة!
انتشلتها فلك من شرودها بسؤالها:
_ماذا ستعملين هنا؟ ماذا تدرسين يا نور؟

_سأكون معلمة للصغيرة، وقارئة للسيدة، أدرس أدب إنجليزي.

ابتسمت متسائلة:

_سنأكل جميعًا معًا؟

_نعم، تريد السيدة جوٌ أسريٌّ لطيف من أجل الطفلة، إنها طيبة رغم قسوتها أحيانًا ستحبينها يا نور.

ردت عليها سلمى ثم طلبت من فلك مناداة السيدة لبدء تناول الطعام.

*****

خيّم الهدوء على المنزل، خلد الجميع للنوم إلا سارة وفلك كانتا تثرثران معًا قالت سارة وهي تجدّل شعرها الطويل مستندة بظهرها على الوسادة:

_أتعلمين يا فلك؟ ينتابني فضولٌ كبيرٌ حول هذا المنزل!

ردت فلك بفتور وهي تُسدل الستارة الزرقاء بعد أن رفعتها قبل قليل لتتأمل السماء:

_ينتابنا الفضول عادةً حول الأمور المثيرة الغريبة لكن هذا المنزل يقتله الروتين والملل يا سارة، مالذي تودين معرفته؟

_ما قصة مريم أين والديها؟ يحزنني فقد الأمهات، ويفتت قلبي غياب الآباء يا فلك، الاشتياق والاحتياج يؤلمنا ونحن كبار فكيف بطفلة صغيرة؟

رغم معرفتي القصيرة بها إلا أنني أحبها من أعماق قلبي، كيف احتملا تركها هكذا؟!

_على العكس مريم محظوظة، توفيت والدتها أثناء ولادتها، ووالداها إنسان مهمل أُصيب بصدمة نفسية بعد وفاة زوجته وسافر خارج البلاد، يطحن نفسه بالعمل ويرسل المال للسيدة لتعتني بالطفلة جيدًا، يحسب أن المال بإمكانه أن يعوض عن وجوده!

تمددت فوق الفراش وتابعت:

_أنا أكره جميع الآباء والأمهات ملء قلبي!

شعرت سارة بأن هناك جرح لم يبرئ بعد في قلب صديقتها، فالأنثى لا تجرح إلا إذا جُرحت، تبقى رقيقة ناعمة كالزجاج حتى إذ ما انكسر في داخلها شيء ما صارت حادة في ذلك الجانب، ومن سيحاول لمسه أو الكلام عنه لابد أن يطاله الأذى! ودت لو تنهض لتقبلها وتضمها إليها معتذرة عما ذكرته به بدون قصدٍ منها، لكنهما لم تصبحا مقربتان بعد، فلك لا تزال متحفظة ناحيتها وتعاملها بلا مبالاة أحيانًا، عدلت سارة وسادتها مستعدة للنوم، أما نور فقد جلست على طرف السرير بوجوم تتأمل ما حولها وشعورًا ما في قلبها ينخزها، إنها تجيد صعوبة في التأقلم والاعتياد على التغيير، أمامها الكثير لتفعله، لكن الخطوات الأولى يحفها الخوف والترقب دائمًا، محافظة جديدة، حياة

جامعية جديدة، منزل وغرفة جديدة، ومشاعر مبعثرة كأغراضها التي لم ترتبها للآن، تخاف من اعتياد هذه الحياة وهذا المكان وكيف لا وفيه كل ما كانت تفتقده في منزلها الصغير المتواضع، أمسكت دفتر مذكراتها وأخذت تخط عليه:

"وبدل أن أكون سعيدة جلست أبكي بصوتٍ مكتوم، أتأمل ما حولي ويزداد بكائي شيئًا فشيئًا، حصلت على غرفة وسرير وحدي، وطاولة مكتب كنت أحلم بها، ونافذة جميلة تطل على القمر، لكن ما يؤلمني هو شعوري بالغربة وإدراكي بأن كل هذه الأشياء ليست لي، وبأنني سأتركها وأعود من حيث أتيت، الحياة هنا رحبة واسعة وحرّة بعكس ما اعتدت هناك وهذا ما يقلقني، اشتقت لأسرتي ما ضرنا لو كانت حياتنا جميلة كما تبدو هنا؟ أحِن لأمي ولقبلتها قبل النوم، أخاف من العودة خائبة أجر ندمي بعد افتعال الكثير من المشكلات لتصميمي على السفر والعمل والدراسة، أنا الآن وحدي والشعور بالوحشة يقتلني، ستكون هذه الليلة عصيبة!"

*****

يُشرق الأمل مع نسمات الصباح الأولى كل يوم، يتسلل إلى القلوب كما تتسلل خيوط الشمس إلى النوافذ المغلقة.

استيقظت السيدة مهجة في الثامنة صباحًا كعادتها، أزاحت الستائر ذات اللون الأخضر الفاتح المتناسب مع تناسق غرفتها التي فيها مزيج من الأبيض ودرجات الأخضر في أثاثها وسجادها ومفارش السرير والطاولات، فتحت النافذة تأملت السماء الخريفية الغائمة، ثم بدّلت ملابس النوم وارتدت فستان طويل بلون أزرق وعليه تطريزات تقليدية في وسطه وعلى أطراف أكمامه، لبست حجابًا أبيضًا، وخرجت للشرفة الصغيرة التي في غرفتها مع نظاراتها وكتيب الأذكار الصغير، هكذا تمضي مهجة صباحها حتى تستيقيظ الفتيات وتجهزن طعام الفطور عند التاسعة وفي الشتاء عند الثامنة وممنوع تمامًا التأخر عن مواعيد الطعام، احترام نظام المنزل مهم جدًا عند السيدة، موعد الاستيقاظ والنوم ثابت والسهر لوقت متأخر محظور في المنزل، كانت تقسو عليهن أحيانًا وتحنو أحايين أخرى، لم تُرزق السيدة مهجة سوى بولدين: أحدهما سافر بعد موت زوجته وترك وراءه طفلة رضيعة وأم عجوز تحتاج أُنس ورفقة، والآخر لا يهمه سوى زوجته وأودلاه الذين رفضوا العيش معها ولا يزورونها إلا قليلا، كانت تتمنى لو أنها رُزقت بفتاة تفيض عليها بالحب والاهتمام كبقية الأمهات، تخدمها برموش عينيها، وتُسليها بكلماتها وحكاياتها وأسرارها، لكنها مؤمنة بأن الخير كل الخير فيما يختاره الله لا فيما

تتمناه، تحمد الله أنها تجد السلوى وبعض الأنس مع هؤلاء البنات اللاتي يعملن عندها.

*****

كانتا تنتقلان بين المطبخ والغرفة يجهزن المائدة حينما جاءت مريم مسرعة تبكي وتختبئ خلف ظهر سارة، ضحكت فلك:

_ما الأمر ميمي؟ بللتِ فراشك مجددًا؟

ازداد بكاؤها قالت بتلعثم:

_كنـ.. كنت نائمة.. لست أنا.

جاءت سلمى تناديها بحزم فأمسكت بمريول سارة، قالت سارة برجاء:

_لن تعيدها يا سلمى وعد.

ثم نظرت للطفلة بحب:

_صحيح يا ميمي؟

هزت مريم رأسها وهي تشهق، أقبلت نور مرتدية بيجامة وردية وشعر مجعد مبعثر:

_صباح الخير، لماذا هذه الضجة كلها منذ الصباح؟

كانت فلك تأكل زيتونة فاختنقت وسعلت وكحت ثم شهقت بنفسٍ عميق مقتربة من نور مردفة بلهجة استنكار وعينين متسعتين:

_ما هذا؟ ماذا ترتدين؟ يا إلهي يا إلهي لو رأتكِ مهجة ستصاب بنوبة قلبية! ثم تستيقظين آخر واحدة وتتذمري من الضجة، اسمعي يا حبة قلب أمك وأبيك أنتِ لستِ في منزلك ولا في منزل قرة عينك حتى تنامين إلى هذا الوقت.
صمتت تلتقط أنفاسها ثم وضعت يدها على خصرها وتابعت بنبرة آمرة:
_هيا لغرفتك بدلي هذه الفظاعة، وأمشطي شعرك الذي يشبه نبات اللبلاب بشكل جديلة وعودي بسرعة.
كانت نور ترمقها ببلاهة رافعة حاجبيها وواضعة كفيها في جيب بنطالها الواسع لم تستطع ابتلاع الإهانة لكنها صمتت، أقبلت مهجة بصوت حازم ورقم إحدى عشر مرسوم بين حاجبيها غضبًا، تفقدت ساعة معصمها لتتأكد من كونها الساعة التاسعة وأنهن بالفعل قد تأخرن عن موعد تناول الطعام.
_ماذا هناك يا فتيات؟
_لا شيء سيدتي، نور بللت فراشها ومريم لا تفهم شيئًا من قوانين وأصول هذا المنزل.
قالت ذلك فلك ثم ضربت رأسها بكفها بحركة درامية وابتسامة مصطنعة:
_أقصد بالعكس!
_ما بال ملابسي يا سيدتي؟

اقتربت نور متساءلة بحيرة، بينما كانت سلمى تفاوض سارة لتعطيها مريم كي تؤنبها وتبدل لها ملابسها.
صرخت مهجة:
_هدوء.
سارة فلك جهزا المائدة سريعًا، نور الشعر المبعثر والبنطال ممنوع عندنا مطلوب ارتداء فساتين وتجديل الشعر، هيا لغرفتك سريعًا، سلمى خذي مريم وأسرعا، لا تنسين إخبار نور بقوانين المنزل في أقرب وقت، هذه آخر مرة تتأخرن فيها، وآخر مرة أسمع فيها ضجيج فهمتن؟!
*****
في عصر ذلك اليوم كانت فلك جالسة مع سارة، قالت وهي تهز رجلها لا إراديًا:
_كيف ترينني يا سارة؟
_رائعة، ولكن عليكِ أن تكوني أكثر لينًا ولطفًا.
_لا أحب أن أبدو ضعيفة.
ثم التقطت عود فاصوليا من الكيس تناولته وعادت لمساعدتها هي تقطع رأس الفاصولياء من الأعلى والأسفل والأخرى تقطعها ناعمة، سألت:
_كيف كانت حياتك قبل المجيئ إلى هنا يا سارة؟ حدثيني.
_كانت حياة عادية، قبلًا كانت عندنا أرض زراعية صغيرة ثم احترقت بكاملها فبدأ أبي يعمل حطابا، وأحضر لنا بقرة.

_لماذا جئت للعمل عندنا إذن؟
_مرض أبي مرضًا شديدًا وكان بحاجة لعملية لم نكن نملك المال الكافي فقمنا ببيع البقرة.
_كنتِ أنت من يعتني بها ويحلبها؟
_نعم، كانت مهمتي، كنتُ بائعة حليب.
_كيف تستطيعين القيام بهذا العمل، أشعر بأنه مخيف ومقرف قليلًا.
ندمت على إخبارها بتفاصيل لا تعني شيئًا، لا أحد سيحبها ويحترمها إذا عرف بكونها فتاة قروية كانت تعمل بالحليب، هكذا أخبرتها جارتهم قبل سفرها، لكنها لم تقتنع مشكلة سارة أنها تنتظر من الناس التفكير بحب وطِيب كما تفكر هي، ردت:
_ما دام عملًا كريمًا أساعد فيه أسرتي فلا مشكلة لدي، كنت على استعداد لفعل أي شيء من أجل والدي.
_محظوظة أنتِ يا سارة.
عم الصمت لبرهة وتوقفت يدا سارة عن التقطيع، رفعت فلك رأسها لتصطدم عيناها بعيني سارة الدامعتين، ارتبكت فلك:
_هل قلت ما أزعجكِ؟
مسحت سارة دموعها وردت بصوت خافت متحشرج:
_لماذا تظنين بأنني محظوظة؟

_لأنك تحبين عائلتك وتعيشين معهم.
_لكنني لست معهم الآن، أمي متعبة، وأبي لم يعد موجودًا.
_أين هو؟
_عند الله، حيث لا مرض ولا ألم وكدر.
صمتت فلك ونهضت تاركة ما بيديها مغادرة المطبخ، بخلت على الفتاة الجالسة حتى بتعاطف كاذب، أو كلمات تخفف عنها!

*****

تلمست المفتاح الذي يرقد في جيبها بأمان، ازداد حماسها وشوقها لرؤية تلك الغرفة، لطالما أحبت الكتب، وتمنت امتلاك مكتبة، ستقف الآن أمام مكتبة متنوعة وكبيرة كما وصفتها السيدة مهجة، تبّقى رُبع ساعة على موعد القراءة للسيدة، ستسرح بين الأرفف والسطور حتى يحين ذلك الوقت، دار المفتاح في القفل مصدرًا صوت تكتكات ثم فُتح، وقفت بفستانها الوردي الطويل ذو الأكمام الواسعة تتأمل الكتب والبهجة ترتسم على محياها، إنه شعور لا يفهمه سوى القراء، اقتربت تمرر كفها فوق الكتب وكأنها تسلّم على شخص عزيز عليها، راحت تتنقل بعينيها بين العناوين والأرفف بخفة وكأنها فراشة عثرت على حقلٍ مليئ بالزهور.

بعد قليل أقبلت السيدة مهجة للمكتبة كانت نور بانتظارها في ركن القراءة المكوّن من طاولة عليها أصيص زهور، ومقاعد خشبية فوقها وسائد مريحة، رائحة القهوة تفوح في المكان ، جلست السيدة وطلبت من نور أن تقرأ لها من الكتاب الذي بين يديها أولًا وقد كانت رواية، مرت دقيقتان بدون مقاطعة من السيدة وهذا يعني بأن المقروء قد نال استحسانها، قاطعتها مردفة:

_أعيدي هذه الفقرة ثانية يا نور.

_حاضر، أتعلمين يا سيدتي إننا نستعذب ما يلامس قلوبنا من كلمات فلا نكتفي منه بالقراءة الأولى فحسب.

_هل لامست قلبكِ أنتِ أيضًا يا نور؟

_نعم، ولكن ربما بطريقة مختلفة عن التي شعرت أنتِ بها يا سيدتي، لأن كلًّا منا لا يقرأ نفس السطور بل يقرأ نفسه بين السطور، ولذلك يقولون إن الأشخاص الذين يقرؤون نفس الرواية لا يقرؤون نفس الرواية.

نظرت لها السيدة مهجة بإعجاب، كيف لكلامٍ جميل كهذا أن يخرج من فتاة في العشرين من عمرها، كلما تابعت نور القراءة أو علّقت على بعض الفقرات وتناقشت مع السيدة ازداد إعجاب السيدة بها، أحبت جلستها وطريقتها وإحساسها الذي يظهر بنبرة صوتها، استمتعت وارتاحت

كونها وجدت أخيرًا شخصًا يشاركها هوايتها ويتم مهمة القراءة لها بشغف وليس بملل كأنه واجب ينتظر انتهاءه.

*****

تقلبت في فراشها عدة مرات، إنها لا ترتاح وتشعر بتثاقل نبضات قلبها، تنفست بعمق قائلة:

_سارة هل أنهيت صلاتك؟

جاءها الرد بعد ثوانٍ:

_نعم ماذا هناك؟

_آسفة لحديثنا الذي جرى عصر اليوم.

_لا تتأسفي يا فلك، أنا بخير.

_أشعر بضيق شديد يا سارة، إنه شعور لا يمكن وصفه يمنعني من النوم.

انتهت من طي ثياب الصلاة والسجادة مردفة:

_لماذا لا تصلي؟ ربما سترتاحين.

استوت فلك جالسة:

_هل لنا أن نتفق على شيء لو أردنا لصداقتنا أن تدوم؟

أومأت الأخيرة فتابعت فلك:

_ لا تتحدثي معي بشأن الدين أو الأهل، ولا تسأليني عن الماضي أرجوكِ اتفقنا؟

_اتفقنا يا فلك.

_ما رأيك الآن أن نتسلل للخارج؟ سنعد شيئًا لذيذًا ونجلس سويًا في الهواء الطلق لعلي أرتاح.

_ماذا لو عرفت السيدة بالأمر؟

_لا تقلقي إنني أتسلل دائمًا.

خرجتا معًا إلى حديقة المنزل ومعهما كأسين من الحليب، كانت السماء صافية مطرزة ببعض النجوم اللؤلؤية المضيئة، داعبت النسمات الباردة وجهيهما، جلستا تحت شجرة ليمون جنبًا لجنب، أردفت فلك:

_أحب هذه الشجرة، أُسميّها شجرة الحب.

ابتسمت سارة:

_لماذا؟

كانت السيدة سنا تحبها وتسهر تحتها مع السيد فارس، يتسامران، يثرثران، يضحكان، يبكيان، وكنت أراقبهما خلسة من خلف الباب.

_سنا وفارس والدا مريم؟

_نعم، تشبيهن سنا قليلًا يا سارة قلبًا وقالبًا.

صمتت ثم تابعت:

_أتمنى أن يحدث معي شيء ما جميل هنا تحت شجرة الليمون يومًا ما، سارة..

_نعم؟

_قلت عصر هذا اليوم بأنك كنتِ على استعداد لفعل أي شيء لأجل والدك رحمه الله، أي أنك تحبينه حد التضحية، أنا لم أشعر بهذا ولا لمرة واحدة، أتمنى تجربة ذلك الشعور.

*****

استيقظت سارة على صوت قطرات المطر التي تطرق النافذة القريبة من سريرها بأنامل غضة طرية،كم اشتاقت لهذا الجو اللطيف، نهضت بنشاط بدلت ملابسها وخرجت، تناهى لمسامعها صوتًا غريبًا، يبدو أن هناك رجل ما في المنزل، رفعت شال كتفيها فوق رأسها ثم توقفت قبل دخولها المطبخ فجأة، احتقن وجهها عند سماعها لضحكة فتاة خافتة وناعمة، إنه صوت فلك واثقة من ذلك خطت مقتربة فوجدت فلك جالسة على طاولة المطبخ برفقة شاب طويل ناعم الشعر، يحتسيان القهوة معًا ويثرثران، وفلك تناوله بيديها قطعًا من الشوكولا، سألت بنبرة ساخطة:

_من هذا يا فلك؟

_صباح الخير سارة، إنه سعيد.

صمتت ثم استدركت:

_ربما لم تريه من قبل، هو السائق المسؤول عن إيصالنا.

_أنتِ ذاهبة؟

_لا لكنه آت لاصطحاب السيدة لمنزل ابنها.

_كان عليكِ إخباري بوجود أستاذ سعيد هنا.
_كنت نائمة فلم أزعجكِ.
تأففت سارة بانزعاج وخرجت، لحقت بها فلك بعد حفنة من الوقت، دلفت غرفتها وأغلقت الباب خلفها مردفة:
_سارة أرجوكِ لا تخبري السيدة بأنني كنت جالسة بصحبته.
_وتجالسينه بالسر أيضًا!
قالتها وهي تدقق النظر بملامح فلك اللامبالية، ردت الأخرى:
_لا تكوني معقدة كالسيدة، إنه مسكين جاءنا مبكرًا فأحببت صنع قهوة وشطيرة لأجله، إكرام الضيف واجب ياسارة.
_والضحك معه وإطعامه بيدك واجب؟
_سارة كفى!
_كيف يدخل المنزل بدون علمنا، ماذا لو كنتُ خارجة دون حجاب؟
_تلك مشكلتك لا شأن لي بها، هيا سارعي لإعداد الفطور لقد خرج.
أضافت قبل أن تغلق الباب وراءها للخروج:
_وإياك وإخبار السيدة!
اتجهت للنافذة استنشقت الهواء وتمتعت برائحة الأرض بعد المطر ما جعلها تبتسم وتغلق النافذة وتخرج مجددًا،

ركضت مريم إلى سارة بفرحة حينما رأتها في الممر، أردفت سلمى:

_ميمي تحبك يا سارة.

_وأنا أحبها كثيرًا، هل ستذهبين مع السيدة؟

_لا، سأذهب لمنزلي وأعود في المساء.

اتسعت ابتسامة سارة متسائلة:

_لديكِ عائلة؟

_لم تتكون بعد كما ينبغي.

نظرت سارة باستفهام فتابعت:

_متزوجة منذ خمس سنوات لكنني لم أُرزق بالذرية للآن وزوجي في الجيش لا يأتي إلا قليلًا.

وضعت سارة كفها على كتف سلمى مردفة:

_ستكونين أمًا رائعة ذات يوم يا سلمى.

_أرجو ذلك من كل قلبي.

*****

تثاقلت نور في النهوض، هذا الطقس يُغري بالنوم أطول مدة ممكنة، أصدر هاتفها إشعارًا ينبأ بوصول رسالة ما، تناولته ثم نهضت والضيق يملأ صدرها، تمتمت بينها وبين نفسها: "ستكون سماء قلبي اليوم تشبه هذا الجو رمادية وغائمة".

خرجت وإذ بها تلمح الجميع في المطبخ، اقتربت ملقية تحية الصباح فركضت إليها مريم بفرحة:

_لا دراسة، اليوم عطلة.

_عطلة؟

_نعم نعم.

دارت حول نفسها بفستانها الوردي المزركش، قالت سلمى:

_لديهم موعد مع أقربائهم اليوم.

أومأت نور برأسها وأخذت تساعدهن بنقل الأطباق لغرفة الجلوس فاصطدمت بفلك في طريقها وتناثرت بقع الزيت على فستان فلك الأحمر، قالت بغيظ شديد:

_ألا ترين أمامكِ! إنه فستاني المفضل.

غادرت فلك مسرعة ازداد ضيق نور ضيقًا فرقعت أصابعها وركضت مسرعة وراء فلك تحاول الاعتذار منها فدفعت سارة التي تحمل طبق يحتوي على شطائر المربى فسقطت بعضها أرضًا، اعتذرت وانحنت تجمع ما وقع، امتلأت بالدبق، عادت سارة معها ممسحة طلبت من نور إعادة تنسيق الطبق وغسله قبل مجيئ مهجة وستمسح بدورها الأرضية، فحملته نور وعادت به للمطبخ بشرود جعلها تتعثر بدمى مريم، وقعت نور وتبعثرت قطع الزجاج هنا وهناك، صرخت سلمى:

_مريم لا تقتربي.

تذمرت فلك:

_يا إلهي يا إلهي، ما هذا الصباح.

أقبلت مهجة لتقع عيناها على حالة الهرج والمرج في الغرفة، إحداهن تسمح الأرضية، والثانية بفستان مُبقّع، والثالثة تلملم الزجاج المختلط بالمربى وقطع الخبز، سلمى تجرّ مريم العنيدة الباكية التي تريد إنقاذ دماها، اكتسى وجه السيدة حمرة الغضب هدرت مستاءة:

_مالذي جرى؟

_لا شيء سوى أن الفتاة التي اسمها نور فتاة عمياء على الأرجح، لقد تسببت بكل هذا.

استدارت السيدة لنور التي كانت تلمح بها شخصية فريدة وناضجة سألتها:

_هل ما قالته فلك صحيح؟

وقفت الأخرى بارتباك:

_أنا آسفة.

_كفي عن قضم شفتيك يا نور أكره هذا المشهد.

صمتت السيدة ثم تابعت:

_سأخصم من راتبكِ الشخصي يا نور، كوني حذرة ومنضبطة وإلا ستخسرين عملكِ، أهم ما لدي هو الانتظام والتزام الهدوء والقوانين.

ثم التفتت إلى سلمى:

_هيا لنخرج، نكاد نتأخر سنأكل شيئًا ما في طريقنا.
خرجتا معًا، فهتفت فلك وهي تنفض يديها:
_أنا ذاهبة للنوم ولن أساعد بشيء واحد.
خرجت وعم الصمت بينما الاثنتان منشغلتان، كانت نور تلملم الزجاج المكسور وتتمنى لو أنها تستطيع فعل الشيء نفسه مع بقايا الأشياء المكسورة بداخلها، تشعر بالإحراج الشديد، وتلوم نفسها بقسوة، نور إنسانة مرتبة، هادئة، تحسب حساب كلماتها، أفعالها، مشاعرها، تحاسب نفسها وتجلدها قبل أن يحاسبها الآخرين، لذلك يصعب عليها تلقي التأنيب أو سماع كلمات بأسلوب يسخر ويستهزئ ويستنقص منها، وكذلك لا تستطيع السيطرة على توترها فهي حينما تخطئ لا يمر ذلك الخطأ بشكل اعتيادي بل يتبعه مزيدٌ من الأخطاء بسبب توترها ومحاولاتها في إصلاح الخطأ الأول.
_فلك فتاة نزقة وقليلة الصبر لا تنزعجي منها.
_لستُ منزعجة.
_لكن ملامحك تدل على عكس ذلك.
أحيانًا تبدو ملامحنا كصفحة المياه، هادئة لكن أي شيء قد يُعكرها، وشفافة صافية إذ تعكس ما بداخلها تمامًا لمن ينظر إلينا، راحت تتمتم بينها وبين نفسها: "إنه موقف سيئ

لستُ سيئة، إنه فشل صغير ولدي رصيد من النجاحات الأخرى، سيكون كل شيء على ما يرام".

_ارتاحي يا نور إن كنت متعبة.

_ليس تعبًا جسديًا بل فكريًا، لا عليكِ سأنظف الأرضية وأذهب لدي دوامٌ جامعي.

*****

أدارت المفتاح في القفل ودلفت لبيتها بعد غياب، خطت للداخل فسرت قشعريرة في جسدها، المنزل بارد وموحش، تنفست بعمق وتأملت أنحاء المنزل بأعين ذابلة، تذكرت نفسها حينما كانت مراهقة تحمل آمالًا للغد كثيرة لكن أجملها وأقربها لقلبها يتشكل في تكوين أسرة جميلة وامتلاك منزل دافئ تضج فيه الأصوات والضحكات، أجسام صغيرة تتراكض هنا وهناك تقفز وتلعب وتصرخ، عيونٌ بريئة تنظر إليها هاتفةً بكلمة "ماما" كل حين، زوج طيب يحبها وتحبه، تسانده وتكون سكنه فيستمدان قوتهما من بعضهما، يعود للمنزل قبل الغروب يسبقه صوت مفاتيحه فينهض الجميع لاستقباله عند باب المنزل بالبسمات والقبلات، رائحة الطعام منتشرة في أرجاء البيت، قِدرٌ يغلي فوق النار، وأرز تتفتح حباته بالحب فينضج ليكون لذيذًا طيبًا، ستغذي بطونهم بطعامها، وقلوبهم بحبها، هكذا كانت تحلم، والآن لم تجني من أحلامها شيئًا سوى المنزل،

لكنه هادئٌ كالمقابر، بارد، مهجور، يفتقد الأنس، المنزل بدون عائلة كجسدٍ لا روح فيها!
سارعت لمسح دمعاتها المتدحرجة على خديها الورديين، لا بأس تحتاج قلوبنا للدموع أحيانًا حتى لا يصيبها الجفاف وتقسو، لا بد أن تزهر يومًا ما بذور الأحلام التي زرعناها واستودعناها عند الله، اقتربت من الهاتف الأرضي وطلبت رقمًا ما لعلها تطمئن إذا سمعت صوت صاحب ذلك الرقم.

*****

نظرت لساعتها البنية المذهبة في أطرافها فكانت تشير إلى الثانية بعد الظهر، جيد جدًا لم تتأخر عن الموعد، حاولت أن تنسى حديثه الأخير معها، ستتظاهر أمام أمه أن كل الأمور على ما يرام، ربما لن تنجح ويفضحها توترها لكنها ستحاول وهذا يكفي، نظرت للسماء وإذ بأشعة الشمس تخترق بعض الغيوم وتنشر نورها، تأمل أن تشرق شمس قلبها وتهدأ عواصفه، تأمل ألا ترتكب مزيدًا من الأخطاء كما حدث في صبح هذا اليوم، رسمت ابتسامة خفيفة على محياها وصعدت المبنى.

*****

خرجت فلك للتسوق بعد استيقاظها، بقيت سارة وحيدة بصحبة الشعور بالملل والضجر، لقد أنهت كل ما عليها وجلست تحتسي الشاي بهدوء، نهضت لتحضر وشاحًا إثر

شعورها بالبرد فلفت نظرها ألعاب مريم المبعثرة على الطاولة لقد جمعتها أثناء التنظيف، نهضت حاملة إياهم لتعيدهم لغرفة الصغيرة، وضعت كل لعبة في المكان المخصص لها، تبقت معها عروسة صغيرة لم تعرف أين مكانها فتحت الأدراج تباعًا حتى وصلت للدرج الأخير علا خداها ابتسامة بريئة لرؤية الكثير من الأميرات الأنيقات القابعات في الدرج، حينما كانت صغيرة كانت تتمنى اقتناء واحدة بهذا الجمال يا تُرى أين تختبأ أمنياتنا الصغيرة التي لم تتحقق؟ أترانا نتخلص منها؟ لماذا إذن لا ننساها؟

بدا لها أن جميعهن لا يزلن جديدات، أغلقت الدرج وقررت وضع الدمية فوق سرير مريم، أغلقت الدرج فلم يستجيب عاودت المحاولة ولم تنجح في إغلاقه، تمتمت: "هناك شيء ما عالق على الأرجح".

قامت بإخراج الدرج كاملًا فتمكنت من رؤية دفتر صغير أصفر اللون يقبع في الأسفل، سحبته ثم أعادت الدرج مكانه وأغلقته خارجة من الغرفة تفكر في أمر الدفتر يبدو قديمًا ومستعملًا لمدة ليست قصيرة، نسيت أمر البرد حينما احتل تركيزها التفكير في صاحبة الدفتر: "لمن هو يا ترى؟" "كيف وقع في خزانة الألعاب ولم يعثر عليه أحد إلى الآن؟" قطعت حبل أفكارها وقررت فتحه فقط لتعرف هو لمن من أجل أن تعيده لصاحبته.

كانت الصفحة الأولى فارغة فتجاوزتها للتي تليها وراحت تلتهم السطور بعينيها...

"أخيرًا قررت استعمالك أيها الدفتر الوحيد مثلي في ليالي الشتاء الباردة الطويلة، المهمل الذي يشبهني، آسفة لرميك في الدرج مدة عامين لا تحزن سأصبح صديقتك من الآن فصاعدًا، سآتيك نهاية كل يوم لأقص أخباري، وأخط على أوراقك حلو الذكريات ومُرِّها، أتعلم كيف حصلت عليك؟ سأخبرك..

في يوم من الأيام كنا في زيارة لصديق والدي في المزرعة، كنت حينها في السادسة عشرة من عمري وقد وقعت في حب القلم والكتابة، جلست في الشرفة العالية وحدي أتأمل الأزهار والأشجار والأطيار، كان هدوء القرية مريحًا للأعصاب وملهمًا جدًا فأخذت أكتب وأرسم الحروف في جُملٍ وخواطر، شردت فجأة فإذ بالدفتر يسقط للأسفل، أسرعت لأحضره لكنني حينما وصلت وجدته بين يدي أحد أولاد صاحب المزرعة، كان شابًا طويلًا ذو أكتاف عريضة ووجه مدوّر، طلبت منه الدفتر بخجل فتجاهلني وراح يقرأ بصوت مسموع ساخر، نظر إليَّ ثم قال بتهكم:

_تحسبين نفسك كاتبة؟

حينها غضبت وعاودت طلب الدفتر فرماه في بركة الماء أمام عيني، حينها لم أتمالك نفسي وانفجرت بالبكاء إلى أن جاء شاب آخر يشبه الأول قليلًا لكنه يبدو أصغر عمرًا ذو بنية نحيلة، اعتذر عما بدر من أخاه حينها صمتُ وعدت للداخل دون النطق بكلمة واحدة، كنت أخجل من الآخرين بشكل مفرط وأتجنب التعامل معهم، وفي المساء حينما كنت أتمشى في حديقتهم على ضوء القمر سمعت صوت حركة خلفي فتراجعت للوراء وإذ به الشخص نفسه، ألقى علي التحية ثم مد يده إلي بدفتر صغير بلون أصفر جميل، وابتسم قائلًا:

_هذا عوض عن ذلك الدفتر يا آنسة، أعتذر مجددًا.

شكرته حينها وهممت بالعودة فتابع مردفًا:

_انظري للقمر كلما يئستي واستمدي الأمل منه، أضيئي مهما كان حجم الظلام حولك لربما تكونين قمرًا في قصة شخص ما يستمد أمله من نور قلبك.

ثم مضت الأيام يا دفتر وتتابعت الأشهر والسنوات ولم أنسَ ذلك اليوم، إلى الآن كلما حزنت أو يأست أقف في الشرفة وأتأمل السماء وسحر قمرها طوال الليل، لكنني لم استعملك يا دفتر لأنني أردت الاحتفاظ بك كذكرى، أتدري لماذا قررت الكتابة عليك الآن؟"

عند هذا الحد تناهى لمسامع سارة طرقات خافتة على الباب، نهضت بعجلة مرتبكة أخفت الدفتر في جيب فستانها، فتحت الباب فكانت فلك ارتبكت سارة وعادت للداخل بسرعة، دخلت الغرفة وخبأت الدفتر بين طيات ملابسها في خزانتها، وقفت أمام المرآة نظرت لنفسها، رفعت غرة شعرها للأعلى بدبوس شعر أسود، شردت لبرهة تحاول إيقاف أمواج الأفكار التي تجرفها يمينًا ويسارًا، هل تسأل عن صاحبته؟ هل تريه لفلك؟ ماذا لو تم اتهامها بسرقته؟ لكن رغبة ما خفية في داخلها استحوذت عليها بقوة ومنعتها من إخبار أي أحد عنه، تريد أن تعرف قصة الفتاة وتستكشف بنفسها لمن يكون.

*****

كانت نور تساعدهن في نقل الأطباق للمطبخ بعد أن انتهوا من تناول العشاء، بينما كانت فلك تمسح الطاولة حينما أضاء هاتف نور برسالة: "سررت كثيرًا برؤيتك اليوم".

حملت الهاتف للأريكة وهي تحاول قراءة اسم المرسل المكتوب بالانجليزي "Wejdan" تراه اسم فتى؟ أم فتاة؟ اسم أم كلمة إنجليزية لها معنى لا تعرفه هي؟ رفعت حاجبيها بخبث وقد عزمت على معرفة ما وراء نور، فليست هناك فتاة بلا أسرار!

في المساء كانت الرياح تعبث بالشبابيك وبأغصان الأشجار فتصدر صوت ارتطامات تعلن اقتراب فصل الشتاء، الفتيات مجتمعات معًا يحتسين الحليب الدافئ وينتظرن عودة صاحبة المنزل، قالت سارة وهي تسند رأسها على كتف سلمى الجالسة لجوراها:

_اشتقت إليكِ.

فردت فلك:

_هذه استراحة بسيطة انتظري عودة زوجها عند الإجازة وستعرفين طعم الاشتياق الحقيقي حينها يا رقيقة القلب.

صمتت ثم سألتهن بابتسامة:

_ما رأيكن أن نلعب لعبة حتى تعود السيدة من زيارتها

أومأت الفتيات إيجابًا فتابعت:

_حسنًا، هي لعبة أسئلة كل واحدة تسأل التي على يمينها، والتي لا تجيب عليها أن تنفذ طلبًا صعبًا يُطلب منها، اتفقنا؟

ردت سلمى:

_اتفقنا، سأبدأ أنا.

نظرت ليمينها:

_هل لديكِ أحلام يا سارة؟

_لن تسخرن مني لو تحدثت صحيح؟

نفى جميعهن فأكملت:

_لم أحلم يومًا بأشياء بعيدة أو مستحيلة، ربما لأنه يكفيني أن أعيش يومي بهدوء ولا أهتم كثيرًا بالمستقبل، لكنني مؤخرًا أتمنى أن ننتقل للعيش في المدينة أنا وأمي أو نرزق بالمال فأشتري بقرة ونعود لنُسق حياتنا الرتيبة، لا نقلق بشأن ما يحمله الغد.

_لماذا قد نسخر منكِ؟

سألت نور فأجابتها:

_لأن أهل المدينة لا يكفون عن انتقاص أهل الريف والتقليل من شأن أحلامهم البسيطة.

_لا تهتمي بكلام الناس ما يهم أن تكوني أنتِ سعيدة سواء أعجبهم ذلك أم لا، هناك من يمتلك أشياء كثيرة تعجب كل الناس لكنه في داخله يفتقد طعم الحياة، وهناك من يسعى لأحلام بعيدة وكثيرة تسرق منه طمأنينة قلبه لأجل أن يُقال عنه أشياء جيدة، حلمكِ جميل طالما أنه يناسب قلبكِ ويسعده، أتعلمين؟ لا تزالين بريئة يا سارة وهذه البراءة تضفي عليكِ رونقًا ناعمًا وعمرًا أصغر مما أنت عليه.

أضاء وجه سارة بابتسامة مشرقة، شكرت نور على طيب كلماتها وألتفتت تسأل فلك:

_وأنتِ مالذي يجعلك سعيدة يا فلك؟

_لا شيء.

_هذا ليس جوابًا! حسنًا هناك سعادات صغيرة روتينة غير تلك التي نتمناها وقلّما تحدث، فأخبريني مالذي يُسعدك؟
_لا شيء.
_ألا تحبين القراءة، الكتابة، التسوق، الأزهار أي شيء؟ هيا أجيبي قبل أن أجهز طلبي الصعب.
لمّحت سارة لأمر الكتابة وهي تفكر بذلك الدفتر، أجابت فلك:
_قبلًا حينما كنت أسعى لأكون فتاة ناجحة كنت شغوفة بالقراءة والكتابة، أما الآن يا سارة فأنا لا أسعى ولا أجد معنىً للأشياء وبالتالي فإن قائمة الأشياء التي أحبها أو التي تجعلني سعيدة تناقصت حتى أصبحت الآن فارغة.
عمَّ الصمت لبضع ثوان قبل أن تضيف فلك:
_لكنني لست حزينة فلا تقلقي.
ثم استدرات لنور وسألتها:
_دورنا الآن، هيا يا نور أخبرني لماذا تأخرت اليوم خارج المنزل؟
_كان لدي دوام جامعي واعتقد أنك تعرفين.
_لكنك تأخرتِ عن المعتاد، أين كنتِ؟
ارتسمت علامات الضيق فوق وجه نور الناعم، هتفت:
_هل تحسبين نفسكِ أمي حتى تتدخلي في شؤوني بهذه الطريقة ؟

_أنا مدبرة هذا المنزل ومن حقي معرفة ذلك، وإذا قررت عدم الإجابة فحضري نفسك لتنفيذ الطلب.

ردت نور بهدوء محاولة مسايرتها:

_ما دمتِ متمسكة بعنادك ولن تصدقينني فاطلبي ما تشائين.

_دعيني أرى صندوق رسائلك الخاصة حتى أتأكد أنكِ لم تذهبي لمكانٍ غير الجامعة.

نهضت نور منفعلة واكتسى وجهها احمرارًا:

_ذلك لا يعينكِ، لقد تعديتي مرحلة اللعب يا فلك، طابت ليلتكن.

*****

"أتدري لماذا قررت الكتابة عليك الآن أيها الدفتر، وبعد كل هذا الوقت الطويل؟

قررت الكتابة لأن لا آذان لتسمعني سوى الأوراق، وقد فاض القلب بما فيه من أحلام وآلام وحكايات لم تروى، ولأن الذي أهداني إياك أيها الدفتر زارنا اليوم فتذكرتك وعدتُ إليك.

لم أره منذ وقتٍ طويل قد جاء بصحبة عائلته، حينما رأيته شعرت وكأن نسمة هواء مرت على قلبي، نسمة باردة سببت لي ارتعاش وانتعاش في آن واحد، تخيل أنه تقدّم لطلب يدي!

لحظة يا صديقي الدفتر لا تزغرد، لا تتسرع، ربما معادي مع الفرح لا يزال بعيدًا، وربما مستحيلًا لا أدري.
لدينا مهلة للتفكير هذا ما طلبه أبي حينما تحوّل وجه أمي للأصفر بعد سماعها لكلامهم، إنها تخاف علي من كل الأشياء، إضافة لذلك أمي تكره الأغنياء ولا تثق بهم، رغم المدة الطويلة التي تعرف فيها كلتا العائلتين الأخرى إلا أن الرجلين متفقين تمامًا، لكن النساء بينهما حواجز كثيرة ومساحات صمت وبعد شاسعة، والدته مثالية جدًا، مرتبة، منظمة، تهتم كثيرًا بقواعد الاتيكت وتلتفت لأصغر التفاصيل، صوتها متزن كهيئتها ومشيتها وكلماتها، يعلوها الهدوء والوقار، وتمتاز ببعض الغرور كما تنعتها أمي في كثير من الأحيان، لم تخطئ معنا يومًا ولم ترتكب الأخطاء في حضرتنا ولديها نزعة عدم تقبل الخطأ كذلك وهذا ما يجعل علاقتها بأمي سطحية لأن علاقات كهذا لا تمنح أمي راحةً تجعلها اجتماعية ومحبة لمجالس أشخاص كهذه المرأة، أما عن أمي فهي مرتبة وبسيطة وجميلة جدًا، لكنها قليلة الثقة بنفسها، كثيرة الانفعال، تغلب عليها عاطفتها أغلب الأحيان ولا تأبه بنصائح أبي حينما يأمرها أن تولي زمام الأمور لعقلها فحسب وتنحّي عاطفتها وخوفها جانباً، ويردد على مسامعها باستمرار "العواطف عواصف اضبطي عواصفك!"، والأهم يا دفتر أن أمي قلقة طوال

الوقت، تمارس القلق كما تمارس عملية التنفس وبالتوازي معها تزفر الأمان مع الهواء وتأخذ شهيقَ قلقٍ جديد يزيد من دقات الخوف في قلبها ويتعبه ويتعبنا معها نحن أيضًا يا دفتر!

قبل قليل بينما نحن نحتسي الشاي في جلسة هادئة بعد رحيلهم، قدمت أمي أثناء حوارها مع أبي رفضًا قاطعًا، مؤيدًا بالحجج والبراهين التي تثبت صحة قرارها ومدى صوابه، كان الانفعال يبلغ منها مبلغه بينما أبي جالس قبالتها ببروده الاعتيادي المستفز لها، يقابل كلامها بلا مبالاة ولا يمحنها ردًا أو إشارة تطفئ نارها قليلًا، ثم انسحب من الجلسة للحديقة، وبعد ثوانٍ سمعنا صوت سيارته قد خرجت من الباب الحديدي فعرفنا أنه غادر، هذه عادته حينما تبدأ أمي بالحديث عن شيء لا يود النقاش به، وحينما يحدث مالا يريده، يترك كل شيء خلفه ويرحل بلا مبالاة ولا ردة فعل، يتزامن صوت مغادرته مع انهيار أمي بالبكاء، هذه حلقة دائرية مكررة لا نهاية لها، تدور بها حياتي منذ أن كبرت وبدأت أفهم الحياة، ليتني لم أكبر يومًا ، ليتني لم أفهم الحياة، ليتني لم أعش حتى الآن يا دفتر!

أحب هذه العائلة وأضيق بها ذرعًا، أود فراقها ولا أقوَ على البعد عنها، أتألم منها لكنني أحبها، لا أدري مالذي علي فعله يا دفتر!

أتعلم؟ يحسدنني صديقاتي في الجامعة لعيشتي السعيدة كما يدّعون، إنني أمتلك منزلًا كبيرًا أشبه بقصر، وحديقة وغرفة خاصة، ولدي سائق خاص لا اضطر لركوب المواصلات العامة مثلهم، ولدي سيارة خاصة في المدخل الخلفي للمنزل، لكن أمي تمنعني باستماتة من قيادتها، أهرب سرًا بدون علمها أحيانًا وأتجول فيها بالقرى المجاورة أشعر وكأنني أنتمي للبساتين للقرويين للمعيشة البسيطة السعيدة، كل ما لدي لا يمنحني السعادة يا دفتر، إلى من تتجه السعادة يا ترى؟ لمن يملكون كل شيء أم للذين لا يملكون شيئًا؟

أتعلم إن السعادة لا تأتي لمن يبحث عنها، بل تأتي للذي يناسها ويعيش حياته مستمدًا معنى وجوده من نفسه لا ممن حوله أو مما يملك.

حتى الفقراء ليسو سعداء، لقد حدثتني أمي عن معاناتها السابقة مرارًا، لقد فقدت والدها وأخاها في حادث سير، وعاشت مع أمها حياة شقاء حتى تقدم لها أبي في يوم من الأيام، ظنت أن أبواب الجنان قد فُتحت لها، وأن الأحلام الوردية قابلة للتحقق وليست مجرد أوهام كما قالت لها الكثيرات، لكن ما لبثت أن تكدرت فرحتها يوم حفل الخطوبة، كانت جميع الحاضرات ينتقصن منها، من طريقتها في الكلام والحركة والأكل، من نطقها لبعض

الكلمات بشكل غير صحيح، سخروا من بساطتها وذوقها القديم البعيد عن الموضة في الملابس والأدوات والتسريحة، سخروا من كل ما فيها، في كل اجتماع عائلي كانت تعود فاقدة جزء من فرحتها من دموعها من ثقتها بنفسها، لقد فقدت نفسها في سبيل الوصول لحياة أفضل، وحاولت الصبر حتى لا تعود لأيام البؤس والبرد والقلة والاحتياج، عاشت أيامًا غذت وحش الخوف الذي يقبع في داخلها حتى كبر وسيطر على كل تصرفاتها مستقبلًا، أمي كانت تخاف من الحوادث والخطر والمرض والشوارع والغرباء، تخاف من العتمة والفقر ومن العلاقات مع الآخرين ومن اتخاذ القرارات، وبعد علاقتها بعائلة أبي انضم خوف جديد لقاموس مخاوفها الطويل وهو الخوف من الأغنياء وتجنب توطيد العلاقة معهم، كان أبي يحبها، يساندها ويساعدها حتى تتأقلم وتفتح صفحة جديدة مع الحياة، صفحة بيضاء خالية من الأمس المؤلم، لكن الصفحة القديمة لم تتمزق من دفتر ذكريات أمي بل ازدادت تمسكًا وصار من الصعب اقتلاعها أو نزعها، سأم أبي من محاولاته في إسعادها واختار أي يسلك طريق البرود في علاقته مع أمي، كان كلاهما يحاول أن يبدو على ما يرام أمام شريكه وأمام الآخرين، لكنه في قرارة نفسه يثق تمامًا أن لا شيء على ما يرام أبدًا!

انتظرا الإنجاب لعل وجود الطفل في حياتهما يمنحهما شيئًا من البهجة ويعيد الحب إلى منزلهما، لكنهما لم يُرزقا سوى بي وبعد عدة أطفال ماتوا بعد ولادتهم، لذلك حظيت باهتمام كبير، أبي يعمل ليأتيني بكل ما أحب ويغيب طويلًا لتجنب الشجار مع أمي، أما بالنسبة لأمي فقد كنتُ الوعاء الذي تفرغ فيه كل مشاعرها وتحاوطه بكل رعايتها الفائقة ووساوسها لكي لا تفقده، وهكذا كبرت في عائلة هشة لا دفء فيها، ولا أواصر قوية، وكلما دقَّ الكوز بالجرة يهدد أبي أمي بالطلاق، ولا يتوانى عن تذكيرها بأنها من أكبر الأخطاء التي ارتكبها في حياته كلها، كنتُ أراقبهما من طرف الباب المغلق بجرح مفتوح في طرف قلبي، لا أدري مالذي جعلني أبوح وأكتب كل هذه الجراح الآن يا دفتر، ربما لأن طاقتي انتهت، لأن الآلام فاضت واحتاج سكب القليل منها في حنايا الأوراق ليتسع قلبي للحياة مرة أخرى، وداعًا الآن يا دفتر"

أغلقت سارة الدفتر ونهصت لتخفيه وتخفي آثار الدموع المتساقطة على وجنتيها، شعرت بالأسى حيال صاحبة الدفتر، أدركت أنها برغم صعوبة الحياة التي كانت تعيشها في الريف وتشتكي منها أحيانًا إلا أنها كانت هانئة ولا جروح في روحها كما هذه الفتاة، شعورٌ ما يلحُ عليها بأن الفتاة هي فلك، بأن عليها أن تكمل القراءة للآخر قبل إعادته

لها، تريد أن تفهمها لتساعدها، تشعر أن هذه الفتاة تعنيها، وتريد مساعدتها لكن لا تعرف كيف، ربما ستستطيع ذلك حينما تنتهي من القراءة، تريد أن تعرف مالذي أوصلها إلى هنا، كيف وصلت لهذه النسخة من شخصيتها يا ترى؟

دلفت فلك للغرفة قاطعةً تساؤلاتها بقولها:

_أين أنتِ منعزلة منذ الصباح؟ عليكِ إعداد الغداء يا سارة.

_سآتي حالًا.

_هل لا تزالين غاضبة مني؟

لم تتلقَ ردًا فخرجت وقد فهمت بأنها بالفعل لا تزال منزعجة منها، راحت تفكر ما المشكلة إن طلبت من سعيد أن يساعدها في حمل الأخشاب التي وصلت البارحة للداخل؟ وترتيبها معها في غرفة الأخشاب الداخلية والمخزن الخارجي؟ أليس من العسير عليها هي والفتيات أن يقمن بذلك العمل الشاق؟

إن سارة "معقدة" وتجعل جميع الأمور صعبة ومُحرّمة، هذا ما وصلت إليه بعد تفكير قليل، لم تعترف بخطأها أو تعتذر عنه، فهي لا تدري ما معنى أن تخرج من غرفتها مطمئنة بأن ليس في المنزل سوى النساء ثم تصطدم عيناها برجل طويل في الممر منذ الصباح يقترب ناحيتها، لم تشعر بالغيرة على نفسها ودينها وحجابها قط، لا تشعر

بالنار التي تتقد في قلب من يخالف أوامر الله ولذلك لا تجد تفسيرًا للغضب الذي شعرت فيه سارة هذا الصباح.

*****

بعد العشاء وضعت السيدة مهجة منديلها على الطاولة وتمتمت بالحمد ثم قالت بعد أن أعادت نظارتها للخلف بحركة لا إرادية تفعلها على الدوام كلما قررت الكلام في لحظات الهدوء، أو حينما تفكر في أمر ما وتشرع بالحديث عنه:

بعد نصف ساعة من الآن تفضلن إلى مكتبي.

قالتها ثم غادرت للخارج، تبادلت نور وسارة النظرات بغير فهم، أردفت فلك بلا مبالاة وهي تجمع الأطباق:

_ حان وقت التقييم الشهري ودفع الرواتب، لا تقلقن.

اتجهت الفتيات لمكتب السيدة كما طلبت، جلسن قبالتها متجاورات فوق الأريكة الكبيرة، اقتربت نحوهن ومعها ظروف ورقية، أعطت الأول لسلمى مع عبارات الشكر و الامتنان على اعتنائها بالصغيرة ومنحتها يوم الغد كـ: عُطلة.

ثم ناولت الثاني لسارة مردفة: _يداكِ الناعمتان تصنعان طعامًا لذيذًا مع رشة الحب التي تمنحينها لطعامك، لديك

عطلة ثلاثة أيام يا سارة تبدأ من يوم الغد، احزمي حقائبك سيوصلك سعيد غدًا.

لم يُعكر مزاجها سوى ذكر سعيد، لا تحتمله وتكره وجوده رغم كونها لا تعرفه جيدًا لكن تصرفاته مع فلك تغضبها، ابتسمت سارة للسيدة لطيب كلماتها، فبرغم حاجة الإنسان للمال إلا أنه حاجته لمن يُقدّره ويمحنه الحب والتشجيع أكبر، ثم وصلت لنور فقالت بحزم وهي تمد يدها بالظرف الورقي:

_برغم كونكِ ناضجة وذكية يا نور إلا أنني لا أدري من أين تأتين بتصرفاتك البلهاء أحيانًا، تم خصم ثلاثين بالمئة من راتبك، ولأنك في محافظة أخرى اختاري عطلة تتناسب مع دوامك الجامعي ولا تغيبي أكثر من أربعة أيام.

أعطت المغلف الأخير لفلك بابتسامة:

_لا غنى لنا عنكِ يا فلك تعرفين ذلك، بإمكانكن الانصراف الآن، ليلة طيبة.

هتفت سارة عند خروجها:

_أخييرًا! اشتقت للمنزل، للريف، لأمي وصوتها وطعامها، للشجر والبحر والحجر، اشتقت لكل شيء.

قالت سلمى:

_أما أنا فأكره منزلي، لكن لا بأس ببعض الراحة.

_ومريم؟

_مريمة تقضي يوم عطلتي في بيت جدتها والدة أمها.
نظرت فلك لنور بطرف عينها وسألتها:
_ألستِ سعيدة بالعطلة يا نور؟
_من فرط سعادتي سأجلعها عطلة أبدية على الأرجح!
ردت باستهزاء ودلفت لغرفتها، اتجهت لطاولة المكتب فتحت الدرج أخرجت بعض الأوراق النقدية كانت قد حصلت عليها من ترجمتها لأحد الكتب، وضعتهم قرب المغلف جلست تعدّهن، ثم تنهدت بعمق، هذا المبلغ ضئيل أمام المبلغ المطلوب، كان خطأً منها أن تعاند وتتبجح أمام أسرتها بأنها ستجمع المبلغ بنفسها، تحتاج قرابة السنة من العمل حتى تحصّله بينما الوقت المتبقي يمضي سريعًا وربما لا يحتمل التأجيل لوقت طويل، كانت تشعر أن هذا ما سيحدث لكنها أرادت أن تحاول لقد بذلت جهدها لم تصرف شيئًا لأجل المواصلات فسعيد من يوصلها، وآثرت على نفسها ألا تشتري شيئًا لا في الجامعة ولا خارجها رغم كثرة الأشياء التي تغريها للشراء، أرادت أن تثبت لهم نجاحها لكنها فشلت، راحت تلوم نفسها على حماقتها التي تسببت في خصم جزء من الراتب، توسدت يداها وأراحت رأسها فوقهما على طاولة المكتب، هل نبدو شجعانًا أم أغبياء حينما نسلك دربًا يرفضه الجميع؟ خاصةً لو عدنا منه حاملين لافتة الفشل بأيدينا؟

لا طاقة لها لحزم الأمتعة ولا حتى للدراسة، هناك كتابٌ يحتاج ترجمة عليها تسليمه بعد أسبوع، لكن التفكير أكل قواها وهمتها، كانت بحاجة لبعض الدموع لكن دموعها صعبة المنال لا تنهمر بسهولة كلما احتاجت إليها، انتشلها صوت سارة تناديها من وراء الباب ثم فتحته ودلفت للداخل.

_ما بكِ؟ متعبة؟

_قليلًا.

_جهزت بعض المقرمشات وعصير برتقال طازج سنجلس معًا لبعض الوقت "سهرة الوداع" هيا تعالي.

_لدي مهام عديدة علي إنجازها يا سارة.

_أنت لا تنتهين من المهام والإنجاز يا نور، محاضرات، دروس، أوراق، كتب عربية، كتب إنجليزية، ترجمة، روايات، تدريس، وقراءة للسيدة، ألا تشعرين بالصداع!

ابتسمت نور بوهن ثم خرجت مع سارة.

كانت الفتيات تجلسن على السجاد الأزرق الفاخر قرب المدفأة، لا شيء سوى ضوء ألسنة اللهب المنعكسة على الصينية وبعض الشموع، جلست نور وفردت شعرها من المشبك وأخذت تجدله، سألت فلك وهي تتناول حبات الفستق: _مالذي ستفعلنه في الراتب يا بنات؟

_سأشتري حاجيات المنزل وأعطي البقية لأمي وأبقي معي القليل لوقت الحاجة.

ردت سارة ثم ردت نور بعدها:

_ومالذي قد يُفعل بمبلغ كهذا؟

أعادت سلمى كأس العصير بعد أن شربت منه القليل قائلة:

_كوني قنوعة يا نور.

_وما القناعة؟

_أن ترضي بما قسمه الله لكِ من رزق وتقدري تلك النعمة.

_هل سأنال السخط إن لم أرضَ؟

_الرضا يأتي بعد الصبر غالبًا لأنه صعب، فإن صبرتي بدون تسخط وتذمر ستكونين من الصابرين وتنالين أجرهم، لكن إن لم تحتسبي أجر الصبر عند الله وحملتي في قلبكِ سخطًا على الأقدار فهذه مشكلة كبيرة فاحذري يا نور.

قالت فلك باستخفاف بينما تقضم حبات الفستق ببطء:

_نور.. مالذي ينقصك حتى لا ترضي؟

_لا ينقصني سوى سكوتكِ يا فلك.

ردت ببرود بينما استفزتها جدًا نبرة فلك وطريقتها في الكلام وفهمت بأنها تعني "أن لا شيء ينقصك يا نور" ولكن لم تقلها صراحة، تدخلت سارة لتغيير الموضوع وسألت فلك عمَّ ستفعله بالمبلغ فردت:

_سأُفصّل فستانًا جديدًا للشتاء، ما نوع فستانك الذي لن يكفيك المبلغ لتشتريه يا نور؟
_لستُ كالفتيات الفارغات لأفكر بهذه الطريقة.
صاحت فلك رافعة حاجبيها:
_تقصدين أنني فارغة يا مغرورة؟
نهضت نور متجاهلة إياها وسارت إلى غرفتها بدون أن تنطق حرفًا واحدًا، حزمت أمتعتها، جهزت حقيبة صغيرة لسفر الغد، ورتبت بقية الأغراض كلها في حقيبة كبيرة، ربما لن تعود إلى هنا مجددًا، ولو حدث ذلك ستعود لتأخذ حقيبتها وتنصرف، أدت صلاة العشاء ثم استلقت فوق السرير بعيون دامعة، ربما كان عليها أن تسمع كلام والدها وتطيعه، تتساءل هل لا يزال غاضبًا منها لقرارها بالدراسة والعمل ومخالفة أمره؟ كيف سيستقبلونها غدًا يا ترى؟ لم تجمع المال، ليست سعيدة هنا في المنزل، ولم تحب أجواء الضغط والجامعة، ولكن برغم ذلك هناك جزء في داخلها يريدها أن تستمر في الطريق الذي اختارته، أن تشعر أنها قوية وأن لها قيمة في هذه الحياة كالآخرين، والجزء الآخر متعب يدفعها للاستسلام، حملت هاتفها كتبت رسالة ما ثم أغلقته ودفنت رأسها في الوسادة لعلها تنام.

*****

فصل هاتفه عن مقبس الشاحن وهو في طريقه للخروج من المعمل، رسالة ما توسطت الشاشة جعلته يصطدم في الباب ويتوقف مكانه، لطالما انتظر رسالة منها حتى كاد ييأس من الأمر، يتفقد حسابها من آن لآخر ولا يجد جديدًا، يدخل محادثتها عازمًا على السؤال والحديث لكنه ما يلبث أن يحذف كل ما كتبه قبل إرساله ويخرج، كان متلهفًا لمعرفة ما سيحدث معها، رغم كونه لا يحب رؤيتها حزينة إلا أنه كان يتمنى فشلها لتفكر في كلامه أو تعود إليه.

"هل بإمكاني رؤيتك غدًا؟
سأكون في محطة القطار قبل الساعة العاشرة"

قرأ الرسالة للمرة الثالثة، إنها كما هي دائمًا، حازمة في حديثها ولا تدع مجالًا للنقاش، تحسم الأمور وحدها حتى المكان والموعد تحدده بنفسها في رسالة واحدة! كان في داخله مزيج من المشاعر بين الفرح واللهفة لرسالتها ولقائها وبين الانزعاج من أسلوبها وحديثها معه.

*****

كان صباحًا غائمًا ينذر بعاصفة وأمطار وفيرة وغزيرة لا تزال مختبئة في بطون الغيوم الرمادية التي تملأ السماء وتحجب أشعة الشمس ودفئها، فلك توقد المدفأة، سارة تتلو أذكار الصباح وهي تعد الفطور، نور تضع آخر دبوس في شالها، وتطالع نفسها في المرآة كانت تبدو منطفئة كما هو ضوء الشمس في هذا اليوم.

أقبلت السيدة مهجة مسرعة تبحث عن فلك وحينما وجدتها منهمكة في إيقاد النار صحبت سارة معها وصعدتا الطابق العلوي معًا، وصلتا أمام غرفة في نهاية الممر فأخرجت السيدة مفتاحًا صغيرًا مزخرفًا وعليه شريطة بنفسجية اللون، دلفتا معًا للداخل كان الأثاث جميلًا وبسيطًا، فيه تنسيق بين اللون البني والبنفسجي، السجاد بنفسجي وكذلك الستائر ومفرش السرير والساعة، فهمت سارة أن هذه غرفة والديّ مريم.

_اصعدي على حرف السرير يا سارة واسحبي الحقيبة السوداء التي في الأعلى فوق الخزانة، تصلين صحيح؟

قالت السيدة فردت سارة بأنها ستحاول وحاولت سحبها لكن الحقيبة كانت ثقيلة جدًا، بذلت جهدًا أكبر فاستطاعت سحبها لكنها لم تستطع أن تتوازن فوقعت هي والحقيبة، كانت

السيدة تخرج بعض الأغراض من إحدى الأدراج فهرعت مسرعة إليها، سألتها:

_أنت بخير؟

_نعم.

أجابت وهي تحاول النهوض فتابعت السيدة:

_خيرًا يا سارة، اسمعي افتحي الحقيبة وأخرجي منها معطفًا والقليل من الملابس الصوفية والقبعات وضعيها لجانب هذه.

أشارت لبعض الأغراض الأخرى التي وضعتها فوق السرير.

فعلت سارة ما طُلب منها ورتبت الملابس المطوية في حقيبة أخرى، ثم أعادت الحقيبة السوداء الكبيرة للأعلى ثانية، كادت تخرج فلفت انتباهها العطور وعلب الزينة التي لا تزال مصفوفة بأناقة على طاولة المكياج ذات المرآة الكبيرة، تأملت لمسات السيدة الأنثوية اللطيفة التي تقبع في كل جزء من المكان، وكأن كل ما في الغرفة يُشعرك وكأنها لا تزال موجودة على قيد الحياة، مؤلم هو الفقدان المفاجئ لدرجة الانكسار!

خالجها فيض من المشاعر الشجية أثناء تواجدها في تلك الغرفة، لم تلحظ ما سقط منها قبل قليل فوق السجادة، سحبت الحقيبة وغادرت بهدوء مقفلة الباب وراءها.

*****

كانت جالسة على أحد المقاعد الخشبية تفرك يديها بتوتر، تبقى ربع ساعة لرحلة القطار القادمة لكنه لم يأتي بعد، حتى أنه استلم رسالة البارحة ولم يرد عليها، راحت تلوم نفسها على تسرعها وإرسال لتلك الرسالة، ربما لا يهمه الأمر فقرر عدم المجيء، كثيرة هي التساؤلات التي تتأرجح في عقلها ذهابًا وإيابًا.

_صباح الخير.

التفتت لصاحب الصوت الخشن، كان متوسط الطول ذو أكتاف عريضة وابتسامة واسعة، يريدي معطفًا جلديًا أسودًا ومعه مظلة كبيرة باللون نفسه، جف حلقها ردت تحية الصباح بخفوت ونهضت واقفة:

_ما رأيك أن نتمشى ونتحدث؟

لمع ضوء البرق فشقَّ صفحة السماء، ثم دوى هزيم الرعد بقوة، رد قائلًا:

_ستمطر، من الأفضل البقاء هنا أو الجلوس في المقهى إن شئتِ.

_نبقى هنا.

عاد صوت الرعد ثانيةً، وبدأت قطرات المطر ترسم دوائر صغيرة على ورقة الأرض الجافة أثناء انهمارها بتتابع ثم أخذت تتسارع شيئًا فشيئًا، كان الهدوء يخيم على الأجواء

إلا من صوت المطر الذي يعزف موسيقته التي تريح الأنفس، لا تدري نور كيف ستفتح الموضوع معه برغم كون الأمر يعينها إلا أنها تريده أن يبدأ.

_كيف حالكِ؟

_بخير.

_لا يبدو أنكِ كذلك.

_كيف حالك أنت وكيف حال عمتي؟

كانت تغلي بينما كان الجو باردًا، لا تحب لقاءه، تفهمه، تعرف مشاعره نحوها، وتعرف بأنه يفهم حالها دون سؤال فلماذا يسأل؟

_هل فكرتِ فيما تحدثنا به مؤخرًا؟

_نعم

حينما سمع تلك الكلمة الصغيرة القصيرة التي قالتها حتى بدون أن ترفع عينيها إليه صمتت عنده كل الأصوات، ما عاد يسمع سوى صوتها، أراد الاستفهام أكثر:

_موافقة إذًا؟

ومض البرق ثانيةً برفقة إجابتها بـ "لا"، تبددت مشاعره الوردية قبل أن تبدأ، قال بنفاذ صبر:

_نور، لا أملك حبلًا لأسحب الكلام منكِ سحبًا وكأنه واقعٌ في بئر عميق، الوقت يمضي وستمرضين لو بقيتي مدة أطول تحت هذا المطر.

اقترب منها قليلًا ووضع مظلته فوق رأسها.
_عندي عطلة، سأعود للمنزل.
صمتت قليلاً قم أضافت:
_ ربما ذهابًا بلا عودة.
نظر إليها مستفهمًا فتذكرت كلماته عن سحب الكلام والحبل فتابعت بنبرة أسرع:
_لقد ترجمت كتابًا وعملت بالتدريس لمدة شهرين لكنني لم أجني ما يكفي لعملية أختي، تبقى شهر واحد لوقت العملية والتأخير يقلل من فرصة نجاحها، أشعر أن كل ما أقوم به لا نفع له.
_والجامعة التي حاربتي لدخولها؟
_لا بأس سأتوقف.
_لقد حاول الجميع إقناعك بذلك لكنك تمسكتي بقرارك بقوة، ستستسلمين الآن؟
_أحيانًا لا نصدق حتى نحاول بأنفسنا.
_هل كان عنادك بالفعل لجمع المال لعملية أختك أم لأجل دخول الجامعة؟
_لأجل كلاهما.
_إذًا لا تخسري كلاهما يا نور.
_ما باليد حيلة يا وجدان.

_أنتِ تستسلمين دائمًا في اللحظات الأخيرة هكذا منذ طفولتك حتى الآن! أتذكر حينما نلعب كنت تفوزين علي ثم تستسلمين للخسارة في النهاية، كم تكلف العملية؟
نظرت إليه فأعاد سؤاله:
_لست أمزح يا نور.
_لا أريد منك دفعه كاملًا لقد جمعت بعض المال ولدي سوار ذهبي سأعطيه لك أكمل المبلغ وادفعه للـ...
قاطعها:
_دعي الأمور لي، وافقي على الزواج بي سأدفع المبلغ وسأدعك تكملين جامعتك هنا، هل أفاتح والدكِ بالأمر؟
سحبت نفسًا عميقًا، لا تريد اتخاذ خطوة كهذه لكنها بالمقابل تريد مساعدة أختها وإعادة النور لعينيها، همست:
_لا.
_ نور ألم تتعلمي في حياتك سوى هذه الكلمة المستفزة؟!
_لا.
رمقها بنظرة غضب فتداركت الأمر مردفة:
_أقصد تعلمت الكثير يا وجدان، لكنني أريدك أن تساعدني بلا مقابل.
_إن لم توافقي على الزواج بي فلا شأن لي بما يخصك.
ساد الصمت، خاب أملها به ألا يزعم بأنه يحبها لماذا يتصرف بأنانية إذن؟ ألا يعمل الخير ابتغاء وجه الله بلا

مقابل؟ لم تتوقع أن هذا اللقاء سيكون بلا فائدة كما كل الأشياء التي فعلتها، ارتجت السكة الحديدية تنبأ باقتراب وصول القطار، رنت للتذكرة القابعة بكفها، أدرك بأن وقت رحلتها قد حان، لم يزده هذا اللقاء سوى ضيقًا فوق ضيقه، ألهذه الدرجة يبدو شخصًا سيئًا؟ لم تقبله في أفضل حالاتها ولا في أسوءها، كره نفسه ومجيئه وفرحته السابقة برسالتها.

كان يريد الاعتذار عن أسلوبه الفظ ورفضه لمساعدتها بتلك الطريقة لكنه صمت، وكانت تريد أن توضح له بأنها لا ترفضه لشخصه بل ترفض الأمر بشكل عام، لكنها صمتت حياء ولأنها لا تريد إعطائه أملًا لا تدري ما نهايته.

*****

كانت مريم تجلس بين سارة وسلمى تمسك بين كل منهما وتبتسم ببراءة لكلتاهما، والسيدة مهجة تجلس في المقعد الأمامي بجوار سعيد، توقفوا قرب بيت صغير ذو حديقة، كان الشارع فارغًا، وللمباني طابع فاخر، نزلت السيدة مهجة وتبعتها سارة وهي تحمل مريم التي نامت في حضنها قبل الوصول بقليل، داعبت أنفها رائحة المطر والورد الجوري المزروع في الحديقة عند دخولها إليها، أطلت من وراء الباب سيدة تبدو في الخمسينات من عمرها، عينيها بلون العسل تحيط بهما القليل من التجاعيد،

شعرها البني يصل لكتفيها، رحبّت بالسيدة مهجة ثم صمتت تمامًا عندما تلاقت عيناها بعيني سارة، أشارت لها بجمود وازدراء بالدخول لتضع ميمي في الداخل، دلفت واضعة إياها فوق أريكة بيضاء وثيرة وتصنعت ابتسامة لتلك المرأة التي جعلتها تتوتر بنظراتها ثم خرجت عائدة للسيارة، داعبتها سلمى:

_ما بكِ؟ ظهرت لكِ وحوش في الطريق؟

_لا لكن تلك السيدة أخافتني، كادت تأكلني بعيناها.

_إنها غريبة الأطوار دعينا منها، ما رأيك أن تأتي معي؟

_إلى أين؟

_سأشتري بعض الأشياء، أرغب برفقتك لن نتأخر يا سارة.

زينت وجه سارة ابتسامة رقراقة، لم يخبرها أحد من قبل بأنه يحب رفقتها أو يحتاج لوجودها، شعور المشاركة هو شعور دافئ حينما ترى من يشاركك تفاصيله الخاصة، وكأن استأمنك ليطلعك على عالمه الخاص، وكم بدا عالم سلمى زاهيًا، إذ وجدت سارة نفسها في محل كبير للأصواف ومستلزماتها، بحرٌ واسع من الألوان ملء ناظريها، تدرجات كثيرة باللون وبالحجم تصطف قرب بعضها في مشهد يبعث السعادة.

_أي الألوان مناسب كهدية لشاب يعاني البرد والوحدة في ليالي الشتاء الطويلة بعيدًا عني؟

همست سلمى متساءلة، فأجابتها سارة:

_كل الألوان مناسبة مادمت ستحيكين تلك القطعة بيديك بكل حب إذن سيحبها كيفما كانت.

_في كل شتاء أحيك له قطعة جديدة، أظنه يحتاج قبعة وقفاز في الوقت الحالي لكنني محتارة بشأن اللون.

_أي الألوان يحب؟

_الأزرق، لكنني صنعت له كنزات عديدة بتدرجات ذلك اللون.

_إذن تذكري لونًا ما يحبه كلاكما، ويربطكما بذكرى مميزة وقديمة، ليتذكرها ويتذكرك كلما ارتداهما.

ضحكت سلمى:

_من أين أتيت بهذه الفكرة أيتها المشاكسة؟ لقد أحببتها!

اختارت سلمى ما تحتاج إليه، سألتها سارة بحماس قبل اقترابهما من مكان المحاسبة:

_هل لكِ أن تعلميننني الحياكة؟

_أنت جادة؟

_نعم، لن أستطيع الخروج بدون شراء شيء ما من هنا سيؤلمني قلبي.

_حسنًا، هيا لنختار لونًا وسنارة مناسبة للتدريب.

*****

حينما وصلت نور للمنزل طرقت الباب عدة مرات ولم تتلقَ إجابة، اتصلت بوالدها مرارًا فكان الخط مغلقًا، استبدّ بها القلق، البيت فارغ ولا أقارب لهم هنا في البلد سوى عمتها أم وجدان وهي بمحافظة أخرى، أين يمكن أن يكونوا؟ هل يا ترى هم بخير الآن؟ تناهى إلى مسامعها صوت خطوات بكعب عالٍ تصعد الدرجات، سارعت إليها عساها تجد إجابة لتساؤلاتها، ألقت التحية وسألتها إن كانت تعرف شيئًا ما عن أسرتها، فلمعت عيناها مجيبة:

_آه! ألا تعرفين؟!

ازداد قلق نور، فتمهلت الجارة الشابة بإعطائها ما تملك من أخبار:

_منذ يومين تمامًا ومنزلكم فارغ، لا أرى سوى والدك يعود في آخر المساء وحيدًا.

اضطربت نور وراحت تحوقل وقد شحبت ملامحها، أكملت السيدة صعود الدرجات ثم التفتت لنور وكأنها تذكرت شيئًا:

_أذكر أنني سمعت بأن أمك وأختك في المستشفى.

_أي مستشفى؟

_لا أعرف تحديدًا، لكني أرجو أن تكونا بخير.

_حسنًا، شكرًا لك على أي حال.

تساءلت نور بعد ابتعاد السيدة: (هل هذه أخبار تستحق الشكر؟) إنها لم تفعل سوى أن رمت بكلماتها كعود ثقاب مشتعل فوق بانزين القلق المسكوب في دواخلها بإسراف!
تخاف أن يكون قد فات الأوان وحالة أختها ازدادت سوءًا، كم ستلوم نفسها لو أن أختها فقدت الرؤية للأبد بينما كان بإمكانها مساعدتها لو قبلت الزواج بوجدان، لقد أخبرها بأنه سيدفع تكاليف العملية وتكاليف الدراسة، كانت تسأل نفسها: (لماذا رفضته هكذا؟ هل أنا أنانية؟ مغرورة؟ أم أن عنادي السبب كما قال هو؟ ألهذه الدرجة نزهد فيمن يعرض نفسه علينا ويريد وصالنا؟)
لامت نفسها على تقصيرها اتجاه أهلها وعدم تواصلها معهم، نزلت تمشي في الشارع بدون وجهة محددة واستمرت في جلد ذاتها طوال الطريق ومع كل خاطر يتبادر إلى ذهنها.

*****

كانت سارة شاردة في طريقها إلى القرية، تتأمل المشاهد التي تمر أمامها بسرعة، وتتأمل كيف أن هذه الحياة تشبه الطريق تمر سريعًا إلا أنها لا تتوقف ولا تسير على منحنى واحد وثابت بل هي متغيرة ومتقلبة على الدوام، متشعبة ومليئة بالمسارات التي لا ندري إلى أين ستوصلنا إلا بعد أن نسلكها، قبل سفرها المدينة كانت ترى العالم من كوة

ضيقة، تحسب أن سكان المدينة أكثر سعادة منهم، وتشعر بالألم لكون أسرتها ناقصة لا والد فيها ولا إخوة، لكنها الآن تأكدت أن النقص شيء طبيعي ولا بد منه في حياة كل إنسان، لا يوجد كمال ولا حياة مثالية في هذه الدنيا، هي بحاجة لأب، سلمى بحاجة لطفل، مريمة بحاجة لوالدين، نور بحاجة للمال لسبب ما، وفلك لا تدري ما بها ربما ينقصها كل شيء!

البعض يتقبل ذلك النقص ويرضى به ويكمل حياته باطمئنان لأنه يؤمن بأن الله هو الذي قدر هذا الأمر لحكمة ما، وسيعينه على تقبله، هناك شعرة فاصلة بين الرضا والسخط تسمى الصبر، بعضنا يصبر لأنه الحل الوحيد لكنه في قلبه غير راضٍ وساخط على هذا القدر، والبعض الآخر يصبر لأجل الأجر، ولأجل أن ينال رضا الله لعل الله يرضيه بما هو خير له برغم ألمه ودموعه ويستمر بالدعاء لأن الدعاء الصادق يغلب الأقدار أحيانًا، هي الآن راضية، مطمئنة، تنظر لكمية النعم التي تملكها وغيرها محروم منها، تمتمت بالحمد ملء قلبها وهي تستنشق هواء الريف النقي الذي "يرد الروح" إليها برغم برودته.

*****

عند الغروب عادت نور للمنزل ثانية بعد أن قضت يومها نصفه في المشي لتخفف توترها ونصفه الآخر في المسجد الذي قرب منزلهم، كم قضت أيامًا في هذا المسجد قبل مرحلة الثانوية العامة التي كانت بمثابة عاصفة بالنسبة لها جعلتها تتوقف عن كل نشاطاتها الطبيعية، وقفت قرب باب المنزل مستندة للجدار بكل ثقلها الجسدي وضعفها المعنوي، بثقل أفكارها وأوهامها وقلقها، تشعر وكأنها ستسقط أرضًا في أي لحظة.

_نور!

وصل إلى مسامعها صوت والدها، هرعت إليه بلهفة:

_أنتم بخير؟

_نعم الحمد لله، أنت بخير؟ ما هذا الشحوب متى وصلتِ؟

امتنت له على طمأنته إياها ولهفته عليها، يعني أنه قد نسي غضبه منها، الأب هو الرجل الوحيد الذي يغفر أخطاء ابنته ويصفح عنها بدون أي يذكرها بقائمة أخطائها السابقة، بل يهوّن عليها ويحتويها رغم ما فعلته.

_اتصلت بك البارحة وأكثرت من الاتصال اليوم لكن الخط مغلق تمامًا، كدتُ أموت خوفًا.

_لقد تعطل هاتفي منذ أيام ولا أجد وقتًا لإصلاحه، لا تقلقي يا غاليتي هيا بنا لندخل.

فتح الباب فدلفت وراءه سألته عن أختها وهي ترمي حقيبة ظهرها أرضًا، تتمنى لو بإمكانها أن تلقي بكل ما يثقل كاهلها بهذه الطريقة.

_لقد تم إجراء العملية البارحة.

قالت وقد جمدتها الصدمة:

_كيف؟!

_اتصل بي وجدان منذ أسبوع اطمئن على أحوالنا هو وعمتكِ وسألني عن التكاليف ثم استأذنني ليدفع المبلغ بنفسه.

_وجدان؟

_نعم، طلب مني ألا أخبركِ لأن لديكِ مذكرات وانشغالات كثيرة وأن الأمر سيشغلك يا بنتي.

كانت تستمع رافعةً حاجبيها بتعجب، لم تفهم كيف استغل الأمر لصالحه برغم كونه دفع المبلغ لأهلها، إذن أراد الضغط عليها لينالها، مزيج من المشاعر المتضاربة المبعثرة كانت تعبث في دواخلها.

_هيا بدلي ملابسك واغسلي وجهك حتى أسخّن الطعام.

_لدينا طعام؟

_نعم، أختك لن تستطيع مغادرة المستشفى قبل أسبوع، أمك معها طوال الوقت لكنها تأتي في الصباح الباكر لتعد الطعام ثم تأخذ القليل منه لهما وتترك البقية لي هنا.

مضت للغرفة الثانية وهي تفكر كم عذبت نفسها بالتفكير وكأن الأمر كله يقع على عاتقها فحسب، كأنها هي المدبرة الأولى والوحيدة للأمور وسينهار كل شيء عند انهيارها هكذا كانت تشعر بينما الآن هي ضعيفة ومنهارة والأمور هنا على ما يرام والحياة مستمرة بشكل جيد، لقد حمّلت نفسها فوق طاقتها لأنها نسيت أن توكل أمورها لله، اتكلت على الأسباب ونسيت قدرة مسبب الأسباب سبحانه، لو أنها التجأت إليه واستبرئت من حولها وقوتها إلى حوله وقوته وهو القوي القدير لألهم قلبها الصبر وأمدها بالعون، الانكسار أمام الله يمنحك اليقين والسكينة فلا تنكسر أمام الحياة، والضعف بين يديه قوة، فمن اتكل على نفسه فقد أهلكها!

بعد أن تناولت الطعام نظفت الأطباق وعادت للغرفة كي تبدل ملابسها من أجل الذهاب مع والدها لزيارة أختها والاطمئنان عليها، اتصلت بوجدان لكنه لم يجب، فأجلت مكالمته لحين عودتها.

*****

" كيف حالك يا دفتر؟

هذا الصباح تلقت أمي دعوة لحضور حفلة ستقام في منزل عمتي، لطالما كرهت الحفلات لكنني لا أستطيع عدم تلبية الدعوة، فرفضها في عاداتنا يدل على الكره والحسد وعدم

إعطاء قيمة لمن دعانا وأراد منا أن نشاركه فرحته، تحدث أبي وأمي بشأن الحفلة أثناء احتساء قهوة الصباح بهدوء، ثم نظر إلي أبي قبل ذهابه قائلًا: (كوني جاهزة بعد ساعة سآتي لاصطحابك)

طالعتنا نظرات أمي باستفهام، لم أكن أفهم ما سبب ذلك المشوار كدت أسأل لكن والدي غادر بعد مقولته تلك ولن يعطنا مساحة للاستفهام، استطعت قراءة القلق في ملامح أمي ليس من موعدي الغريب مع أبي بل من موعد الحفلة كذلك، لأننا سنلتقي بعائلة "السيد" وسيسألون عن إجابتنا لطلبهم يدي للزواج، قد تتساءل الآن ما شعوري اتجاه الأمر يا دفتر؟ بصراحة لقد تسرب القلق إلي أيضًا، لكنني متحمسة لخطوة جديدة لعلها تضفي إلى حياتي بعض البهجة.

بعد ساعة انطلقت مع والدي بفستان وردي، واسع بأكمام واسعة وحجاب بلون سكري مزهّر، كنت مترقبة طوال الطريق لمعرفة وجهتنا حتى توقف بجانب حديقة البلد، مشينا معًا جنبًا لجنب بصمت، كدت أتكلم لكنني أحجمت عن ذلك بيننا حاجز لا أدري هل ورثته من أمي أم أن أبي من جعله فيما بيننا، كانت أشعة الشمس دافئة، والنسمات اللطيفة تداعب وجهينا، أردف والدي:

_لا أصدّق أنك كبرتي يا بنتي وها أنتِ تُطلبين للزواج، هل فكرتي في الأمر؟
رفعت نظري أتأمل أغصان الأشجار الشامخة التي تعانق السماء .
_ما رأيك أنت يا أبتي؟
_عائلة السيد محترمة وأكن لها الكثير من الحب، أنا ووالد الشاب أصدقاء طفولة ودراسة وعمل، لكن القرار لكِ يا بنتي.
صمت ثم أضاف:
_وجئت بك إلى هنا لأنني أردت أن تجلسا معًا وتتحاوران، هذا سيساعدك على اتخاذ القرار.
بعد قليل أقبل نحونا رجل طويل ذو شعر بني فاتح يميل للأشقر، وعيون ملونة لم أتبين من لونها جيدًا، ألقى التحية مبتسمًا ثم قال: (نجلس أم نتمشى؟)
حينها ودعنا أبي وقال بأنه سيعود بعد القليل وابتسم لي ابتسامة فهمت مقصدها أي انتبهي لنفسك وأجيدي التصرف، كنتُ مرتبكة كثيرًا، يدي متعرقتان وقلبي يدق بوتيرة متسارعة، سألني وهو يخطو للأمام وكأنه يحثني على المشي:
_كيف حالك؟

شردت قليلاً مستعيرة طريقة أمي في تحليل الأمور على نحو درامي وتخيلت أشياء سيئة قد تحدث أثناء مشينا معًا، أعرف أنه خطأ من والدي بأن يتركنا معًا، لكنني لن أكون جبانة ولن أفسح مجالًا للخوف ليسيطر على حياتي، أخرجني صوته من أفكاري وقد عاد بخطواته إلي إذ لم اتبعه.

_أنتِ بخير؟

_نعم.

مشينا متوازيان وبيننا مسافة قليلة، قطع الصمت قائلًا:

_أتحبين الأزهار؟

_أحبها في مكانها، لا أحب اقتطافها ومراقبة ذبولها بحجة أنني أحبها ثم أرميها.

_حينما كنتِ صغيرة كنت تقطفين الورود الجورية في منزلنا.

ابتسمت مجيبة:

_صحيح لكنني الآن تغيرت، عندي أصيص زهور في شرفتي فهو يكفيني.

_وأنا كذلك.

_نظرت إليه متساءلة:

_ماذا؟

أجاب:

_كنت أستعير الكثير من الكتب من منزل جدي أو مكتبة والدتي، اقرأها ثم أعيدها، صحيح أن الكتب لا تذبل كالأزهار لكنها تفقد عبيرها إن لم تكن لي، فبدأت أجمعها وأكوّن مكتبتي الخاصة.

_تحب القراءة؟

_أتنفسها، لا أستطيع العيش بدونها، وأنتِ؟

_لم أقرأ سوى كتب الجامعة ومقرارتها.

_فاتك الكثير.

قالها بابتسامة فرددتُ قائلة:

_أنا وحيدة، أشعر أن القراءة ستزيدني وحدة!

_بل ستؤنسك وتكون صديقة لياليك الموحشة.

_تمنيت كثيرًا أن يكون لي أخت أو صديقة وفية، ربما الكتب بإمكانها أن تسليني وتتحدث إلي بقصصها ومعلوماتها، لكنني بحاجة للبوح والحديث أيضًا، أريد أن يُنصت لي فلطالما أنصتُ لليل وقمره ونجماته، أنصت للأزهار والأشجار والأطيار والجمادات، فهمت صوت كل الأشياء من حولي وحللت لغتها، لكنني بحاجة لسماع صوتي أنا.

حينما أنهيت كلامي استغربت من نفسي ومن استطاعتي بإخباره عن كل هذه الأشياء ولم أعرفه سوى للتو، فاجأني بسؤاله:

_لهذا السبب تكتبين صحيح؟

لقد استطاع فهمي، ابتسمت لا شعوريًا، ارتجف قلبي مؤكدًا أنه سيرضى بمنح الإقامة لساكنٍ كهذا، سررت لكونه يتذكر أنني أكتب هذا يعني أنه يتذكر يوم أن أهداك إلي يا دفتر، تعجبت من السكينة التي شعرت بها بينما نتحدث وأنا التي ترتبك وتتوتر عند حديثها مع الآخرين، ربما هذا هو القبول الذي يتحدثون عنه، ذلك الشعور الذي يغشانا مع من تألفهم أرواحنا قبل معرفتنا لهم، لم أرد حينها بل شردت بأفكاري لكنه أدرك أن الابتسامة إجابة.

_يكتب الكاتب ليبوح، ويقرأ القارئ ليسمع، أعتقد بأنني سأكون سعيدًا بقراءة ما ستكتبين وبسماع ما ستبوحين به.

خجلت حينها وتوردت وجنتاي صمتُ فقال:

_حلية الفتاة خجلها، وزينتها هي عاطفتها الفائضة التي تجيد إدارتها بمهارة ومنحها لمن يستحقها.

ازداد خجلي، أردفت بعد برهة من الوقت:

_آسفة لصمتي الطويل، لكنه سجيتي وعادتي فحينما أصمت ذلك يعني أنني لم أجد إجابة.

_الصمتُ وحده إجابة، للصمت لغة أيضًا.
_لكن هناك من يخطأ في فهمها وفك رموزها.
ابتسم قائلًا:
_من لا يفهم كلماتك لن يفهم صمتك.
عاد أبي إلينا عند هذا الحد لنعود للمنزل، لا أذكر ما قاله لي في طريق العودة كنت شاردة أسترجع تفاصيل ذلك اللقاء الذي انقضى خفيفًا عكس ما توقعت.
سألني أبي عند وصولنا للبيت قبل نزولنا من السيارة:
_أعتقد أن بإمكاننا إعطائهم الموافقة صحيح؟
هل كانت ملامحي تشي بجوابي وراحتي إلى ذلك الحد؟ اومأت له برأسي، فدعى لي بدعوات دافئة ونزل، تبعته وكنت ممتنة له على هذه الفكرة كنت أود احتضانه حينها لكنه مضى للمنزل، صحيح أن أبي لا يعبّر عن مشاعره بشكل واضح ومباشر لكنني أستطيع فهم محبته في دعواته لي، ونظرته إلي، وتصرفاته معي، ومحاولاته في جعلي سعيدة مرتاحة.
سأخلد للنوم الآن فقد تعبت يا دفتر وغدًا سأخبرك بتفاصيل حفلة عمتي التي حدثت مساء."

أغلقت سارة الدفتر وابتسامة وضاءة تنير وجهها، هي أيضًا وحيدة لكنها لم تقرأ يومًا ولم تجرب الكتابة بهذه الطريقة،

إنها تؤنس وحدتها بالأعمال المنزلية وبحديثها مع أمها، فضلًا عن كونها لا تسهر حتى تفكر في أحزانها فتعدها وتحصيها، تدرك أن السهر يحمل في طياته الحزن والحنين والوحدة لذلك تتجنب السهر وتتعب نفسها بالعمل حتى تنام مبكرًا على الدوام، مرّ بخاطرها صديقاتها في منزل مهجة يسعدها كونها ستعود للعمل غدًا.

*****

كانت جالسة فوق السرير تجدّل شعرها حينما أضاء هاتفها باتصال ما، ألقت نظرة لاسم المتصل فإذ به وجدان.

_السلام عليكم.

_وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، شكرًا لك يا وجدان من كل قلبي.

_لا داعي للشكر، صوتك متعب ما بكِ؟

_لم يكن هذا اليوم سهلًا أبدًا، لكنني الآن مطمئنة وهذا يكفي، أعتذر إن تفوهت بما أزعجك صباحًا.

_عليكِ أن تؤجلي شكرك واعتذارك يا نور.

ارتخت أصابعها التي تشدّ على خصلات ظفيرتها.

_لماذا؟

_لا أريد أن أخسر رؤيتك وأنت متفاجئة، ستعلمين كل شيء حينما يحين وقته، أعتني بنفسك، ليلة طيبة.
قالها ثم أغلق الخط تاركًا إياها لتتلقفها رياح الحيرة وتعصف بها.

*****

نهضت فلك متثاقلة، عليها تجهيز الفطور قبل مجيء الفتيات، أخيرًا انتهت العطلة، يكاد الملل يقتلها، سلمى مريضة هي والطفلة، ولا تستطيع الثرثرة مع السيدة مهجة حتى سعيد تشاجرت معه منذ يومين ولم يأتي ليصالحها بعد، لا شيء لتفعله سوى العمل كانت بارعة جدًا في التنظيف، تجيد ترتيب الملابس، طيها، كيها، تطبيقها في الخزانات كما يجب.
تجيد مسح الغبار من أعلى الأماكن وأسفلها وتنظيف زواياها ومراياها.
كانت بارعة في كل ما يتعلق بالترتيب والتنسيق ومنح الأشياء رونق نظيف لامع.
كانت بارعة في الثرثرة وقول الكثير من الأشياء التي تحدث حولها، لكنها لا تستطيع البوح بشيء بسيط يحدث في داخلها، وتعجز تمامًا عن لملمة مشاعرها، وترتيب شعث نفسها، كانت تتمنى لو بإمكانها أن تنظف قلبها وترتب شعث نفسها وبعثرتها لعلها تشعر ببعض الصفاء

ويزول هذا التشتت الذي يبدد سعة نفسها ويملأ صدرها ضيقًا واختناقًا على الدوام!

وضعت شالها الصوفي فوق كتفيها وما إن خرجت حتى رأت سلمى تذرع الطريق من الممر الطويل للمطبخ ذهابًا وإيابًا ويديها على معدتها، اقتربت منها:

_صباح الخير، ما بكِ يا سلمى؟

_ربما أصبت بالبرد معدتي تؤلمني وكأنها تتقطع.

_تبدين شاحبة، سأوقد المدفأة بسرعة.

_لم أنم البارحة، مريم تبكي طوال الليل وحينما نهضت لصلاة الفجر بدأت أشعر بالغثيان لم أرتح حتى الآن.

_لا عليك بعض الدفء مع كأس مغلي النعناع الأخضر وستكونين على ما يرام.

طرقات على باب جعلت فلك تترك ما بيديها من الأخشاب وتنهض لفتحه.

_أوه سارة! لم أتوقع مجيئك مبكرًا هكذا منذ السابعة صباحًا.

_الحياة الريفية نشيطة، اشتقت إليكم.

دخلت بسرعة إذ كانت تمطر بغزارة في الخارج، وضعت حقيبتها ثم اقتربت من فلك محتضنة إياها، وحينما دلفت الغرفة وجدت سلمى متكورة فوق الأريكة سألتها بلهفة عن

أحوالها ثم حينما اطمأنت نهضت تبدل ملابسها وتبدأ بتحضير الفطور.

*****

_صباح الخير.

_صباحكِ نور وسكر يا نور، أين أنتِ الآن؟

_لا أزال في الطريق، أحتاج ساعتين حتى أصل.

_سأستقبلك بالمحطة حتى اصطحبك لمنزلنا ونفطر سويًا.

_شكرًا وجدان لدي محاضرة علي حضورها فور وصولي.

_إذن تأتين عندنا للغداء؟

صمتت وبدأت تهز رجلها بحركة لا إرادية كما تفعل كلما توترت وأخذت تراقب حبات المطر أثناء ارتطامها بشباك القطار.

_ستعودين للعمل؟

_نعم كما اتفقنا أريد أن أتابع دراستي وعملي.

عم الصمت وجدت نفسها مجبرة على إجابة سؤاله السابق لهذا السؤال:

_سينتهي دوامي في الثالثة بعد الظهر.

_حسنًا، سأكون جاهزًا لاصطحابك في الوقت المحدد.

كادت تجيبه بأنها تفضل المجيئ لوحدها بدون رفقته لكنها صمتت، هي ليست مستعدة بعد لاستقبال شريك في حياتها،

إنها معتادة على فعل كل شيء بنفسها ولوحدها لا تريد أن يتواجد من يتدخل في شؤونها ويجبرها على إخباره بكل التفاصيل التي ستفعلها، غير أن وأحلامها الخاصة بشريك المستقبل لا تتوافق مع ما هو عليه وجدان.

_حماكِ الله حتى تصلين سالمة.

_وداعًا.

أغلقت الخط وأطلقت زفيرًا طويلًا وهي تعود لتأمل الأجواء الممطرة.

*****

كانت سارة تقطع أوراق السبانخ لتحضير طعام الغداء وفلك بجانبها تعد السلطة، كانتا تثرثران حينما سمعا صوت الباب، هرعت فلك للباب وهي تأمل أن يكون الطارق هو ذلك الغائب التي لم يأتي ليطيب خاطرها حتى الآن.

_نور؟ هذا عجيب.

دلفت نور مجيبة بمزاح:

_هل ظننتِ أنني لن أعود؟ لا تحلمي كثيرًا.

_حمدًا لله على سلامتك.

قالت فلك وأضافت سارة:

_مرحبًا بعودتك اشتقنا إليكِ.

_وأنا اشتقت لجمعيكم.

قالتها وهي متجهة لغرفتها وضعت حقيبتها بالداخل ثم عادت للمطبخ مردفة:

_سأعود بعد قليل لن أتأخر، وداعًا يا بنات.

رفعت فلك عينيها إلى نور، حدجتها بنظرة جامدة:

_إلى أين؟ هذا ليس فندقًا.

ثم توقفت عن الكلام حينما حطت نظراتها فوق ذلك الشيء الذهبي اللامع الذي يحيط ببنصر نور الأيسر، سألتها:

_خاتمك ذهب أم حلي مقلد؟

نظرت نور ببرود وتصنعت الابتسامة والفرحة التي من المفترض أن تكون عليها الآن أية فتاة أخرى:

_إنه محبس.

_خُطبتِ؟ مبارك وألف مبارك يا نور.

قاطعت فلك سارة بقولها:

_يا بلهاء إنه في يدها اليسرى، لقد تزوجت!

ردت نور باقتضاب قبل خروجها:

_بارك الله فيكما، لقد تمت الخطوبة وعقد القران في نفس اليوم.

ذهبت نور فأردفت فلك:

_أرأيتِ لقد أخبرتك بأنها غريبة الأطوار وبأن وراءها سرًا ما لا نعرفه، لا يُريحني هذا الزواج السريع يا سارة، يجب أن نعرف كيف حدث.

_ما شأننا يا فلك؟ إن الأنفس كالبيوت تنطوي على الكثير مما يحدث داخلها، ولكل بيت أسراره الخاصة التي علينا ألا نراقبها ونحاول كشفها ما لم يشكفها صاحب البيت لنا بنفسه.

انزعجت فلك من كلام سارة وازداد ضيقها، بينما شعرت سارة بوقع كلماتها ثقيلًا عليها هي قبل فلك، تسلسل لمخيلتها ذلك الدفتر الأصفر الصغير، أنّبت نفسها لأنها تنصح الناس وهي الأولى بتطبيق هذه النصيحة، كثيرًا ما ننصح الآخرين لكننا نقصد نصح أنفسنا بالمرتبة الأولى، وأحيانًا نقول النصيحة في موقف تمنينا أن نتلقى فيه نصيحة تنفعنا فنقولها ليستفيد غيرنا ولا يعيد نفس أخطائنا التي وقعنا فيها من قبل..

*****

مشت نور ببطء تحت المطر حتى وصلت لسيارة وجدان التي تنتظرها، كادت تركب في المقعد الخلفي ثم استدركت وفتحت الباب الأمامي.

_ابتل معطفكِ ألا تشعرين بالبرد؟

ماذا قال لتوه؟ برد؟ كيف تشرح له أن هناك جمرة متقدة في أيسر صدرها؟ وأن مشاعرها التي تتآكلها الآن كما تأكل النار الخشب طغت فوق كل المشاعر فما عادت تشعر بالأشياء من حولها.

_لا أشعر بشيء
تجاهل كآبتها وبدأ القيادة سألها محاولًا تبديد انزعاجها:
_كيف تشعرين حينما تمطر؟
_أشعر بأنني أريد أن أشاطر السماء في بكائها وأبكي.
_فتاة حمقاء وعنيدة ولا تملكين ذرة شعور بالآخرين، كلما حاولت رسم ابتسامتك فشلت في ذلك.
_هذا لأنني لا أريد منك شيئًا، لا أريدك أن ترسم أي شيء لأجلي.
_لماذا تكرهينني؟
_أنا لا أكرهك يا وجدان ولكن..
قاطعها بنبرة عالية وصوت غضوب:
_لكن ماذا؟ كنتُ أحبكِ منذ كنا أطفالًا، وحينما كبرنا ورأيتك لا تزالين تحافظين على صداقتنا كبرت مشاعر الطفولة وظننتك تبادلينني الشعور، لكنك بلا أي شعور على ما يبدو!
حاولت مساعدتك مرارًا وتكرارًا في شتى الأمور، أفرح لنجاحاتك وأشجعك عليها ويؤلمني فشلك وأحاول انتشالك منه، ومعاملتك معي لا تدل إلا على الكره ثم تقولين لا أكرهك يا وجدان!
_أنت لم تنتشلني من مشكلاتي، بل استغليتها لصالحك من أجل الحصول علي وكأنني قطعة أثاث لا رأي لي.

_هذا لأنك لم تقبليني ولم تعطني إجابة، حدثتك في الأمر أكثر من مرة لكنك تهربين وترفضين.
_ألا تستحي من زواجك بامرأة رفضتك عدة مرات؟ ما دمت لم تنجح في إقناعي وتعرف جوابي لماذا طلبتني من والدي بعد دفعك لمبلغ العملية، لقد أمسكته من اليد التي تؤلمه لتجبره على الموافقة خجلًا من معروفك الذي صنعته معه؟ كنت أظنك فعلتها ابتغاء وجه الله.
_لا يعرف نوايانا سوى رب العباد فألزمي الصمت.
هدر بجملته بصوت عالٍ ثم نزل من السيارة وأغلق الباب باندفاع.
تنهدت بعمق كادت تبكي لكنها تماسكت وأخذت تقضم أظافرها وتهز رجلها بعصبية نادمة على انفعالها وعلى الكلام الذي تفوهت به لتوها، تدرك أنها جلبت المشاكل لنفسها بنفسها، كانت تفسح الطريق أمامه ليحادثها ويمازحها بدون ضوابط ولم تدرك خطأها إلا متأخرًا بعد أن فهم وجدان مقصدها بشكل خاطئ، وفهمت هي مقصد إنسان آخر أيضًا بشكل خاطئ بنفس الطريقة، فتألمت حينها وتعلمت أن تتوب وتتغير بعدها، من قال أن ثمن الأخطاء رخيص؟
صحيح أننا نتعلم، نفهم، نتوب، لكننا أحيانًا ندفع جزءًا من قلوبنا وأرواحنا ثمنًا لبعض الأخطاء!

عاد بعد قليل وقد سكت غضبه وقل انزعاجه، وضع بعض الأكياس لجانبه وشرع في القيادة، كسر حاجز الصمت بقوله:

_ما كنت أريد إجبارك على شيء، لكن أسلوبك بالحديث جرحني إضافة لكونك تحبين السيطرة على كل الأمور والتحكم بها كما تشائين، تحبين أن يسير كل شيء وفقًا لإرادتك دون مراعاة لمشاعر الآخرين أو للطريقة التي تتصرفين بها.

ردت بصوت هادئ منكسر:

_لم أتوقع أنك تراني بهذا السوء، وأنني بشعة في عينيك إلى هذه الدرجة يا وجدان.

_أوتحسبين أنني اكتشفت كوني ملاكًا في عينيكِ؟ جعلتني أشعر بأنني إنسانًا بلا قيمة ولا أخلاق.

صمت قليلاً ثم أضاف بنبرة شجية:

_أنا آسف.

هل يرمم الاعتذار الخواطر المكسورة، هل له أن يلملم شظايا المشاعر المتناثرة؟

أوقف السيارة قائلًا وهو يناولها الأكياس التي أتى بها قبل قليل:

_تفضلي خذي هذه معك

فهمت منه أنها ستنزل وحدها.

_وأنت؟
نظر نحوها لوهلة ثم أردف بهدوء:
_حينما تريدين العودة لمنزل السيدة أرسلي لي رسالة لأعود لإيصالك.
حملت الأغراض ونزلت، راقبت سيارته وهي تبتعد ثم دلفت للمبنى.

*****

كانت سلمى جالسة بجوار المدفأة تراقب ألسنة اللهب بعينين شاردتين متعبتين، في التأمل والشرود شعور مريح لا يمكن تفسيره، ربما لأننا ننسى أنفسنا ومشاكلنا ونغرق في تفاصيل الأشياء، وربما لأن التأمل عبادة، فنتأمل الأشياء صغيرها وكبيرها ونرى خلق الله العظيم فنرتاح لأننا نستشعر وجوده وعظمته، وأحياناً نرتاح لأننا نفكر في أشياء لطيفة تسرّ قلولنا فنسرح في خيالنا بعيداً، بعيداً جدًا بينما نحن نتأمل شيئًا قريبًا، دلفت سارة ومعها مشط شعر ومنشفة، نظرت لسلمى سائلة إياها:
_كيف أنتِ؟ أفضل؟
_نعم قليلاً، أنا أحتمل ولكن يؤلمني مرض ميمي ليتني أحمل عنها مرضها وتُشفى هي ولا تعاني من أي شيء.

_لو حملنا عن الصغار كل متاعبهم سنؤذيهم بدل نفعهم يا سلمى، ستكتسب ميمي مناعة وقوة لتقاوم بها المرض مستقبلًا لا تقلقي.

لا تدري سارة أن مشاعر الأم وحنانها يطغى على عقلانيتها، جلست سارة لجوار سلمى هتفت بحب:

_ما رأيك أن أسرّح لكِ شعرك قبل شعري؟

ضحكت الأخرى واكتسى وجهها بحمرة الخجل:

_كنت حينما أمرض أو أصل إلى نهاية اليوم خائرة القوى أتدلل على زوجي وأجعله يمشط شعري ويجدله بيديه.

_إذن كفي عن كونكِ كبيرة ومسؤولة وتعالي إلي هيا لأسرّح شعركِ الجميل.

_يسرني جدًا، إن لكِ من اسمك نصيب يا سارة.

شعرت سارة بالسرور لما سمعت، دخلت فلك مسرعة تصيح وهي تفتش هنا وهناك:

_هل رأت إحداكما محفظتي؟

_أين ستذهبين يا فلك سينضج الطعام بعد قليل.

سألت سارة فأجابتها فلك بنزق:

_لن أتأخر، ستأخذ الخياطة مقاسي لقد جلبت لي القماش.

_للآن لم يجهز؟ كنت تستطيعين الشراء من السوق يا فلك.

_أفضّل التفصيل لأكون مميزة ويكون مناسبٌ جدًا وكما أحب، إضافة لكونه أقل تكلفة، لكن محفظتي ضائعة تمامًا يا إلهي، يا إلهي.

قالت سلمى:

_كفى بعثرة للأشياء، ما دمت ذاهبة للقياس فلماذا المحفظة؟

_علي دفع سعر القماش الآن ورؤيته ثم أكمل لها المبلغ عند انتهاءها من حياكته.

خرجت قليلًا ثم عادت بعثرت الأشياء، فتحت الحزن والأدراج ولم تجدها، غضبت وتفوهت بالحماقات ثم ضربت الأرض بقدميها ورحلت.

*****

كان طريق العودة هادئ ومفعم بالصمت، لم يتفوه كلاهما بأي كلمة، راحت نور تتذكر طريقة ترحيب عمتها بها، تحضيرها لطعامها المفضل "مقلوبة" وإخبارها بأنها طعام وجدان المفضل أيضًا ولذلك طهتها لهما، اخبرتها أنها ارتاحت وسعدت لأن اختيار ابنها وقع عليها لكونها فتاة واعية ورائعة ولن يجدوا مثلها، كانت الأكياس التي ناولها إياها كانت تحتوي حلويات وفواكه، كانت الأجواء والتحضيرات تشي بمدى سعادته، حزنت لأنها تشاجرت معه وافسدت عليه احتفاله الصغير بها وحرمته من عيش

لحظة كان يتمناها، كان الطعام شهيًا ولذيذًا لكن قابليتها للأكل معدومة، تحتاج فيتامينات وفاتح شهية للطعام، للكلام، لعلاقاتها مع الآخرين، كانت تحتاج دواءً يُعيد قلبها مُحبًا لأنه محبطٌ لدرجة تجعله يكف عن حب أي شيء، لا تريد الشعور بأنها إنسانة سيئة وأنانية هذا يدفعها لكره نفسها وللانطفاء، توقفت السيارة أمام الباب الحديدي الخارجي لمنزل السيدة مهجة، شرعت بالنزول فاستوقفها قائلًا:

_خذي هذه معك.

استدارت فإذا به يناولها مظلة، تابع:

_لاحظت أنك لا تملكين واحدة، اهتمي بنفسك.

ترددت قبل أخذها ثم شكرته وألقت تحية الوداع، فردَّ قائلًا:

_لا شكر على واجب، نور...

ألتفتت ثانية نحوه فأكمل:

_من لم يحبنا بإرادته سيحبنا رغمًا عنه يا نور.

حدجته بنظرة عتاب مطوّلة ثم التفتت مكملة طريقها، اقتربت نحوها فلك التي كانت عائدة لتوها، أردفت بلهجة استفزازية:

_سأخبر السيدة بكل شيء، خالفتي القوانين وعدتِ مع سائق غريب إضافة لكونك تأخرتِ في العودة.

_لا شأن لكِ، ابتعدي عن طريقي

شعرت فلك بالغيظ من برود نور كادت تتكلم لكن صوتًا ما ناداها ألتفتت اتجاهه فإذا به سعيد.

_كنتُ أبحث عنك يا فلك.

_ألم أقل لك ألا تكلمني ولا تظهر في طريقي إلى الأبد!

قالت ذلك وهي تدرك في أعماق نفسها أنها كاذبة وبأنها تنتظره منذ مدة وأنه تأخر كثيرًا حتى جاء ليراضيها بعد شجارهما الأخير.

كانت فلك تقف أمام نور تمنعها من العبور ولكن حينما رأت سعيد أفسحت لها الطريق تاركة إياها ومقتربة نحو سعيد

_لقد نسيتِ محفظتك معي في ذلك اليوم.

_حقًا! بحثت عنها كثيرًا لماذا لم تسلمها للسيدة فور إيجادك لها.

_وددت رؤيتك، لقد اشتقت إليك.

استدارت نور وحملقت فيهما بدهشة وسرى في أعماقها الغضب تتساءل في داخلها عن ذلك الاشتياق العجيب الذي يبوح به لفتاة غريبة بلا مروءة ولا حياء، سببت نظراتها الارتباك لفلك.

_أعطني المحفظة يا سعيد، واستأذنك نحن على عجلة من أمرنا.

تحدثت بصيغة الجمع ليفهم أن الوقت ليس مناسبًا للحديث الآن أمام نور.

_حسنًا إنها في السيارة تعالي معي، وهناك مفاجأة لكِ أيضًا.

أشارت له بالصمت لكنه لم يتنبه لها وأمسك بيدها ليمضيا معًا.

صاحت نور بانفعال:

_دع يديها، ألا تستحي؟ فتاة لا تحل لك كيف تحدثها بهذه الوقاحة وتقترب منها.

_بيننا علاقة حب، ما شأنك أنتِ؟

تظاهرت نور بالبلاهة مردفة بع

_نعم؟ أعد ما قلته لتوك؟ هل تعرف مهجة بهذا العبث؟ ما تفعلانه لا يجوز شرعًا وممنوع في قوانين مهجة سيطرد كلاكما.

ضربت فلك جبهتها بكفها بحركة لا إرادية لقد وقع ما كنت تخشاه، هتفت:

_لقد تحدثت بكل شيء أمامها يا سعيد، احتفظ لنا ببعض الخصوصية ستحدث كارثة لو عرفت مهجة بذلك.

رد بإحباط:

_هكذا أنت دائما تلومينني مهما فعلت.

التفتت فلك لنور:

_نور اذهبي للمنزل سأحضر محفظتي واتفاهم معه ثم أعود.
ردت نور بسخرية:
_تحسبينني طفلة؟ لا والله لن أترككما بمفردكما، أحضر لها محفظتها من سيارتك ودعنا نذهب بسرعة.

_كم تحتاجين وسأدفع لكِ مقابل أن تذهبي الآن وتحتفظي بما سمعت ورأيت دون إخبار مهجة؟
قالها سعيد فردت نور بعصبية:
_أتشتريني؟
_نور، سعيد كفى!
هتفت بها فلك ثم مضت مسرعة للمنزل تبعتها نور والدماء تفور في عروقها، بينما عاد سعيد لسيارته والضيق يملأ قلبه.

دلفت الاثنتان للمطبخ من الباب الخلفي، هتفت فلك وملامح الغضب تملء محياها:
_نور ما شأنك؟ ما هذا الذي فعلته؟
أجابت نور وهي تضغط على أسنانها بكل كلمة:
_فعلت ما يجب فعله.
صاحت فلك:

_ومن تظنين نفسكِ؟
_ما تفعلانه حرام يا فلك، لا يجوز ولا يُرضي الله.
_أنا مسؤولة عن نفسي وعن تصرفاتي، لن تحاسبي بدلًا عني فاستريحي ودعينا نستريح.
_لن أحاسب عنكِ ولا بدلًا منك، لكنني سأحاسب عن رؤيتي الخطأ والصمت عنه، واجبي نصحك وتوجيهك بأي طريقة، يقول رسولنا الكريم: "من رأى منكم منكراً فليغييره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان".
ركلت فلك قوارير المياه الموضوعة في ركن المطبخ قائلة بلهجة مستنكرة تحمل في طياتها غضب وألم دفين:
_أنا فتاة لا تفقه شيئًا في الدين، الحلال والحرام في ميزاني سواء، فكفي عن دور الملاك أو دعي الشياطين وشأنها ولتفعل ما تشاء.
دخلت سارة مسرعة سألت وهي تغلق الباب من ورائها:
_ما بكما؟ أصواتكما مرتفعة ماذا هناك؟
_كل ما هناك يا سارة أن السيدة الملائكية نور رأتني مع سعيد وانفجرت.
قاطعتها نور:
_لستُ ملائكة، وكذلك المخطأ ليش بشيطان نحن بشر يا فلك والخطأ شيء جبلنا عليه، لذلك علينا اتباع أوامر الله

وإصلاح أنفسنا والأخذ بأيدي من حولنا نحو الصواب والنور وما يرضى الله.

اكتسى وجه فلك بالاحمرار وأردفت وهي تضرب الطاولة بقبضتيها ضربات عصبية متتالية:

_اصمتِ نور اصمتِ.

_إن كنت خائفة من علم مهجة بالأمر لأنها قد تعاقبك فإن الله أحق بأن تخشيه لأنه يعلم كل شيء ولا تخفى عليه دقائق الأمور، ولأن عقابه أشد وأقسى!

اقتربت سارة من نور بهدوء:

_نور كفى، ما هكذا تتم النصيحة.

اقتربت فلك من نور رافعة سبابتها في وجهها مهددة إياها والشرر يتطاير من عينيها:

_إياك وإخبار مهجة! وإلا سترين مالا يعجبك أبدًا يا نور.

دلفت السيدة مهجة فجأة للمطبخ، فصمت الجميع وكأن العاصفة التي كانت تدور في الأرجاء قد انتهت، اتجهت سارة للمجلى وراحت تغسل الأطباق، أمسكت نور بشعر فلك فسرت رعشة في كامل جسدها، ليست مطمئنة لما ستفعله نور بشعرها وتخاف مما قد تتفوه به، تخشى كون السيدة قد سمعت ما جرى قبل دخولها، راحت نور تجدّل شعر فلك ليبدو الأمر عاديًا، وقالت بنبرة جاهدت لجعلها متزنة وهادئة:

_أهلًا سيدتي.
أعادت السيدة نظارتها للوراء وسألت باستياء:
_مالذي كان يجري هنا؟
ردت سارة:
_لا شيء شجار بسيط يا سيدتي.
أيدتها نور، بينما لم تبدو أمارات التصديق على وجه مهجة، دلفت مريمة للمطبخ قائلت بصوت خافت:
_ثمعتكم تتحدثون عن ثعيد.
سقط أحد الأطباق من يد سارة، واستقرت غمامة القلق فوق رأسي فلك ونور، أكملت مريم:
_هل أحضر الحليب؟
تنحنحت نور قائلة وهي تخطو للأمام نحو مهجة:
_لا يا حلوتي لم يأتي سعيد، وقلنا سعيد الحظ نعني بذلك شخصًا آخر.
ابتسمت ثم تابعت:
_سيدتي أريد إعلامك بأمر ربما عليكِ معرفته.
صمتت قليلًا قبل أن تتابع مما زاد من تأهب فلك وتوترها، أشارت نور لخاتمها:
_لقد تمت خطبتي مع عقد القران في العطلة.
ابتسمت السيدة:
_مباركٌ لك يا نور، لكنني أريد أن أعرف سبب شجاركما.

_لقد أوصلني خاطبي للمنزل مرتين، فلك لا تعرف بأنه قد تمت خطبتي لذلك تشارجنا لأنني خالفت القوانين ولم أذهب مع سعيد.

_حسنًا، مسموح لها الذهاب معه بعد عقد القران لا تتدخلي فيها يا فلك، أريد أن أرى بينكما مودة ومحبة، وأرجو التزامكم بالهدوء لستن أطفالًا كونا ناضجتين.

ثم التفتت لنور:

_ انتظرك في غرفة المكتبة عند التاسعة.

_حاضر سآتي.

*****

أسدل الليل ستارته السوداء التي غطت كل شيء بدجى لونها، تزينت السماء ببعض النجوم المرصعة، الموزعة بمنتهى الدقة هنا وهناك، تتساءل نور عن التغيير العجيب الذي حدث للسماء فقد كانت الغيوم تملء حناياها قبل قليل وتعتصر لتعطي فيضًا من الماء، كيف انقلبت هكذا بطرفة عين؟ "سبحانه إنه على كل شيء قدير!" رددتها وهي مأخوذة تمامًا بتأمل السماء وكأنها تخرج مكنونات قلبها بعينيها وتنثرها في أرجاء الفضاء الرحب فتخفف عن

نفسها الحمل الذي يثقلها، تدحرجت بضع دمعات دافئة فوق وجنتيها الباردتين، تذكرت كلامها مع فلك إنه نفس الكلام الذي نسيته وغفلت عنه هي أيضًا في مرحلة ما من مراحل حياتها، تذكرت ذنوبها وأخطائها والحزن الذي يسكنها وتتمنى التحرر منه، تذكرت الشخصية التي كانت تطمح لتكونها لكنها فشلت، تشعر وكأنها انطفأت، لم تعد تستمد النور الحقيقي من الله ومن إيمانها الذي كان قويًا، ابتعدت بسبب الظروف ثم نسيت العودة وانجرفت مع التيار، راحت تدعو بانكسار:

"يارب.. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات أن تنير لي بصري وبصيرتي والطريق، يا نور السماوات والأرض أي ظلام سأعيش به إن لم يسطع نورك في حنايا قلبي ويمحو ما فيه مافيه من عتمات؟ ويغفر ما مضى من الذلات والعثرات

إلهي بمن أستعين إن لم تعني، وبمن أستغيث إن لم تغثني، وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟!

من سواك أرجو؟ ومن غيرك أدعو؟ مالي أحد سواك."

تلألأت دمعات الندم والرجاء في عينيها وكأنها نجومٌ مضيئة، ثم بكت ما شاء الله لها أن تبكي حتى ارتاح قلبها وعاهدت الله على التوبة والبدء بصفحة جديدة يرضيه ما فيها، شعرت بالبرد أغلقت النافذة، أزاحت هاتفها عن سلك

الشاحن وصحبته معها داخل الفراش، تذكرت مقولة معلمتها: "حينما يوفقك الله للحظة ندم وتوبة سارع لقطع صلتك بكل ما لا يرضي الله، ابتعد عن كل ما قد يعيدك لما كنت عليه قبل تلك اللحظة".

فتحت مجلد الموسيقى حددت الأربع أغانٍ التي كلما حذفتها تعيد تحميلها لأنها تحبها وتلامس قلبها، ربما ذات يوم ستحذفها للأبد المهم أنها تحاول الابتعاد عنها وتقلع مرارًا وتكرارًا، ثم دخلت للفيسبوك ومنه إلى قائمة أصدقائها قامت بإلغاء الصداقة مع شخص ما، أدمعت عيناها دلفت لحسابه للمرة الأخيرة رغم كونها لا تعرفه معرفة واقعية لكنها تحمل اتجاهه الكثير من المشاعر، لم تبح له يومًا بمكنون قلبها رغم تعلقها به، نسجت الكثير من الأحلام حوله بينها وبين نفسها، لم تتأكد يومًا من مشاعره اتجاهها كان هذا يؤلمها ولهذا حرّم الله مثل هذه الصداقات التي تكسر قلوب أصحابها، مسحت دمعاتها وهي تذكر نفسها بأن المحب الصادق شُجاع ومُحاول، ولا يتحدث عن مشاعره بطريقة رمادية، ضبابية، تحتمل الكثير من الاحتمالات مرة تُشعرها بأنها كنزه وجزء من قلبه ومرة تشعرها بانعدام قيمتها وبأنها لا شيء ولا يعنيه وجودها، إن الحب الذي يعيش بين وهمٍ وعتمة هو حبٌّ مريض لا ينمو ولا يكتمل، الحب الحقيقي يعيش في النور، يسطع،

يظهر أمام الجميع بلا خوف وتردد، يمنح القلب الدفء والأمان وينتشله من برد الوحدة والضياع.
آن الأوان لأن تبتعد للأبد وتضع حدًا لهذه المشاعر لا سيما أنها الآن على ذمة رجل آخر، سترضي الله ليرضى عنها ويُرضي قلبها بما اختاره لها، حظرته ثم خرجت من التطبيق وحاولت النوم.

*****

"مرحبًا يا دفتر.
هل أنت متحمس لسماع ما حدث البارحة؟ حينما عدت للمنزل كانت أمي مشغولة بتجهيز نفسها فدلفت لغرفتي ودقات قلبي تتراقص ببهجة، عزمت على أن أكون أجمل واحدة في ذلك الحفل، لست خائفة لأن أمه ستكون موجودة بل مطمئنة وسعيدة، عجيبة هي المشاعر كيف تتقلب، وكيف بإمكان حديث خفيف مع إنسان يفهمك أن يمنحك الراحة لهذه الدرجة، فتحت خزانتي وبحثت عن فستان مميز بين كومة الفساتين المعلقة، لكنني أفضّل تلك الفساتين التي أشرفت على تصميمها وحياكتها أشعر وكأنها صُنعت لأجلي أنا وحدي ولا تليق بسواي فأظهر فيها بكامل تألقي وتأنقي، وليست كفساتين السوق التي صنعت لأجل كل فتاة تتناسب مع مقاسها وذوقها، اخترت واحدًا ذو تفاصيل رقيقة، ألوانه متداخلة بين الأصفر والأبيض، معه حزام من

حلقات ذهبية ناعمة، لم أخلع العقد الذهبي الخاص باسمي بل أظهرته فوق الفستان أحبه لدرجة تجعلني لا أخلعه أبدًا، طليت أظافري، وارتديت حذاء بكعب عالٍ، زينت وجهي بالقليل من المكياج ثم وضعت الحجاب وجلست أنتظر أن ينادونني، سيخبر أبي أمي بموافقتنا لا أريد التواجد أثناء حديثهما، حينما خرجت رمقتني والداتي بنظرة نارية فهمت مغزاها لكنني تظاهرت بعدم الفهم والانتباه، وددت لو أخبرها وأبوح لها بتفاصيل ذلك اللقاء لعلها تفرح بي وتفرح لي وتسرني بسرورها لأجلي، لكنني أعرف موقفها جيدًا لذلك آثرت الصمت، سارت الحفلة بشكل اعتيادي كبقية الحفلات، كنت مترقبة لما سيحدث لذلك مرت عليّ الساعات بتثاقل، تأخرت السيدة بمجيئها وبعد وصولها وحديثها مع والدتي نادتني وابتسمت عند وصولي لقربها، هتفت بحب: (ما شاء الله عليكِ، وكأنك فراشة!)
ثم ناولتني مغلفًا أنيقًا، اكتشفت عند عودتي أنه كتاب من مكتبته وبصحبته بعض الورود المجففة."

عند هذا الحد غفت سارة وهي تقرأ قرب المدفأة مستندة برأسها على الأريكة، استيقظت بعد قليل والنوم عالقٌ بجفنيها الثقيلين فلا تقوى على فتحهما، رأت قبالتها رجلًا طويل القامة بعينين واسعتين عسليتين، يلبس قبعة رمادية

ومعطف بذات اللون، لم تستوعب ما رأته رفعت رأسها إليه فإذا به يرمقها بنظرة حزينة، قال بصوتٍ خافتٍ شجي:
_لا زلت أراكِ، وأتخيلك في كل مكان!
كادت تنهض، أرادت أن تتحدث لكنها غطت في النوم مجددًا، استيقظت بعد قليل فلم تجد أثرًا لأحد، مالذي حدث وكيف استطاع الدخول إلى هنا لا تدري، لا بد أنها تحلم إذ لا تفسير آخر منطقي لما حدث سوى هذا، أغلقت الدفتر وعادت لغرفتها خبأته ثم خلدت للنوم.
*****

كانت تركض بكل قوتها، تتعثر ثم تنهض تمسح دمعاتها، تبتلع شهقاتها تتلفت حولها ثم تعاود الركض بسرعة أكبر، دخلت حديقة عامة تعج بالناس والفوضى انخرطت لينهم ولكن شيئًا ما فيها كان ملفتًا للنظر، طالتها بعض النظرات الفضولية، مالذي سيأتي بفتاة إلى الحديقة بهذا الشكل مساءً؟ فستان أزرق بخامة غالية، وزركشات شيفون أسفله وفي نهاية أكمامه بلون أبيض، كان طويلًا يبلغ كاحل القدم، حقيبة يد سوداء صغيرة، وحذاء منزلي وردي اللون، وشعر طويل مبعثر إثر الركض، هرولت إلى دورة المياه دفعت الباب بسرعة ثم أغلقته خلفها، غسلت وجهها وعيناها

المليئة بالدموع، ثم غسلت يديها من الخدوش والغبار الذي لحق بهما فآلمتها، أخرجت هاتفها وإذ برسالة تعتلي الشاشة، مسحت دمعتها بطرف إصبعها ثم أخرجت شريحة الهاتف كسرتها نصفين، رمتها في سلة المهملات، خرجت بقلب مرتجف وبخطوات تجاهد لجعلها متزنة، ما إن رفعت ناظريها حتى التقت عيناها بعينين تعرفهما جيدًا، ركضت فركضت الأخرى وراءها وللأسف كانت سريعة فأمسكت بمعصمها بقوة وأخذت تجرها معها، صرخت بصوت بُح لكثرة البكاء:

_دعيني، أرجوكِ دعيني سأدفع لكِ كل ما معي، سأعطيك ضعف المبلغ الذي سيدفع إليك مقابل إحضاري، كرامة لله دعيني وشأني

أجابت بحزم واقتضاب وهي لا تزال تسحبها وراءها:

_إن لم أحضركِ أنا إليها، سيحضرك رجال أدهم إليه هو، هيا معي هذه أوامر لمصلحتك!

_لا فرق بينكما، سيطالني الأذى حيثما ذهبت، لقد تعبت، ولله تعبت، دعيني أرجوكِ.

كانت تبكي وتتوسل الله في داخلها لينقذها رغم تقصيرها وعدم التزامها.

أقبل نحوهما رجل متوسط القامة بشعر بني أجعد ولحية، يضع نظارة فوق عينيه الخضراوتان، يرتدي سترة جلدية طويلة ومعه حقيبة إسعافات أولية بيضاء، أمرهما بالتوقف بلهجة حازمة، تفاجأت سيلينا برؤيته، إنه الطبيب مُصعب، تخاف أن يخبر والدها، وتكره أن يراها بهذا الحال المزري، توقفت عن البكاء قال الطبيب مخاطبًا تلك المرأة:

_كم أعطيكِ وتتركيها؟

_لا شأن لك، اغرب عن وجهي.

تجاهل كلماتها وتابع:

_اختاري المبلغ الذي تريدينه وأخبريهم بأنك لم تجديها.

لم ترد فسألها:

مئة ألف؟

أحكمت قبضتها على معصم سيلينا وجزت على أسنانها مبتسمة بخبث:

_مئة وخمسون.

_دعيها أولًا.

تركت يديها فركضت مسرعة واختبأت وراء الطبيب، فأخرج محفظته وأعطاها مئة وستون شريطة أن تغلق فمها جيدًا ولا تقترب من الفتاة مجددًا.

تناولت المال من يده وانصرفت، التفت مُصعب نحو سيلينا بنظرة حزينة وعطوف اقترب منها قائلًا:

_من هؤلاء الذين يؤذونك؟

ابتعدت خطوتين للوراء إثر اقترابه، وبقيت صامتة مرتجفة الأطراف، أدركت الآن أنه قد سمع شجارها ورجائها قبل قليل، سألها باهتمام:

_ما بكِ؟ أنت ترتجفين لا تخافي لن أدعهم يقتربون منكِ.

وكأن ذكره للخوف حطم صمتها وحفزها للحديث، راحت تتلفت حولها مردفة بصوت مرتجف:

_سيصلون إلي حتمًا.. علي الهرب.. سيمسكون بي و... ويؤذونني.

صمتت وارتكزت نظراتها للأسفل نحو الأرض ربما خوفًا، أو انكسارًا أمام كل شيء.

قال وهو يتأهب للمشي:

_تعالي معي بسرعة.

بقيت على حالها، اقترب مائلًا برأسه إليها:

_لا تخافي هيا.

لم ترد.

_لن أؤذيك.

_لن تعيدني للبيت؟

_إن كنت لا تريدين العودة فلن أعيدكِ.
_عدني بأنك لن تقترب مني ولن تعيدني للمنزل.
تفاجأ لمقولتها تلك: أعدكِ.
مشيا معًا حتى وصلا لسيارته، صعدت للوراء وسبقها للأمام مغلقًا الشبابيك كانت سيارته سوداء مفيمة بالكامل، كان يملك معلومة واحدة وهي أن مشكلتها الأساسية في المنزل، ولكن كيف يؤذى المرء في منزله؟ أليس المنزل هو ملاذنا الآمن في دروب الحياة المخيفة؟
سألها إن كانت جائعة او تحتاج ماءً لكنها أجابت بالنفي ولا زالت ترتجف، شغّل نظام التكييف لابد أنها تشعر بالبرد، ثم قال:
_سأذهب لأحضر شيئًا ساخنًا نشربه وأعود.
_لا تتركني وحدي
_لن أتاخر
_ولكن..
_وعد.
ذهب لبضع دقائق ثم عاد بسرعة ومعه كأسين من الحليب الساخن، عم الصمت لبعض الوقت قبل أن تقول:
_كانوا يؤذونني ثم أخطأت خطأ كبيرًا سيزداد الأذى الآن.
مسحت دموعها بيسراها وأكملت:

_أخاف من العودة للمنزل، وليس لدي مكان أذهب إليه، لا أدري مالذي علي فعله الآن.
_ولكن والديك سيخافان عليكِ، وسيسامحانك، فكري بروية، لا يمكن للخطأ مهما كان كبيرًا أن يفسد علاقتك بهما لهذه الدرجة صحيح؟
_والداي ليسا هنا.
أجابت بصوت مختنق فسألها وقد ازدادت حيرته:
_أين هما؟
_في سفر خارج البلاد لن يعودا قبل ثلاثة أشهر.
_من سيجرؤ على إيذائك بغيابهم إذن؟ لماذا لا تخبريهما؟
وكأن كلماته ضغطت عل زر الانهيار فغرقت سيلينا في نوبة بكاء جديدة.
*****
تحلّقت الفتيات حول المدفأة يقاومن الليلة الباردة بشرب الشاي وبتناول الكعك المحلى الذي أعدته سارة لهن، كانت نور جالسة تتصفح في الفيسبوك دخلت لسجل البحث وكتبت اسم وجدان لترى ما آخر أخباره مرت عدة أيام بدون أن تراه أو تتحدث إليه، دلفت لحسابه لم تجد سوى منشور واحد جديد منذ أربعة أيام أي بعد شجارهما بيوم وقد كان اقتباسًا:

(إن الذين حين جروحك نزف قلبك،
لماذا حين جرحتهم أيضًا نزف قلبك؟)
إذن هو يدرك بأنه كان قاسيًا معها، أرادت أن تثبت مرورها ورؤيتها لمنشوره فتفاعلت بأحزنني وأغلقت الهاتف، هل عليها أن تواسيه وتعتذر له لكونه جرحها؟ بالتأكيد لن تفعل، نسيت بأنها سببت له الكثير من الجراح أيضًا، حملت سارة فنجان شايها استشعرت حرارته ودفئه حمدت الله على هذه النعمة التي يتمناها الكثير مما يعانون برد الشتاء ويعيشون بدون مأوى يحميهم، وجهت سؤالًا لنور:
_انصحيني بكتابٍ اقرؤوه يا نور، تكون مفرداته بسيطة ومفيدة لأنني لستُ مثقفة ولم أكمل تعليمي.
ابتسمت نور:
_ما المواضيع التي تُلفتك وتحبينها؟
تدخلت فلك مردفة:
_الفتيات أمثالنا يا سارة لا تناسبهم القراءة، نحن جُعلنا لأعمال المنزل فحسب، أما المحظوظات المغرورات هم اللواتي يحببن القراءة والكتب.
تغضن جبين نور تنفست بعمق قائلة:

_مخطئة يا فلك، بل يكمن جوهر الفتاة في براعتها بأعمال منزلها ويكتمل بامتلاكها أناقة فكرية وثقافية ولا تضداد في ذلك.

_لماذا لا تعمل فتيات الجامعة في المنزل مثلنا إذن ولا يجدن قلي بيضة واحدة؟

_من أخبركِ بهذا؟ هناك من هن بارعات في كلا المجالين بجدارة، واعلمي أن الجامعة ليست مقياسًا أبدًا لثقافة الإنسان ورفعة أخلاقه، صحيح أنها تفيده وتمني مهاراته ومعلوماته بأحد المجالات ولكنها لا تعلمه ما يفيده في حياته اليومية وفي علاقاته مع الآخرين، صحيح أن ضغط الدراسة قد يجعل بعض الفتيات لا يلتفتون لأمور المنزل ولكن ليست جميعهن سواء.

صمتت ثم تابعت:

_هناك نص جميل لاستشارية بعلم نفس تدعى نور النومان قرأته في أحد الأيام ما رأيكن أن اقرأه عليكن؟

أشارت سلمى وسارة لها بالإيجاب أما فلك فتظاهرت بأكل الكعك، بدأت نور القراءة:

("لم أنجز شيئا في حياتي".. عبارة تحدثني بها العازبات أو المتزوجات، عندما يشتكين لي ضياع أحلامهن وطموحاتهن..

لكن لو حللنا العبارة بضوء الواقع والفطرة ، باحثين عن الغاية من الوجود لاختلفت المشاعر كثيرًا في ضوء المعارف وتبدد الجهل..
وللتوضيح سأضرب لك مثال :

تخيلي معي أنني أهديتك قلم كحل لتتزيني به عند زوجك وصديقاتك وبين محارمك ولنفسك، ثم وجدتِ فتاة تستخدم الكحل للتزين ، بالإضافة لرسم الأشجار والورود بطريقة فنية مبهرة.. هل نستطيع أن نقول أن قلم الكحل في يدك لم يحقق غايته ووظيفته لأن فتاة ما أضافت وظائف جديدة على القلم ؟
هل لو رسمنا بقلم الكحل رسومًا عادية وتركنا التزين به سنكون مبدعين ومنجزين؟

ستقولين لي بالتأكيد لا... فكذلك حقيقة وجودك، فأنت هنا على الأرض خُلقتِ لغاية (عبادة الله) وهدفك الحقيقي هو

الرجوع لمستقر أبيك آدم (الجنة)، وهذا أهم من أي إنجازات أخرى.

فبينما أنت بمنزلك تفعلين ما يسّر الله لك فعله ، لربما ينظر الله في علاه لقلبك ويراه خاليا من التعلق بأي شيء دونه، فيرضى عنك..

او تكونين فتاة في منزل والدين يسعدان بأقل عمل تعملينه (شاي، ترتيب المنزل، اتصال لأداء واجب..)

او تكونين متزوجة تعف زوجها بزمن تسعير الشهوات الطبيعية والشاذة، وتنجب أطفالا موحدين يشهدون بوحدانية الله ويؤدون الفرائض.... إلخ

ثم تنظرين لسنين من الإنجاز والجهاد بزماننا المخيف على أنها لا شيء!

تحقرين ذاتك و تنتقصين من قيمتها وتجلدين نفسك بطريقة يفشل في تحقيقها أشد أعدائك، فتوقفي عن هدم ذاتك وإنجازاتك الحقيقية!

وإن كنت تجدين أنك بحاجة لهواية فهذه والله غاية مبررة بل ومطلوبة إن كنت تملكين متسعًا من الوقت.. وستضيف عليك التألق خاصة إن كانت ميولك وهواياتك نبيلة ومتسامية و تبعدك عن الفراغ المهلك لك ولغيرك...)

توقفت نور عند انتهائها من القراءة ابتسمت سلمى مضيفة لكلامها:
_صحيح، هناك الكثير من الوظائف التي يمكن أن تمتلئ بغيرك من الرجال والنساء الذين بإمكانهم تأديتها عنكِ، لكن منزلك لن يكون سكنًا وسكينة لسكانه إلا بوجودك أنت فيه وبذل جهدك لأجله، والقراءة هي الأشياء التي تسلي وقتك، وتفيدك في مجالات شتى، كما أننا نحب أن نخصص وقتًا لزيتنا الخارجية علينا تخصيص وقت لتزيين أفكارنا وتنظيفها مما يشوبها من أفكار قد تلوثها وتفسد علينا حياتنا.
ابتسمت سارة وهي تشعر بالراحة والسعادة لما سمعته، تأملت سلمى وهي تتحدث إنها تحبها كثيرًا، تحترمها، تتعلم

منها دائمًا في كل تصرفاتها، طرقات متتالية على الباب جعلت فلك تنهض سريعًا لتفتح، غابت قليلًا ثم عادت وعيناها تلمعان بفضول.

_من أتى يا فلك؟

_إنه الطبيب مُصعب جاء لأجل ميمي، ولكن هناك فتاة ملفتة للنظر بصحبته.

نظر الجميع نحوها بعدم فهم، فقالت تشرح لهن قصدها باستمتاع:

_لا أدري ما بها، لكنها تبدو فزعة من شيء ما، ترتدي فستان منزليًا طفوليًا وخف وردي لطيف، وشعرها مبعثر وجميل وطويل جدًا وكأنها أتت من عالم الأحلام أو نهضت من نومها إثر كابوس مخيف وجاءت إلينا، ينتابني فضول كبير لمعرفة قصتها.

قالت نور:

_ربما تكون ابنته وتعلقت به فأحضرها معه.

هزت فلك رأسها نافية:

_لا، إنها ليست صغيرة إضافة لكون الطبيب مُصعب غير متزوج بعد.

صمتت ثم همهمت:

_سأذهب لأعد لهم البابونج وأتقصى الأخبار.
*****

هتفت مهجة:
_لا أستطيع يا دكتور مُصعب، أنا لا أعرفها وهيئتها هذه لم تريحني أبدًا، أخاف على منزلي وسمعتي وعلى الفتيات اللواتي يعملن عندي إنهن أمانتي.
_سيدتي إنها من أسرة محترمة ومعروفة لكنها خائفة من أمر ما، وعلي حمايتها ولا مكان لدي أثق به سوى منزلك.
_ما قصتها؟ ولماذا أتت معك بهذه الحالة؟
_لا أعرف قصتها، لكنني أعرف عائلتها منذ زمن، ثقي بي وعدٌ عليَّ أنني لن أخيّب ظنكِ.
سمعت فلك هذا الحوار ثم طرقت الباب وشرعت بالدخول، وزّعت أكواب البابونج وهي تلقي نظرات سريعة على الفتاة الشاحبة الجالسة ليمين الطبيب.
أردفت فلك وهي تحاول البقاء وقتًا أطول:
_مريمة نامت قبل مجيئكم لكنها لم تتحسن بعد.
_فلك دعينا وحدنا، سيرى مريم بعد قليل ويقيس حرارتها.
حط الانزعاج فوق وجه فلك لكلام مهجة وانصرفت للخارج.
****

بعد قليل ذهب الطبيب وطلبت السيدة مهجة اجتماع الفتيات في غرفة الجلوس وقد كن موجودات قبل طلبها تأملتهن عند وصولها للغرفة؛ نور تمسك بين يديها كتابًا إنجليزيًا وسارة تجدّل شعرها، سلمى تبدو متعبة وجالسة باستسلام فوق الأريكة وتمسك بخاتم التسبيح بينما فلك كانت آتية مع السيدة وتختلس النظر للفتاة الغريبة كل حين، قالت السيدة مهجة بصوت متزن بعد برهة من التفكير:

_هذه الفتاة ستكون صديقتكن الجديدة، عرفيهم بنفسك يا ابنتي.

رفعت ناظريها ترنو إليهن، لم تخفَ عليهن حمرة عينيها التي تشي بالكثير من البكاء، قالت بصوت أقرب للهمس:

_ اسمي سيلينا

أكملت السيدة مهجة:

_نور سيلا ستشاركك غرفتك من الآن فصاعدً، تدبرا أمر النوم اليوم وغدًا سأطلب من سعيد إحضار سرير آخر للغرفة.

ثم نظرت لفلك وسيلينا قائلة:

_ستساعدين فلك في أعمال المنزل يا سيلا، دعيها ترى المنزل يا فلك واشرحي لها قوانين ونظام العمل.

صمتت ثم أضافت قبل خروجها:

_طابت ليلتكن.
خرجت السيدة فاقتربت سارة من سيلا سألتها:
_جائعة؟
أتت فلك من الناحية اليسرى:
_أهلًا بكِ بيننا سيلينا.
لكن الفتاة لم تتفوه ببنت شفة، خطت نور نحوهما ثم أمسكت بكف سيلينا مردفة:
_أظنها تحتاج للراحة، تعالي معي.
صحبتها إلى غرفتهما أغلقت الباب قائلة:
_هذه غرفتنا، إن كنت تحتاجين شيئًا فأخبريني.
_أين سأنام؟
_على السرير.
_وأنتِ؟
_أنا سأسهر طويلًا لا تقلقي سأجلب إسفنجة من غرفة الجلوس وأنام هنا بالقرب منكِ.
_دعيني أنام على الأرض وعودي لسريرك.
_لا، تبدين متعبة وعليكِ أن ترتاحي.
قالتها ثم خرجت عائدة لغرفة المعيشة وقد انصرفت بقية الفتيات إلى النوم، حملت الكتاب بين يديها وانهمكت في قراءته وترجمته.

*****

استيقظت سارة على صوت قطرات المطر وهي تقرع النوافذ بقوة، نهضت بخفة وهدوء أدّت صلاة الفجر وأرسلت دعواتها نحو السماء وهي تتأمل مشهد انهمار المطر وتنصت لصوته، واثقة بأن دعواتها التي تصعد للسماء ستعود يومًا ما إليها محملة بغيث الإجابة ووفرة العطاء الذي سيدهش قلبها ويحييه كما تحيي المطر الأرض بعد جفافها وموتها، أخرجت الدفتر الصغير وتسللت خارج الغرفة لتقرأ فيه، أصبحت تستمتع بقراءته وكأنه رواية وليس دفتر مذكرات.

"غبت طويلًا عنك يا دفتر، هل اشتقت إلي ولكلماتي وأسراري؟

لقد مرت الأيام الماضية سريعًا، استغرق الأمر وقتًا وجهدًا حتى نلت رضا والدتي عن قراري، لم أتصادم معها بل حاولت طمأنتها وإزالة أشواك المخاوف من قلبها الوردي، والدتي حنونة وهذا أجمل ما فيها، صحيح أنها لا تفهمني بالقدر الذي أتمناه، وتعاملني بطريقة تزعجني أحيانًا وكأنني لا أفقه شيئًا عن الحياة، لكنني أتجاوز ذلك واحترم قلقها ومحبتها، أحترم أن لها طريقة مختلفة في التعبير عن عاطفتها نحوي، وأتقبل أنني لا أستطيع تغيير سلوكها، لذلك

أحبها وأحتويها ملء قلبي لتطمئن وترضى عني، أفهم ألمها حينما يسخر أبي من مشاعرها ولا يأخذها على محمل الجد ويتذمر للكثير مما تفعله، لذلك أحاول أن أشعرها بأنني أفهم مشاعرها، وأفكك عقد القلق المتشابكة التي تشغلها، أنا أؤمن أن أجمل ما قد تمنحه لإنسان ما هو أن تخفف عنه عناء نفسه، وتشاركه ثقل أفكاره، وتطمئن مخاوفه، لا أخبرك الآن أنني فتاة مثالية لكنني بالفعل أحاول قدر استطاعتي ألا أبالي لمشكلات المنزل وأن أعالجها بالحب والرحمة، أنجح مرة وأفشل في ذلك مرات وأتمنى الهروب من واقعي ومن الحياة، أنا أعيش بالأمل وبالمحاولات.

لقد كنا اليوم في زيارة لمنزل آل السيد، تمت قراءة الفاتحة والخطوبة، وتم الاتفاق على بعض الأمور وتحديد موعد حفل الخطوبة وعقد القران، جلست معه لبعض الوقت فناداني بالفراشة!

وقال بأنني أشبهها في جمالها وخفتها إضافة لكوني رقيقة مثلها، هل هذه رقة؟ أعتقد بأنني فتاة هشة تكترث لأصغر التفاصيل وتحزن بسببها، بدأت أنظر لتلك الصفة التي أمقتها من منظور إيجابي حينما امتدحني بها، أتعلم لم أعرف كيف أرد عليه حينما نعتني بالفراشة فقلت له: (لكنني لا أمتلك جناحيها!)

فرد علي مبتسمًا: (بلى لديكِ، أنتِ تطيرين في فضاء اللغة، وتحلقين في وصف الشعور، الكاتبات فراشات بأجنحة!)
اكتسى وجهي بحمرة الخجل، ثم تحدثنا قليلًا وسألني عن رأيي في الكتاب الذي أرسله لي وأعطاني واحدًا جديدًا من مكتبته، لقد جعلني أحب القراءة والكتب والفراشات، والأهم لقد جعلني أحب نفسي وحروفي.
ثم جاء الجميع وجلس معنا وبدأت المباركات وتسلمت هدية من كل فرد بالعائلة، حتى زوجة أخيه المسافرة أتت لي بهدية ثمينة ومبتذلة، أحببتها لأنها تبدو من الطراز القديم، كانت مرآة مزخرفة الأطراف ذهبية اللون ومشط بنفس المواصفات وعلى أطرافه جواهر صغيرة لامعة، كنت أود الثرثرة أكثر يا دفتر لكن عليّ الانتهاء من قراءة الكتاب ومتابعة دروسي المتراكمة".
أغلقت سارة الدفتر ونهضت، التقت بنور في طريقها فأخفته في جيبها.
_صباح الخير.
_صباح النور، ما بكِ يا نور؟
_لم أنم جيدًا، إنها تبكي وتنشج طوال الليل أثناء نومها.
_المسكينة!

أكملت نور طريقها إلى الحمام ودلفت سارة للغرفة خبأت الدفتر وخرجت لتعد الفطور.
بعد قليل طرقت نور الباب فجاءها صوت فلك تأذن لها بالدخول، دلفت للغرفة ووقفت تتأمل فلك وهي ترتب سريرها، هتفت:
_أنتِ مناسبة تمامًا!
_مناسبة لماذا؟ للتمثيل في مسرحية أم لشروط سعيد الحظ الذي تبحثين له عن عروس؟
ضحكت نور:
_لا هذه ولا تلك، سيلينا لم تجلب معها أغراضًا ولا ملابسًا، وكما ترين أنا قصيرة ونحيلة لم تناسبها ملابسي، والسيدة مهجة لن تقبل برؤيتها بملابس النوم بالتأكيد.
صمتت نور لبرهة ثم أضافت:
_فستانها على الرغم من بساطته لكن قماشته تبدو فاخرة وباهظة الثمن، وفساتينك جميلة وبها لمسة رقي أكثر من فساتيني أنا وسارة.
رمتها فلك بنظرة ثم عادت للترتيب مردفة:
_بغض النظر عن مقاساتنا المتشابهة يا نور، لماذا قد نراعي ذوقها ومستواها المادي لنعطيها ما يناسبها؟ هي ليست في منزلها وعليها ارتداء ما يتوفر لها بدون غرور.

_هي لم تطلب شيئًا لكنني أشعر بأن نفسيتها هشة ومتعبة فأحببت أن نوفّر لها ما يريحها.
_حسنًا، سأبحث في ملابسي وآتيكِ.
فتحت نور الباب لتخرج فدخلت سارة مردفة:
_فلك سيلا تحتاج مشطًا.
تساءلت فلك باستياء:
هل تضمنين نظافة شعرها؟ افترضي وجود القمل مثلًا؟
قاطعتها نور وهي تخطو للخارج:
_لا تتعبي نفسك بالافتراضات، سأعطيها مشطي.
فتحت فلك الخزانة وهي تهمهم:
_سيلا تحتاج فستانًا، سيلا تحتاج مشطًا، سيلا استيقظت، سيلا تبكي!
يا إلهي، يا إلهي وكأنها الأميرة ونحن الجواري اللواتي يعتنين بشؤونها.
أغلقت سارة الباب مردفة:
_تعاطفي معها قليلًا يا فلك، شعرها طويل جدًا واضح أنها من عائلة كريمة، ما هذا الذي قلته لتوك تخيلي كونها سمعت كلامك ستشعر أنها جاءت من الشارع.
_من أين جاءت إذن؟!

أنا لن أتعاطف معها حتى أعرف السرّ الذي وراءها، ما رأيك في هذا؟
قالتها وهي تشير لأحد الفساتين، حينما نظرت سارة لم تنتبه للفستان لم يستحوذ على انتبهاها سوى مرآة ومشط بلون ذهبي قديمي الطراز، سألتها وهي تشير لهما:
_ما هذا يا فلك؟
ابتسمت فلك وأخرجتهما قائلة:
_إنهما هدية قديمة أحبها جدًّا، ما رأيكِ جميلة صحيح؟
تأملتهما سارة وهي تتذكر الوصف الذي قرأته صباحًا، إنه ينطبق عليهما تمامًا.
_جميلة جدًا، والفستان مناسب ولطيف.
_عيناكِ الجميلة يا سارة.
امتلأ صدر فلك سعادة وقد أثنت سارة على ملابسها وكذلك فعلت نور قبل قليل وأخبرتها أن ذوقها فاخر وجميل، تحب سماع الثناء والمديح لأنها لم تتلقاهما في حياتها إلا شيئًا يسيرًا، المديح الذي كانت تسمعه سابقًا كان متعلقًا بعملها فحسب أما شخصيتها وذوقها وملامحها لم تسمع عنهم كلمة جميلة قط.
*****

في عصر ذلك اليوم كانت سارة وسلمى تجلسان جنبًا لجنب تمسكان بسنارات الحياكة وحولهما كرات صوفية ملونة، وقربهما تجلس مريم التي تلعب بدماها الصغيرة تارة وتعبث بكرات الصوف تارة أخرى، مهجة ذهبت لزيارة ابنها منذ الصباح ولم تعد بعد، ونور في الجامعة، أما فلك فكانت تُري سيلينا المنزل وتشرح لها قوانين السيدة مهجة ونظام العمل، كانت سيلا شاردة وملامحها شاحبة، تأملت فلك كفيها فبدا لها من نعومتهما أنهما لم تمتدان للعمل يومًا ولا تعرفان كيف تغسلان ملعقة!

فأرادت التأكد مما بدا لها فأوكلت لها غسيل الأطباق وخرجت للحديقة بعد سماعها صوت سيارة سعيد، بدأ يُنزل الأغراض التي طلبت منه السيدة مهجة إحضارها.

اقتربت منه فلك:

_سلمت يداك، أفتقدك، لماذا لم تعد تأتي كما السابق؟

_خفت أن أسبب لك المشكلات، سلّم الله قلبكِ يا فلك، لو توقف الأمر عليّ لما تزحزحت من هنا.

ضحكت ثم أردفت:

_هل بإمكانك إدخالها للمطبخ؟ بعض الأكياس ثقيلة.

_طلباتكِ أوامر.

قالها بابتسامة عريضة، فبادلته الابتسامة بمثلها وساعدته بنقل الأكياس الخفيفة للداخل، ارتبكت سيلا عند دخوله وأوقعت كأسًا كانت تغسله، فأشاح بوجهه عنها واستدار للخروج سريعًا وقد ارتبك أيضًا فاصطدم بفلك، هتفت:

_ما بك؟

رد بعصبية وقد خجل من نفسه:

_لماذا لم تخبريني أن سارة بالمطبخ.

_إنها ليست سارة يا سعيد، هذه سيلينا فتاة جديدة.

التفتت لسيلينا وصاحت:

_لقد كسرتها؟ يا إلهي! اذهبي للداخل سأكمل بنفسي.

تابعها سعيد بنظره حتى خرجت كان يشعر أنه رآها من قبل فنظر إليها لعله يتذكر، اغتاظت فلك من فعله وكرهت سيلا لكونها جميلة وغير محجبة، لو كانت سارة لما تجرأ على دخول المطبخ بوجودها، أمسك سعيد يدها قائلًا بفرح:

_تعالي سأريكِ ما أحضرته لكِ.

وقفت بجانبه حتى أخرج من السيارة كيسًا كرتونيًا أحمر اللون مدّه إليها، ابتسمت وهي تتناول الكيس من يده:

_ما هذا؟

_ألم تخبريني أنكِ تحتاجين هاتفًا؟

تذكرت فلك حينما كانت غاضبة ومنزعجة وأخبرته عن الكثير من الأشياء عن البيت والفتيات، وعن شعورها بأنها أقل منهن قيمة في كل شيء، وعن امتلاك نور هاتفًا تتسلى فيه طوال الوقت.

_سعيد، لم أكن أقصد أن تحضر لي واحدًا، لكنني أثرثر كثيرًا حينما أكون غاضبة حتى أهدأ فحسب.

قال بنبرة ودودة:

_ربما لستُ بارعًا في التعبير اللفظي عن محبتي لكنني أعبر عن حبي بالعطاء يا فلك.

كانت السماء مكتظة بالغيوم، دوى صوت الرعد وبدأت حبات المطر تتسارع، كادت تقترب منه، أو ترد عليه بأنها تحبه كذلك لكنها تذكرت كلام نور، صراع ما احتدم في داخلها.

_شكرًا يا سعيد، لكنني لا أعرف كيف يُستعمل.

فتح باب السيارة قائلًا:

_إنها تمطر، اصعدي معي سنذهب معًا في جولة وسأعلمك كيف تستعملينه، السيدة مهجة لن تأتي حتى تتصل بي اطمئني لن تعرف بذلك.

اقتربت من السيارة وكادت تفتح الباب فعاد صوت نور يتردد في مخيلتها: "إن كنت تخافين عقاب مهجة فعقاب الله أشد وأقسى!"

ترددت لوهلة ثم ابتعدت مردفة:

_ربما مرة أخرى يا سعيد، لدي الكثير من الأعمال التي علي إنجازها قبل عودة مهجة.

_ولكن!

_سنخرج مرة أخرى، انتظر هنا قليلًا.

غابت في الداخل لبعض الوقت ثم عادت ومعها علبة طعام قالت بلطف لعلها تخفف انزعاجه من رفضها الخروج معه:

_أعرفك تحب ورق العنب فخبأت هذه لك يوم أمس، كنت أنتظر مجيئك.

لمعت عيناه وعادت البشاشة لوجهه شكرها ثم غادر.

*****

اقتربت سيلينا من نور الجالسة وراء المكتب منذ ما يقارب الساعة بلا حراك، طلبت منها بعض الأوراق وقلم فأعطتها ما طلبت، سألتها:

_ماذا تدرسين يا نور؟

_أدرس الأدب الإنجليزي.

لمحت نور الامتعاض في وجه سيلا فأضافت:

_تكرهينه؟
_لا أحب ثقافتهم ولا بلادهم.
_أحلم بترجمة الكتب القيمة المفيدة التي عندنا إلى لغتهم والعكس، أرى بأنني سأجني ثمرة نافعة من دراستها وسأفيد غيري، ماذا عنكِ هل تدرسين؟
_كنت في كلية الفنون.
_والآن؟
_ماذا الآن؟
_قلتي "كنتُ" وكأنك تقصدين الماضي.
ندمت على ملاحظتها ربما تعرضت لمشكلة أجبرتها على ترك الجامعة وهذا ما دفعها للعمل هنا أيضًا.
_قلتها لأنني لا أدري إن كنت سأكمل فيها أم لا، أشعر بالضياع.
نهضت نور مردفة:
_لا تخافي يا سيلا سيتكفل الله بالهم الذي يشغلك حينما تلجئين إليه، تعالي اجلسي مكاني عليّ الذهاب؟
_إلى أين؟
_سأقرأ للسيدة مهجة.
حينما خرجت نور وجدت السيدة مقبلة نحوها، أخبرتها أن غرفة المكتبة باردة وأنها ترغب في الجلوس بغرفة

المعيشة، فأومأت الأخرى برأسها ودلفتا معًا للغرفة حيث كانت تجلس بقية الفتيات، اتخذتا مقعدًا على الأريكة المقابلة للمدفأة، وضعت سارة ما انتهت من تقشيره من حبات البرتقال أمامهما على الطاولة، تحسست نور الكتاب بيدها وكأنها تربت على رأس طفل صغير، إنه كتاب: (جلسات نفسية للدكتور محمد إبراهيم)، يدهشها هذا الكتاب وتحبه، فتحته حيث وصلت بالقراءة منه تأملت العنوان ثم طلبت من سارة أن تنادي سيلينا لتشاركهم الجلوس والاستماع، شعرت سارة أن هناك ما هو مفيد في الكتاب فقررت الإنصات بدورها، عادت ومعها سيلا بفستانها الأحمر الذي استعارته من فلك وجديلة طويلة، جلست وبعثرت أوراقها فوق الطاولة، انتابت فلك الرغبة في الاطلاع على تلك الأوراق لكنها بقيت مكانها جالسة فوق السجادة وفستانها الجديد في حضنها تضيف عليه بعض اللمسات الأنيقة بتطريزه ببعض حبات الخرز البلورية اللامعة.

بدأت نور القراءة بصوت رزين ونبرة تحتوي على القوة الناعمة:

(يميل المخ لمضاعفة الآلام وتضخيم الاحتمالات حتى تظن أن الكون سينهار، وأنك لن تستطيع تجاوز هذا الأمر مهما فعلت.

أضف إلى هذا كله حالة الضعف النفسي الذي يعيشه أغلبنا وعدم الرغبة في التعرض للألم، كل هذا مما يضاعف حزن الإنسان ويزيد همه. فالحزن من المشاعر الإنسانية الطبيعية وعلاجه هو تقبله .

فلا تحزن من حزنك، لا تصارع حزنك لا تشعر بأنه نهاية الكون وأنك ستظل كذلك. إنما هي مشاعر طبيعية لم يسلم منها حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع)، ولكن هنا موضع القوة والصبر (ولا نقول إلا ما يُرضي الله) ليس ذلك فقط بل مر عليه عام كامل سماه: (عام الحزن) هو العام الذي توفيت فيه السيدة خديجة بنت خويلد زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوفي فيه أيضاً عمّه أبو طالب. فالحزن والألم من طبيعة هذه الحياة وإنك لن تستطيع أن تحيا بسعادةٍ ما لم تتقبل هذة الحقيقة وترضى بها، حينها فقط سيكون لحزنك معنًى ويكون مفيداً لك. ولكن هل للحزن معنى؟

(جوان كاشيا) أستاذة علم الاجتماع بجامعة تحكي لنا عن قصةٍ لتفهم هذا الأمر، حين همت بالولادة وبدأت آلامها وشعرت بأنه اقترب الوقت لتصير أمًّا، أخبرها الأطباء أن تصبر قليلاً، فصبرت ولكن حدث في هذا الوقت القصير أمر مُروِّع. لقد مات صغيرها داخل رحمها.

هذا الصغير الذي تحملت لأجله كل هذه المدة لن تراه أبداً، لن تستمع لضحكاته. لن تلاعبه وتسمع صوته. كانت الصدمة شديدةً عليها، طلبت من الأطباء أن يضعوا صغيرها على صدرها وظلت حزينة لفترةٍ طويلة.

ثم بدا لها أن تسأل ما فائدة الحزن وهل له معنى؟

وبدأت بصفتها متخصصةً في علاج الصدمات بعمل أبحاثها، وكان من معاني الحزن التي توصلت لها:

1. فهم آلام الآخرين.

2.استعادة فهم الحياة وطبيعتها (عدم العيش في أحلام وردية).

3. إعادة ترتيب والأولويات (وقفة مع النفس).

4.معرفة الحكمة من وراء ما حدث.

5. اكتساب قوة نفسية وخبرات لمواجهة ظروف الحياة.

وأضيف أنا: إننا حين نحزن نتوقف عن الكثير من المُلهيات ونترك إجبارًا الكثير من الأعمال التي ننغمس فيها أصلاً لتلهينا عن أنفسنا، فتظل تتنقل في العديد من الأمور خوفاً من أن تواجه نفسك لتعرف حقيقتها، فالحزن إذًا يعطيك هذه الفرصة لتجالس نفسك، لتعتني بها قليلاً، لترى ما بها من آفاتٍ وعيوبٍ وتتبصر بها لتكون سعادتك من قلبك وليس سعادةً زائفةً بسبب المُلهيات التي تصرفك عن نفسك.

ولكن من أنا؟
نعم أنا أريد أن أجالس نفسي وأن أخلو بها، ولكن حين أجالسها أجد نفسي غريبة، أتساءل من أنا، ماذا أريد، وما الذي أحتاجه، في البداية دعنا نتكلم عمن أنا؟
أنا نفسٌ مخلوقة من طين، ثم نفخ في هذا الطين من روح الله. فأنت لست كما يعرفك العلم، كائناً مادياً بيولوجيًّاً لا يتعدى تفاعلاته الكيميائية، بل أنت بداخلك ما يَسع هذا العالم كله (الروح).
وفي واقع الأمر أجد أن محاولة إثبات ذلك من العبث، فكلٌ منا يدرك يقينًا كما يقرأ كلامي هذا الآن أن هناك بداخله ما يكبر بكثير هذه التفاعلات الكيميائية المحدودة، يدرك يقيناً أن الحب ليس مجرد انفعالٍ من الهرمونات والنواقل العصبية فقط كما يحب الحيوانات بعضهم بعضًا؛ فالكثير من الناس يحبون ولكن لماذا تحب شخصاً بعينه وتميل إليه هو؟ قد نفسر مشاعر الحب بالهرمونات، لكن لِمَ هذا الإنسان بالذات ليس غيره، لِمَ نختلف في طريقة حبنا وفي إيصال هذا الحب؟ فهذا يحب ويُظهر حبه في الهدايا والعطايا، وذالك يحب يظهر حبه في الاهتمام وكثرة السؤال، وهذا لا يجفُّ لسانه عن التحدث عن مشاعر الحب وإظهارها لحبيبه، فالكثيرون يحبون ولكن لا يتشابه أحد. لِمَ

نضحك كثيراً حينما يتحدث هذا الشخص بينما هناك شخص آخر إذا قال نفس ما قال الشخص الأول لا نضحك؟!

العلم يجيبك عن كيف ولكن يبقى سؤال لِمَ؟

هناك أرواحٌ كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف)، أنت لا تستطيع أن تنكر هذه الروح وسطوتها عليك فهذا هو الجانب الأول منك وهو روحك.

أما الجانب الثاني فهو التراب منك (المادة).

إذًا فمَن أنا؟

أنا مخلوق من قبضةٍ من ترابٍ ونفخة دعني أعرفك بشيءٍ عن نفسك، أنت من داخلك أجوف! أجوف!

عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لما صوّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ماهو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك".

الجوف هو الفراغ، فأنت بداخلك فراغ يحتاج دومًا أن يُملأ، وكما أنك من مادةٍ وروحٍ، فأنت تحتاج إلى أن تملأ الفراغ المادي والروحي.

والخلل دوماً ينشأ من اختلالٍ في أحدهما، فهذا الشخص يهتم بالجانب المادي ويعطيه حقه ويهمل الجانب الروحي

فيظل محتاجًا لا يعرف ما به، وهذا يهتم بفراغه الروحي ويعتني به ويهمل في الجانب المادي، فينشأ الخلل من هذا أو ذاك.

وانظر إلى هذا الحديث النبوي الجميل لتفهم ما تحتاج، أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: ﴿جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها (شعرو أنها قليلة) فقالوا وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني﴾.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالنفس يجمع بين احتياجات نفسه المادية والروحية، لا يَطغَى هذا على ذاك، فإذا أعطيت نفسك حقها من المادة والروح فقد وفّيت حق نفسك وروحك وحق جسدك وأيضًا:(إن لنفسك عليك حقًا، وإن لبدنك عليك حقًا).

أشارت مهجة لنور أي كفى، واستعادت الكتاب ثم تمنت ليلة طيبة وأحلامًا سعيدة وخرجت إلى غرفتها.
اعتصرت سيلا إحدى الورقات بيديها، كورتها ثم رمتها على الطاولة، لملمت بقية الأوراق ثم نهضت وسحبت الورقة المكورة رمتها في سلة المهملات الموجودة في ركن الغرفة وخرجت، اطمأنت فلك لأنها قد ابتعدت بما يكفي ثم نهضت بخفة وأخرجت الورقة من السلة، فتحتها فوجدت رسمة جميلة ودقيقة بقلم رصاص، مدت سارة رأسها لترى فهتفت:
_ما شاء الله، إنها مبدعة جدًا!
أضافت فلك بتأثر ولهجة درامية:
_ليت يداها الجميلتان تجيدان التنظيف وغسل الأطباق كما تجيدان الرسم بهذه المهارة الرائعة.
ضحكت بقية الفتيات واقتربت نور لرؤيتها فكانت تبدو كأنها صورة حقيقية لامرأة، كيف رسمتها هكذا بدون رؤيتها؟ يبدو بأن هذه المرأة تعنيها لأننا لا نحتفظ سوى بملامح الأشخاص الذين نحبهم، نتأملها، نحبها، ننسخها في أذهاننا فيرافقوننا حتى في غيابهم، سؤال آخر حيّر ذهن

نور ما دامت تعز صاحبة هذا الوجه فلماذا إذن كوّرت الورقة ورمتها بهذه الطريقة دون أن تعبأ بها؟!

*****

دخلت نور للغرفة فوجدت سيلا جالسة فوق السرير تدفن رأسها بالوسادة التي تحتضنها بيديها وتبكي بصوت خافت مكتوم لم يخفَ على نور، كادت تقترب منها فأضاء هاتفها معلنًا وصول رسالة: "كيف حالكِ؟"

تساءلت هل ترد عليه الآن أم تأجل الرد للصباح، لقد غاب أيامًا حتى كادت تنسى أن هناك خاتمًا يخصه يحيط بإصبعها، كانت عاتبة عليه لكونه لم يسأل عنها خلال الأيام الماضية ولم يعتذر عن جعلها تشعر بالسوء نحو نفسها، فكرت قليلًا فتذكرت بأنها قامت بالشيء نفسه وجعلته يعيش ذات الشعور المؤلم إضافة لكونها لم تبادر ولم تعتذر وكذلك لم تسأل عنه هي أيضًا، إننا لا نلاحظ أخطاءنا بدقة كما نلاحظ أخطاء الآخرين معنا ونحصيها، كتبت:

"بخير، وأنتَ كيف حالُك؟"

"حَالِكْ"

جاءها الرد سريعًا، كانت الكسرة تحت اللام تشير بكسرة أخرى في روح وجدان، كانت أيامه السابقة حالكة، مظلمة، معتمة، وبرغم كونها النور لم تحاول إضاءة قلبه أو منحه

قبسًا من نورها، أزاحت الستارة وفتحت النافذة، تنفست بعمق وهي تفكر في ردٍ جيدٍ لرسالته، تشعر بالمسؤولية نحو مشاعره وكأن عليها قول شيء ما يواسيه، طافت نظراتها في جنبات السماء، شعرت وكأن القمر المضيء يبتسم لها فبادلته الابتسام، فتحت هاتفها كاتبة إليه:

"انظر للقمر ستشعر بالسكينة يا وجدان"

حينما وصلته رسالتها ابتسم وخرج للشرفة لرؤية القمر، هل تدري يا ترى مدى تأثره بكلماتها؟

"لا أستطيع"

كتب لها وهو يتأمل السماء، حارت بإجابته كيف لا يستطيع؟! إما أنه بالعمل او أنه مريض، سألته عن السبب فأجابها:

"قمري لا يشعر بالسكينة حينما أنظر إليه، فضلًا عن كونه يكره رؤيتي يا نور"

خبأت الهاتف في جيبها بعد قراءة رسالته، لا تستطيع الرد عليها فقد فهمت ما يرمي إليه بكلماته، التفتت لسيلا سائلة إياها:

_هل تعرفين ما معنى اسمكِ يا سيلينا؟

لم تتلقَ جوابًا فتابعت:

_معناه وجه القمر! تحملين اسمًا رقيقًا تعالي انظري ما أجمل القمر.
لم تأتِ فاتجهت نور نحوها، احتضنت كفيّ سيلا بكفيها:
_ما بكِ؟ كفى بكاءً على الأقل لأجل صحتك.
_لا أستطيع التوقف يا نور، كل الأشياء تدعو للبكاء، أشعر بالتيه والضياع لا أدري ما الذي علي فعله أو كيف سأكمل حياة لا أحبها، أخاف من الغد كثيرًا ليس تضخيمًا للألم كما قرأتِ قبل قليل إن الأمر كذلك بالفعل.
قالت ذلك بصوت مبحوح ثم أضافت:
_نور هل تعرفين ما معنى أن تتوقفي للحظة وتنظري للوراء فتكتشفين أنكِ سرتِ عمرًا بأكمله في الطريق الخطأ؟!
*****
مشت نور لنصف ساعة قرب الجامعة تنتظر وصول وجدان بعد أن وعدته البارحة بزيارتهم، لكنه تأخر، اتصلت به مرارًا فكان هاتفه مغلقًا، ملت الانتظار وملأ الضيق فؤادها فقررت العودة للمنزل وطلبت سيارة أجرة، ما إن رحلت حتى وصل وجدان، بحث عنها في الأرجاء وانتظر قليلًا فلم يرَها، ولسوء الحظ كان شحن هاتفه

منتهيًا، احتسى خيبته مع كوبين من القهوة كان قد اشتراهما له ولها، عاد للعمل والوجوم يرتسم على ملامحه بدقة.
رن هاتف نور وهي في طريقها للمنزل، أخرجته فإذا بعمتها تتصل:
_السلام عليكم أين أنتِ يا ابنتي، متى ستصلون؟ وجدان لا يجيب اتصالاتي.
حارت نور في أمرها، لقد أخبر أمه إذًا لم يتأخر عمدًا، فكرت في أن عليها ألا تشغل بال عمتها، فأجابت:
_قليلًا ونصل
_حسنًا يا نور بانتظارك.
عدّلت وجهتها إلى منزل عمتها جبرًا لخاطرها ولأنها تعرف كم تفرح بمجيئها وتتعب نفسها بالطهي وغيره، عليها أن تُعطي هذا الزواج فرصة لربما تنجح، على أي حال الجميع هنا يحبها ويريد رضاها ربما لن تجد هذا في عائلة أخرى، تحتاج وقتًا فحسب حتى يطمئن قلبها لهذا القرار أكثر وتبادلهم تلك المحبة بمثلها.
*****
في وقت الظهيرة كانت سيلا تحضر بعض الأخشاب من مخزن الأخشاب الخارجي لتعبئ غرفة الخشب التي في

الداخل؛ حينما عادت راكضة تبكي بوجه أصفر وجسد مرتجف، هرعت سارة إليها:

_ما بكِ؟

سألت فلك ببرود:

_هل خرج من مخزن الأخشاب غولًا أسودًا هدد بأكلك؟

_كـ.. كان يتبعني، شعرت به عالقًا في فستاني ثم سقط.

_الغول؟ قالت فلك بتهكم فصرخت سلمى من خارج المطبخ:

_هناك فأر كبير تحت الطاولة احذرن.

كادت سيلينا تخرج فأغلقت فلك الباب قائلة: اهدأن لن نفتح أي باب قبل أن نقتلها.

صعدت سارة فوق المجلى، قدمت سيلا الكثير من الرجاءات بصوت متقطع مرتجف يملأه الفزع فلم تحتمل فلك رؤيتها بتلك الحال ففتحت لها الباب، كادت تغلقه ثانية فدخلت ميمي تريد ماء ولم تستمع لأوامر فلك بالابتعاد، صاحت فلك وهي تحمل حذاء وعصا وتنحني للأسفل:

_سارة انزلي وخذي مريم هيا اخرجا سريعًا.

لكن الفأر كان أسرع فركض أمام ميمي واختبأ أسفل الخزانة، تجمدت ميمي ولم تستطع الحراك وبدأت بالبكاء بأعلى درجة صوت تمتلكها، أغلقت فلك الباب وحملت

ميمي واضعة إياها قرب سارة بالأعلى، استمرت فلك بملاحقة الفأر وهي تسكب الماء في الأرض وتحاول إخرجاه بالعصا ثم قتله حتى تمكنت من القضاء عليه، فتحت مهجة الباب صافعة إياه بالجدار:

_ما كل هذه الضجة، كم مرة سأطلب منكن التزام الهدوء؟

أثارت الفوضى العارمة استغرابها، ولم تفهم سبب جلوس سارة وميمي بالأعلى، صرخت في مريم:

_كفي عن البكاء يا ميمي وإلا سأعاقبك!

اختبأت مريم في حضن سارة مسحت سارة فوق رأس الصغيرة وقبلتها قائلة:

_لقد مات الوحش لا تخافي.

نظرت مهجة باستفهام فأجابت فلك:

_نأسف للإزعاج سيدتي، ولكن هناك وحشٌ كبير أثار الرعب وقد قتلته لتوي.

صمتت ثم استدركت بضحكة:

_أقصد فأر، أخطأت بغير قصد.

احتقن وجه السيدة لسماعها بكلمة فأر وخرجت بدون الرد أي كلمة.

*****

قبل الغروب كانت نور تساعد عمتها في تحضير الغداء، وبعد أن انتهوا من العمل ذهبت العمة لترتاح وبقيت نور تغسل الأطباق في المطبخ شاردة في أفكارها إلى أن تناهى إلى مسامعها صوت مفاتيح فعرفت أن وجدان قد وصل، ألقى التحية ثم قال ظنًا منه أن أمه التي في الداخل:

_آسف لجعلك تنتظرين وتتعبين نفسكِ، يبدو بأنها لن تأتي انتظرتها كثيرًا أمام الجامعة ولم أرها، ربما لم تسمح لها السيدة التي تعمل عندها بالمجيء، لكنها لم تقصد إخلاف الموعد.

صمت ثم أضاف بصوت واهن:

_نور تحبنا يا أمي.

قالها وهو يعلّق معطفه وقبعته، سقط منها أحد الأطباق سهوًا حينما كانت تنصت لكلامه وتستنتج أن أمه لا تعلم بالمشكلات التي تحدث بينهما، سارع للمطبخ عند سماعه صوت الارتطام وفوجئ برؤيتها واقفة بمريول أمه البرتقالي فوق فستانها المخملي الأصفر، ينسدل شعرها فوق كتفيها، أخذت تلملم شظايا الطبق المكسور اقترب منها بغير تصديق يتأكد هل هي أمه أم أنها نور بالفعل فارتجفت يدها توترًا وخجلًا فجُرح أصبعها ببقايا الزجاج.

_دعيها واغسلي يديكِ.

أطاعت بصمت، فالتقت الشظايا المكسورة بيديه ورماها، ثم سحب يدها وأخرج منديلًا ولاصق جروح من جيب بنطاله، نشّف لها يدها وبدأ يلف اللاصق حول إصبعها بتمهل و رّقة، يُحبُّ أن يعاملها كما تُعامل الورود، بحب، وودّ، ورِقة، حتى لا تذبل، لكنها تستفزه بأشواكها وتجرحه بغير قصد منها فيعاملها بشيء من القسوة ويبتعد لمدة ما، ثم لا يلبث أن يعود إليها، يودُّ لو يستسلم وينساها لكنه لا يستطيع! لوجودها في قلبه مكانًا عزيزًا يفوق وجوده هو في قلب نفسه مكانةً ومكانًا، وكأن القلب لها هي وليس قلبه.

كانت يدها ترتجف بين يديه فسألها:

_أتشعرين بالبرد؟

_لا.

_إذن خائفة؟

_لا.

تذكرت حينما سألها سابقاً ألم تتعلمي سوى هذه الكلمة في حياتك، خبأت ابتسامتها لتلك الذكرى وبقيت صامتة ترك معصمها بعد انتهائه من لف اللاصق، سائلًا إياها:

_لماذا ترتجفين؟

تابع قائلًا حينما لم يتلقَ منها إجابة:

_على أي حال إن كنتِ غير مبالية بصحتك وسلامة أناملك فأنا أبالي بها، اهتمي بنفسك يا نور.
غيّرت مجرى الحديث سائلة إياه لتواري ارتباكها وخجلها:
_لماذا لم تأتِ لاصطحابي كما وعدتني؟
نطقت بسؤالها واستدرات رافعة أكمامها ثانية لتكمل غسل ما تبقى، اقترب ثانية وفتح صنبور الماء وأخذ يغسلها بدلًا منها إذ لم يتبقَ سوى القليل:
_لقد جئت لكنني لم أجدكِ، كنت مشغولا بتوصيل البضائع فتأخرت وانتهى شحن هاتفي.
نظرت لإصبعها المجروح، سألته:
_من أين أتيت بلاصق الجروح بهذه السرعة؟
_العمل في معمل خياطة يستلزم وجودها دائمًا في حوزتي، هل تؤلمك؟
تؤلمها؟ هل بعد لهفته عليها ولفها بالدفء والحب مع لاصق الجروح ستؤلمها؟ لا تدري كيف استطاع موقف صغير كهذا أن يحرك مشاعرها، لماذا كانت تعتقد أن الحب أكثر تعقيدًا ويحتاج مواقف بطولية كبيرة، والكثير من الكلام والوصف والشعور ليحدث؟ بينما الحب في الواقع هو تصرفات بسيطة نابعة من قلب مُحب صادق.

استكشفت أن المشاعر الصادقة تصلح لتكون لاصق جروح للقلوب أحيانًا فتداوي خدوش الخيبات والوحدة.
لم تجبه، مشت نحو الباب مردفة بصوت خافت:
_في يدي الآن لاصقين، أحدهما في سبابتي يدواي خدشًا بسيطًا، والآخر في بنصر يدي آمل أن يداوي قلبي.
قالتها ثم خرجت هاربة بدون انتظار رد، لقد فهم أنها تقصد خاتمه باللاصق الذي سيداوي قلبها، وهذا يعني بأنها قد أعطته مكانًا في قلبها الصغير، أخذ عهدًا على نفسه بأن يجلب المسرات دائمًا لهذا القلب الذي أحبه ويحبه وسيحبه إلى الأبد.
*****
_غفوتِ يا فلك؟ أشعر بالملل، نور كدودة الكتب لا أدري إن كانت تدرس أم تقرأ لكنها بين السطور، سيلا مع مهجة والطبيب يريد رؤيتها، سلمى اطمأنت على صحة ميمي وذهبتا للنوم، أنا وحيدة ولا يزال الوقت مبكرًا على النوم.
استدارت فلك نحو سارة التي جلست على سريرها للتو، قالت وقد أثارت بعض كلمات سارة تساؤلها:
_لماذا قد يأتي الطبيب ليطمئن على حال سيلينا لا أدري، ما شأنه بها يا ترى؟
_لا أعرف، هذا المنزل مليء بالأسرار، ظننتكِ نائمة.

_لست معتادة على النوم باكرًا لكنني متعبة كثيرًا يا سارة.
استلقت سارة فوق سريرها مردفة:
_عافاكِ الله، أتعلمين لا زلت خائفة أشعر وكأن هناك فأر ما سيمشي فوقي وأنا نائمة.
_لا تخافي يا سارة أنا معكِ.
_ممتنة لوجودك على أي حال، أنت شجاعة يا فلك.
_ربما.. تصبحين على خير.
قالتها وسحبت الغطاء فوق رأسها سامحة لدمعاتها بالانهمار فوق خديها، تبعثرت الذكريات أمام عينيها، حاصرتها، أعادتها لذلك اليوم حينما عاقبها عمها بحبسها في القبو الذي كان يخزّن فيه الأخشاب والخردة وأكياس الرز والطحين، كان المكان معتمًا إلا من إضاءة خافتة منبعثة من كوة ضيقة في أعلى ذاك القبو، لم تستطع النوم حينها خوفًا، وحينما استنزفت طاقتها بالخوف والبكاء غفت قليلًا لتستيقظ فزعة بدقات قلب متسارعة وكأن قلبها سيخرج من مكانه، وجدت فأرًا بجانب قدمها وقد أحست بحركته للتو فوق رجلها، سرت رعشة باردة في أوصالها، شعرت وكأن معدتها قد هوت أرضًا وتملكها الشعور بالغثيان، خافت بكت، صرخت، ولم تجد من يأتي ليجيب نداءاتها، لم تنم طوال الليل وحينما جاء عمها ليخرجها

صباحًا وجدها منكمشة على نفسها وبجانبها فأر ميت، في ذلك اليوم تغيرت شخصيتها تمامًا ولم تعد تثق بالآخرين وتأمن لرفقة أي أحد، لم تصدق أن عمها سيفعل ذلك بها وسيحنو عليها بعد القليل من الوقت في ذلك المكان المخيف، لكنه خان ثقتها وسرق أمانها، لقد ترك ذلك اليوم ندبة وخيبة في نفسها لا تُنسَ!.

*****

كان سعيد يقف في حديقة المنزل مستندًا بظهره على سيارته، منتظرًا أوامر السيدة مهجة إذ أرسلت في طلبه صباحًا، يشعر وكأنه في خلية النحل لكثرة النشاط الذي يدبُّ في المنزل هذا الصباح، فتاة تأتي وأخرى تذهب، إحداهن تدخل وغيرها تخرج، جميعهن يرتدين مريولًا أبيضًا ويتحركن بخفة ونشاط تعلو وجوههن الابتسامة، إلا فتاته كانت سريعة جدًا وعابسة طوال الوقت، يُحبُّ رؤيتها سعيدة ومبتسمة يعمل لأجل ذلك، يساعدها في أعمالها أحيانًا ويجلب لها الهدايا أحايين أخرى، لكنها كانت تفرح فرحة منقوصة، هناك جزء ما مكسور في داخلها منذ زمن، لكنها لا تظهره ولا تعترف به ولا تسعى لترميمه، يدرك ذلك برغم كونه لا يعرف ماضيها وما الذي يزعجها، ابتسم

لها قبل قليل فلوّحت له بيدها وانسحبت للداخل، يحب أن يرى أثر أفعاله عليها، إن التقدير عند الرجال هو مطلب مهم، فابتسامة فتاتهم وتقديرها للأشياء التي يقوم بها لأجلها تمنحه السعادة ويطمئن قلبه لكونها تبادله المشاعر نفسها، فهو يأخذ على عاتقه مهمة إسعادها منذ اللحظة التي يعترف فيها لنفسه بأنها الفتاة المناسبة التي سيكمل حياته معها، لكن سعيد لا يعلم بأنه سلك طريقًا خاطئًا في الحب، فالحب الذي لا يباركه رضا الله منقوص وإن اكتمل، أيقظه من شروده صوت سيلينا:

_هل بإمكاني أن أطلب منك خدمة؟

أومأ برأسه لها بعد أن ألقى نظرة سريعة عليها ثم أبعد ناظريه متذكرًا عهدًا قطعه على نفسه بألا يطلق بصره إلى الفتيات، صحيح أنه ليس ملتزمًا كما يجب لكنه يحاول قدر استطاعته أن يلتزم أوامر الله، حتى تفكيره بفلك ليس مجرد حب عابر أو علاقة معلقة في الهواء إثر فراغ عاطفي، بل هو جاد بمشاعره نحوها وينتظر الفرصة المناسبة ليطلبها كما يجب ويصعب عليه أن يقطع علاقته بها إلى ذلك الوقت، قاطع كلام سيلا سائلا إياها:

_هل التقيتك سابقًا يا آنسة؟ أشعر وكأنني قد رأيتك لكنني لا أتذكر أين.

كادت ترد حينما أقبلت فلك غاضبة كالعاصفة بعد أن رأتهما من بعيد، كادت تتكلم لكنها سمعت خطوات مهجة قادمة فصمتت تحشد جنود الكيد داخلها لشيء أعظم، انصرفت قائلة بنبرة حازمة:

_أكملي عملكِ يا سيلا.

عادت سيلينا للعمل بوجوم إذ لم تستطع قول ما تريد لمجيء السيدة ولا تدري ما مدى رضا السيدة عن ذلك الطلب وما ردة فعلها تشعر وكأنها بالكاد تحتملها، راقبت انصراف سعيد بعد حديثه مع مهجة ودلفت لتبدأ غسل الأطباق بعد نشرها للغسيل، كانت سارة تشكّل العجين بطريقة تشبه القبعات الصغير وتحشوها باللحم، كانت شغوفة بتحضير أطعمة العجين، تحب تشكيلها والتفنن في ذلك بطريقتها الخاصة المليئة بالحب والإبداع، أما نور فقد كانت واقفة لجوارها تحرّك قدر اللبن الكبير فوق النار، دخلت السيدة مهجة بصحبة فلك صافعة الباب وراءها بقوة، ضربت الأرض بعكازها وصاحت بنبرة يتقطر الغضب من أطراف كلماتها:

_كم مرة علي إخباركن بأن لهذا المنزل قوانين عليكنَّ الالتزام بها؟

ارتبكت الفتيات وكل واحدة فيهن تتساءل عن المقصودة التي خالفت قوانين مهجة، تابعت:

_سعيد مجرد سائق فحسب، عليكن التعامل معه برسمية، لا كلمات زائدة معه ولا وقوف لغير الحاجة، حتى لهجاتكن وطريقة كلامكن عليها أن تكون جادة ورزينة، لقد حرصت اختياره بنفسي إضافة لمعرفتي بعائلته وثقتي بها، يا فتيات أنا أثق بكن فلماذا تخيبن ظني؟

صمتت ثم أكملت:

_ لم يتبقَ سوى أن أجلب لكن سائقة فتاة، فكرت في ذلك لكنني أخاف أن يحدث بينكن شجار وينتهي أمر السيارة في عرض الحائط أو في شجرة من أشجار الطريق!

نظرت نور لفلك ظنًا منها أن السيدة قد اكتشفت أمرها، لكن فلك تبدو هادئة ومبتسمة على نحو غريب لم تفهمه، نظرت السيدة لسيلينا واقتربت منها قليلًا مردفة:

_تعرفين أنني أقصدك بكلامي صحيح؟

تركت سيلا ما بيدها واستدارت للسيدة، ابتلعت إهانتها بصمت، تشبثت الدموع بأطراف أهدابها كي لا تنهمر، أكملت السيدة:

_لماذا كنتِ واقفة مع سعيد؟ ما الذي تحدثتماه وما علاقتك به؟

_ليس لي به أي علاقة صدقيني.
ردت بنبرة مغطسة بالمرارة.
_لقد رأتكما فلك معًا.
_كنت أطلب منه شيئًا، هذه المرة الأولى التي أتحدث فيها معه.
التفتت مهجة لفلك:
_هل هذه المرة الأولى التي ترينهما فيها يا فلك؟
طالعتها سيلا بعينين ملؤهما الرجاء لتقول الصدق، لكن فلك هزت كتفيها بلا مبالاة مردفة:
_لا، ليست الأولى فضلًا عن رؤيته يحدّق بها طويلًا كلما جاء.
_هذا ليس صحيحًا أبدًا، صدقيني يا سيدتي.
ضربت مهجة الأرض بعكازها ضربتين:
_كيف أصدّقكِ يا سيلا وأنا لا أعرفك؟ ولا أعرف من أين أتيتِ، حتى مجيئك كان مثيرًا للريبة، أنا أحرص على اختيار مدبرات منزلي بعناية.
كتمت سيلا صوتها لكنها لم تستطع دمعاتها وشهقاتها الصغيرة التي تسترد بها أنفاسها إثر البكاء، قالت فلك:
_اهدئي وكفي عن التصرف كالأطفال لتهربي من العقاب.

أشارت نور لسارة أن تأتي للتحريك نيابة عنها، ثم اقتربت من السيدة قائلة:

_سيدتي، من الحكمة ألا نصدّق كل ما يقال عن الآخرين، علينا التحري من صدق الخبر وصحته حتى لا نجرح قلوبًا فيها من الجراح ما يكفيها.

هتفت مهجة بحنق:

_نور الزمي الصمت ودعيني أفهم منها، هئنذا أكلمها لأعرف الحقيقة.

تبادلت نور وفلك نظرة مطوّلة فهمت فيها كلاهما ما تقوله أعين الأخرى.

سحبت سيلا أنفاسها مردفة:

_فليتصل أحد منكن بالطبيب مُصعب، لن أبقى هنا سأرحل.

قالت نور:

_سيدتي أنا أثق بسيلينا لكنني لا أثق بسعيد أو فلك.

رفعت مهجة حاجبيها:

_هل هناك ما تعرفينه أو تخفينه يا نور؟

أشاحت نور بوجهها عن وجه فلك ولم تأبه لنداء عينيها، وأجابت بنعم، أضافت سارة:

_حتى أنا لا أثق بسعيد.

صفقت السيدة قائلة بسخرية:
_عظيم جدًا! لا أحد يثق به هنا سواي، أين أعيش أنا إذن؟ ما به سعيد ولماذا لا تبادلونني الثقة كما أفعل معكن؟
نطقت فلك:
_ليس الأمر كذلك يا سيدتي لكنهن يردن الدفاع عنها فحسب.
طرق الباب وسمعن صوت وصول سيارة سعيد، فقالت السيدة بلهجة حاسمة:
سنتفاهم لاحقًا وسأطلب وجود سعيد أيضًا، والكاذبة منكن يا بنات لا تلومن إلا نفسها، وصلت السيدة عبير جدة ميمي، التزمن الهدوء والصمت وكأن شيئًا لم يكن.
ذهبت لاستقبالها، خرجت سيلا باكية متجهة إلى غرفتها، أغلقت نور باب المطبخ وقالت بهدوء وهي تكزّ على أسنانها وتشد على الحروف قبل نطقها كعادتها حينما تغضب:
_تقابلين ستر الله عليكِ بفضح ستر غيرك، أقصد بتلفيق الفضائح لغيرك، ألا تخافين من الله! ماذا لو أخبرت السيدة عن علاقتك بسعيد؟
_أخبريها يا نور، ستعاقبك على إخفاء الأمر وسأكذبك بكل طاقتي وأسعى لطردك من هنا أنتِ كذلك.

_لستُ خائفة لا منكِ ولا منها، لكنني أخاف من أن أكون في موقف يستدعي مني فعلًا ولا أفعله، يتطلب كلمة ستغير الكثير إن قلتها فلا أقولها، أخاف من استطاعتي من رفع الظلم عن مظلوم بريء فأصمت لأساهم في ظلمه أنا أيضًا، أكره أن أكون قبيحة في مرآة قلبي، لا يهمني سوى رضا الله عني ورضاي عن نفسي لكوني أفعل ما يستوجب فعله.
تشجعت سارة بعد سماع كلمات نور فأضافت:
_وأنا أستطيع أن أتحدث، لقد رأيت سعيد يفطر معك ويحتسي القهوة، ورأيته حينما ساعدك في حمل الأخشاب وحينما أعطاكِ هدية، ورأيتكما تضحكان معًا ذات مساء.
صاحت فلك:
_حتى أنتِ يا سارة؟
أيحق لها معاتبة سارة وتهديد نور وهي التي بدأت؟ ألا تعرف أن من يشعل النيران فلابد من أن تطاله ألسنة اللهب؟

*****

دلفت سلمى لغرفة المعيشة بعد أن أعطت ميمي الدواء ونيمتها، ألقت التحية ورحبّت بالسيدة عبير ثم جلست تكمل

حياكة القبعة الصوفية، قدمت سارة القهوة وعيون عبير لم تتوقفا عن رشقها بسهام النظرات منذ دخولها إلى أن خرجت، سألت بنبرة مشوبة بالضيق:

_ما اسمها؟

ردت مهجة بلا مبالاة:

_سارة.

_هل بإمكانها أن تأتي لتساعدني لبضعة أيام؟ أنا وحيدة في المنزل وزوجي مسافر.

_أبشري سأخبرها بالأمر وأرى ما جوابها.

_متى سيصل فارس يا مهجة؟

_مساء الغد، لقد ألححت عليه المجيء، طفلته مريضة وتحتاج لقربه منها، اتصلت بالطبيب مجددًا وطلبت حضوره، الدواء لا يجدي نفعًا.

_أرجو لها الشفاء العاجل.

*****

دخلت نور للغرفة أخذت ترتب طاولة المكتب، فنهضت سيلا من سريرها متساءلة:

_أنتِ تصدقينني صحيح؟

استدارت نور إليها لترى في عينيها مزيجًا ساحرًا من لوني العسلي والأخضر واحمرار شديد يحيط بهما إثر البكاء،

تأملتها كانت على الرغم من الحزن والذبول جميلة، شعرت نور بالأسى لأجلها اقتربت منها ضمتها إليها بكلتا يديها مخبرة إياها بأن كل الأمور ستكون على ما يرام، دفنت رأسها بحضن نور باكية، أردفت نور:

_لن أسألك عن سبب بقائك هنا بينما لديك عائلة كريمة، سأنتظر منك أن تبوحي لي عن ذلك بنفسك، جبر الله قلبكِ بما هو به أعلم.

****

في المساء طلبت مهجة من الفتيات الاجتماع في غرفة المعيشة، كُن واثقات أن إحدى الفتاتين ستُفصل في نهاية هذا اليوم إما فلك أو سيلينا، وقفن بهدوء وكأن على رؤوسهن الطير، بدأت مهجة الحديث قائلة:

_تحدثت إلى سعيد قبل قليل، وحينما سألته عن سيلا وما الذي تحدثه معها بدا وكأنه لم يعرف من سيلا أصلًا ثم حدثته عنها فأخبرني بأنها كانت ستطلب منه شيئًا ما ثم ذهبت قبل أن تكمل كلامها، ليس دفاعًا عنه لكنه إنسان صادق وأنا أثق به.

نظرت إليهن ثم سألت:

_ماذا تعرفن عن سعيد ولماذا لا تثقن به يا بنات؟

لم تجرؤ إحداهن على الكلام، فلك خجلى من ظهور كذبها أمام مهجة، سارة لا تريد لفلك أن تعاقب أو تفصل من العمل هي وسعيد وتقطع باب رزقهما، أما نور فإنها قررت ألا تتحدث بما تعلم ما دام صدق سيلا قد ظهر، ملء الضيق صدر مهجة من صمتهن، صرخت بهن:

_حسنًا اصمتن كما تشأن، سأسامحكن هذه المرة لكنني سأخصم لجميعكن من الراتب الشهري.

أطلقت زفيرًا ثم قالت وقد عادت لهدوئها:

_اجلسن، نور أحضري الكتاب الذي كنا نقرأ منه المرة السابقة وتعالي لتقرأي لنا.

تحركت نور بسرعة، استدارت السيدة لفلك رمقتها بنظرة عابسة مطوّلة أخافتها، ثم طلبت منها أن تحضّر لهن الشاي.

جلسن وبدأت نور تقرأ:

(حينما يتحول الإنسان من مخلوقٍ وُجِد في هذه الأرض لوقتٍ محدودٍ بغاية عبادة الله لإنسانٍ وجد في هذه الدنيا للخلود وعيش حياةٍ ليس بعدها شيء؟ فإنه يستشعر أنه لا يملك إلا فرصةً واحدةً، فإذا لم أنجح في تحقيق شيءٍ فليس قيمة، ولا أستطيع أن أعوض ذلك بأي شيء. يقول(آلان دو

بوتون): (القادرون على الإيمان بأن ما يحدث على الأرض ليس مقدمةً وجيزةً للوجود الأبدي، سوف يعادلون أي ميلٍ لحسد الآخرين بفكرة أن نجاح الآخرين سحابة صيفٍ سريعة الزوال مقارنة بحياة خالدة، أما عندما ينبذ الإيمان بحياةٍ أخرى بوصفه مخدرًا صبيانيًا وأمرًا مستحيلًا علميًا، فسوف يتعاظم-'بلا شك- الضغط من أجل النجاح والإشباع، نظرًا لعلم المرء بأنه لا يملك إلا فرصةً واحدةً واحدةً للقيام بذلك).

وقد قال الله -تعالى-:(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعةً من النهار) الذي يعيش هذه الحياة وهو مؤمنٌ بمركزية الدار الآخرة، يصبح من نومه أكبرُ همه هو أن يكون خالق هذه الدنيا راضيًا عنه، ثم أي شيءٍ بعدها هيِّن. فالدنيا قصيرةٌ وسرعان ما تمر. ليس كمن يصبح من النوم تتفرق به الهموم، وهموم الدنيا لا تنقضي، فيفكر في كل شيءٍ ويحمل هم كل شيءٍ حتى يكاد يختنق بهمومه، ومثلهم كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له. ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته -يعني حاجته وما يريده- وأتته الدنيا وهي راغمة).

فأنت تختار بين أن تحمل هموم الدنيا كلها، ولن تستطيع أو تحمل وهن الآخرة والله يكفيك هموم الدنيا.
وفي أثر هذه العقيدة وهذا الإيمان، علة النفس.
كتب الأستاذ (يحيى محمد) مقالاً جميلًا جدًّا أحب أن أنقله لكم:
"في عالمٍ تسيطر عليه المادة والهوس بالصورة الذاتية، يُختزل الإنسان إلى رغباته الوضيعة وبُعدِه الجسدي وتتحول الحياةُ إلى سباقٍ محمومٍ لجمع كل شيء، ومضغه واستهلاكه وبصقه لاستهلاك المزيد والمزيد بلا نهاية ولا رضا، ولا يملأ عين بني آدم إلا التراب.
يفقد كل شيءٍ معناه وتسيطر على الناس المخاوف العميقة.
الحياة سوقٌ والكل معروضٌ في هذا السوق: مهاراتك وجسدك وإنجازاتك...إلخ.
لكن الوقت يمر والعمر ينقضي والقمية السوقية تنخفض، فماذا يفعل الناس؟ يزدادون هوساً.
يخافون من الموت والتقدم في العمر. يعبدون الشباب والقوة ومظاهرهما، ويبذلون وسعهم في محاربة الزمن، لكن صراع الإنسان مع الزمن محكوم بالخسارة.
(والعصر إن الإنسان لفي خسر).

وهو في خسرٍ لأن الزمن ينقضي ويطحن في طريقة كل شيء لا سبيل لمقاومة أو إيقافه أو إبطائه أو استرجاعه.
في عالم الفرصة الواحدة هذا، يتسع معنى الشر ليشمل كل مضايقة، كل حزنٍ وضيقٍ وتعبٍ مشاعرَ سلبيةٍ غير عادلةٍ ينبغي سحقها بالتفكير الإيجابي. يصبح الفقر والحزن عيوبًا أخلاقية. أنت فقير لأنك لم تعمل بما فيه الكفاية وحزينٌ لأنك لم تفكر بشكلٍ إيجابي، والآن لا أحد يريد معرفتك.
تسيطر على الناس المخاوف العميقة. ماذا يظن الناس في شعري الخشن أو أنفي الكبير أو وزني الزائد أو التجاعيد تحت عيني؟ كيف يقارن أولئك الأشخاص سيارتي ورحلتي إلى نيكاراجوا بحياتهم المليئة بالتسالي والإنجازات؟ الوقت يمر والشباب يذبل وموقفي في السوق يتدهور والمتع المتاحة لي تنكمش، وعما قريبٍ لا تعود لي قيمة.
هذا الخوف العميق هو يحرك الناس، الخوف من الزمن، الخوف من إنجازات الناس الآخرين وآرائهم، الخوف من الفجوة العظيمة بين محدودية الإمكانيات البشرية ولا محدودية الرغبات المسعورة. ومن أجل ذلك يدمنون الترفيه ويسعون وراء التشتيت الدائم للهرب من الأسئلة التي لا مهرب منها. إلى البارات يذهب الناس حيث الموسيقى العالية التي لا تسمع فيها أفكارك فضلاً عن أن

تتكلم مع أصدقائك. لكن ليست هذه الرؤية الوحيدة للعالم. في حضارةٍ أخرى ليس الموت نهاية المطاف وإنما موعد لقاء الله، وليست الحياة ميداناً للتنافس وجمع اللذات وإنما فرصة الإنسان للترقي والتزكية والتأهل لما بعد الموت. وفي هذه الحضارة لا تنخفض قيمة الناس بتأخرهم في العمر رهافة الروح والقرب من الله وزيادة الاستعداد لتلقي حكمته ونوره المسنون"بركة".

في تلك الحضارة لا يُنظر للأشياء على أنها موضوعاتٌ للاستهلاك. الطعام نعمة من الله تستحق الاحترام والمبذرون إخوان الشياطين. وقمية الإنسان ليس ظاهره. هناك أولياءُ مستورون، "ورب عبدٍ أشعث أغبرَ ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه" والاستكثار الفاحش من الدنيا مذموم، والإنسان ليس مطلق التصرف في العالم وإنما هو خليفة الله في أرضه، فكل ما يفعله إنما يفعله باسم الله.

الإيمان بالغيب هو ما يجعل الإنسان يلجأ لأعمال الخير السرية (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)؛ ولكي يتجنب الكبر والعجب والرياء. فالباطن مهمٌ كالظاهر. يستبدل الإنسان مراقبة الله الواحد الأحد بمراقبة جميع الناس فيرتاح.

لا تنقسم المشاعر لإيجابية وسلبية، بل {كل من عند الله}،{وأنه هو أضحك وأبكى}.في عالمٍ ليس مقصودًا لذاته وإنما لغيره، يتسامح الناس مع الأحزانِ والأفراح.

(وعجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له).

يرضى الإنسان بالقدر خيره وشره فيقل شعوره بالذنب والتكبر، يُسلم لله فيرتاح باله، فالأمور مقدرَّةٌ والله خالق كل شيء. ماشاء لله كان وما لم يشأ لم يكن. جفت الأقلام وطويت الصحف. في تلك المنظومة يعتبر كل تمركز حول النفس مذمومًا. إذا تضخمت نفس الإنسان إلى حد معين منعته من التدين والمحبة الصادقة وفرغت الأشياء من مضامينها والحياة من معناها.

ترى تلك المنظومة أن عبادة النفس أصل الشرور، والسعي وراء الملذات مطاردةٌ للسراب.(تَعِس عبد الدرهم والدينار والقطيفة والخميصة) ولا ينقذ الإنسان من كل تلك التعاسة إلا التوجه إلى الله، (وإن إلى ربك الرجعى)، (وإن إلى ربك المنتهى).

قيمٌ جميلة يحتاجها العالَم، قادرةٌ على إنقاذ ملايين البشر التعساء وفي الحديث الجميل الذي يُؤكَّد هذا المعنى، عن

انس _رضي الله عنه_:(أنَّ رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، يهدي النَّبي صلى الله عليه وسلم الهديَّة من البادية، فيجَّهزه النَّبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله: إنَّ زاهرًا باديتنا ، ونحن حاضروه). وكان سول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّه، وكان رجلًا دميمًا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، ولا يبصره الرَّجل، فقال: أرسلني، مَنْ هذا؟ فالتفت، فعرف النَّبي صلى الله عليه وسلم، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من يشتري العبد؟ فقال: يا رسول الله، إذًا والله تجدني كاسدًا، فقال رسول الله: لكنك عند الله لست بكاسدٍ، أو قال لكن عند الله أنت غالٍ).

وأخيرًا هذا لا يعني أن تستسلم ولا تبذل جهدك ولا تأخذ بالأسباب، ولكن انظر معي إلى هذا الحديث الجميل الذي يضع الأمور في مواضعها ولا يكلفك فوق طاقتك ولا يلومك على ما ليس في يدك: (إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيْس فإذا حزبكَ أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل). والعجز هو القعود وعدم الأخذ بالأسباب والتراخي وعدم حمل المسؤولية. هذا ما يلومك الله عليه ويحاسبك على

اختيارك العجز وقد كان رسول صلى الله عليه وسلم يكثر من الاستعاذة من العجز.
فالعجز منهيٌّ عنه لأنه يُقعد الإنسان عن التحرك. أما الكيْس فهو الأخذ بالأسباب وبذل الجهد وفعل ما في وسعك وطاقتك، ولكن في نهاية الأمر سيحزبك(يغلبك) بعض الأمور، لن تستطيع أن تصل إلى كل ما تشتهي، ستصدم أحيانًا أحلامك الجميلة على صخور الحياة الصلبة، وإذا كنت من محبي خطاب التنمية البشرية الذي يقدس الأنا ويخبرك أن بإمكانك فعل أي شيء، وأي نتيجة مغايرة فليست بسبب أي شيء إلا أنت؛ لأنك وحدك من تملك زمام الأمور فعندها ستيأس وربما وصلت إلى الاكتئاب، أما ها هنا يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيصيبك هذا وتفشل في الأمور حينها تقبل أن هذا طبيعي وأن سنة الحياة التقلبات، فحينها لا تيأس بل استعن بالله ولا تعجز وقل حسبي الله ونعم الوكيل واطلب من الله أن يعينك.)

بعد أن انتهت نور طالعت الوجوه حولها فكأن الكلام لم يلامس قلبها فحسب بل لامس قلوبهن جميعًا.

*****

في الليل كانت سيلينا تصلي كما علمتها نور حينما طلبت منها ذلك بخجل، كانت بحاجة إلى ركن قوي تأوي إليها بضعفها، شعرت وكأن كل الأبواب قد صفقت غب وجهها ذلك المساء، لقد جاء الطبيب مُصعب واطمأن على الصغيرة ثم رحل، لقد تجاهل طلبها لرؤيته وتظاهر بالانشغال رغم كونه لا يخرج في المرات السابقة حتى يطمئن على حالها ولو لثوانٍ معدودة مهما كانت مواعيده مثقلة، ووقته ضيق ولا يتسع، "إنه لا يريد رؤيتها" كان هذا جليًا واضحًا، لا تدري ما سبب تغييره المفاجئ اتجاهها، كانت تتساءل لماذا الجميع يكرهها؟ تذكرت أن بابًا واحدًا لا يُغلق في وجه سائل فلجأت إليه بكل عجزها لينقذها.

*****

تقلبت سارة في فراشها تناهى لمسامعها صوت بكاء، نادت فلك لم تجبها، نهضت إليها جلست على طرف السرير:

_مابكِ لماذا تبكين؟

_أكره نور وسيلينا وأكره نفسي، أكره كل شيء.

_لماذا؟

_لن تفهميني يا سارة، أشعر بالغيظ والحنق كلما رأيتهما الأمر فوق إرداتي، أكره أن أكون مؤذية لكنني لا أستطيع إمساك نفسي، الألم ينهشني يا سارة.

ضربت جبهتها بقبضتها عدة مرات وازدادت بكاءً فوق بكائها.

_أتغارين منهما يا فلك؟

_لا أدري، ربما...لا أفهم الشعور الذي ينتابني أشعر وكأنني أحترق من الداخل، انظري لنور إنها فتاة قوية جدًا، ناجحة، جامعية، لديها عائلة، وسيلينا أظن أن الأمر نفسه لديها رغم أنني لا أعرف مشكلتها، إضافة لكونها تمتلك موهبة رائعة وجمال فاتن، أما أنا لا أمتلك عائلة ولا منزل ولا إخوة ولا أي شيء مما تملكانه كلاهما، إضافة لكوني فاشلة ويائسة وعادية لا جمال يميزني ولا غيره.

صمتت ثم قالت:

_لا أحد يحبني يا سارة، حتى أنا لا أحبني، أتظاهر بأنني قوية وأتصرف بشكل سيئ لأخفي ضعفي وانكساري أمامكن.

مسحت فلك دموعها بكلتا يديها بعد أن أنهت كلامها، اقتربت سارة وضمتها إليها بحنان: "لكنني أحبكِ يا فلك".

رفعت ناظريها إليها بشجن:

_تجاملينني، لماذا تحبينني ولا شيء فيَّ يستحق الحب.

_صدقًا أحبكِ، هل علي أن أجد أسبابًا لأحبك لأجلها؟

*****

دخلت نور الغرفة متعبة عند عودتها من الجامعة، تجر خطواتها بتباطؤ، اقتربت من سيلا الجالسة على المكتب واضعة محاضراتها، اتسعت عيناها دهشة حينما رأت الورقة التي بين يدي سيلا، هتفت:

_هذا الطبيب مُصعب صحيح؟

_نعم.

أجابت سيلا ببرود ثم أضافت:

_لكنها لم تنجح تمامًا.

أمعنت نور النظر في نصف الوجه المرسوم على الورقة، إنها تشبهه نفس الحاجب الكثيف، ورسمة العين، إطار النظارة، وتسريحة الشعر، معظم التفاصيل دقيقة، أرادت أن تخبرها كم هي متقنة لكنها بدلًا من ذلك سألتها:

_لماذا تشعرين بأنها لم تنجح؟

_لأنني لستُ بخير هناك عاصفة تدور بداخلي يا نور، حينما أكون هادئة وتغشى قلبي السكينة أرسم بدقة عالية.

صمتت ثم قالت بإحباط:

_أشعر أن الطبيب لا يريد رؤيتي.

_حينما تفكرين في شخص ما ترسمينه صحيح؟

_نعم، في الفترة الأخيرة قررت أن أترك الرسم للأبد، وأغيّر الكلية التي أدرس فيها، لكنني كلما غلبني التفكير أو ازدحمت المشاعر والتساؤلات داخلي أعود للرسم، إنه بطريقة ما يرتب ما يخالجني من شعور ويخفف وطأته، أنا لا أرسم لأجل الرسم وإنما لأمنح نفسي وقتًا أتخفف فيه من ثقل أفكاري.

_لماذا قررت تركه إذن ما دام بهذه الأهمية بالنسبة إليك؟

_أخبرتني إحداهن أن الرسم حرام ولا يجوز تصوير ما له روح برسمه إلا لو كان ناقصًا، هل انتبهت لرسمي الطبيب بنصف وجه؟ حتى وإن لم يكن حرام لن أدع عمري ينهمر في شيء لن أستفيد منه بحياتي وآخرتي يا نور.

ردت نور وهي تجمع أغراضها:

_صحيح، قرأت ذات يوم عبارة جميلة للشيخ قصي العسيلي: "ابذل حيث لا تذبل" وهذا ينطبق على كل ما سنبذله في الحياة من أوقات ومشاعر وأفعال وكلمات، علينا أن نبذلها حيث تثمر، حيث يرضى الله، حتى لا تذبل خطواتنا ويضيع بذلنا هباء ويندثر بدلًا من أن يزهر.

_أوقعت سيلا القلم فوق الأوراق واستدارت قائلة:

_أتمنى أن يمنحني الله حياة تشبه الصفحة البيضاء لأبدأ فيها من جديد بهذا المفهوم، إلى أين ستذهبين؟
أخبرتها نور أن عائلتها ستأتي لبيت عمتها لأن أختها لديها عطلة، ولأن السيد فارس سيصل مساءً ووجدان لا يرضى بقاءها في منزل فيه رجل غريب ولا والدها يرضيه ذلك فاستأذنت من السيدة لأخذ إجازة ولا سيما أن ميمي مريضة ولا تحتاج للتدريس حاليًا فوافقت.
*****

أطعمت فلك المدفأة بعض الأخشاب وجلست قربها وحيدة، نور ذهبت وكذلك سارة بصحبة عبير قبل قليل، الجدة في الخارج تجلس على أحد مقاعد حديقتها تحت أشعة الشمس قرب الأشجار، تقرأ القرآن بسكينة تغشى قلبها قبل صوتها.
تململت فلك في جلستها ثم نهضت متجهة لغرفة سيلينا، طرقت الباب ففتحت لها الأخرى بوجه شاحب ترتدي ذات الفستان الذي أعطتها إياه منذ مجيئها أشفقت عليها، مر بخاطرها أن تعتذر عما بدر منها سابقًا لكنها نفضت عنها ذلك الخاطر وقالت:
_هل لكِ أن تأتين معي إلى غرفتي؟
_لماذا؟

أمسكت فلك بيد سيلا مردفة:
_أريد أن نجلس معًا ونتحدث، هيا بنا.
دلفتا للغرفة معًا أغلقت فلك الباب وراءها بهدوء، شعرت سيلينا بدقات قلبها في حنجرتها وتملكها الخوف فهي لا تثق بفلك، وها هي الآن معها في غرفتها والباب مغلق، ستؤذيها بطريقة ما واثقة بذلك فهي لا تحبها، استدارت فلك وفوجئت بوجه سيلا تحدق فيها بفزع هالها مشهد الفتاة ألهذه الدرجة تبدو مخيفة؟ لم تعرف كيف تطمئنها أو ماذا ستقول لها، لاحت لها فكرة خبيثة فانساقت وراءها، لا يبدو أن سيلا خائفة منها هي بل المشهد كله يذكرها بشيء قديم يُخيفها، قررت فلك التصرف ببرود والصمت تمامًا لعلها تفسح مجالًا لذكريات سيلا ومخاوفها بالانهمار فتحكي ما بها وتستطيع فلك بذلك أن تعرف سرها الذي تخفيه، مضت ببطء نحو أحد الأدراج أخرجت سلسلة مفاتيح واتجهت للخزانة، أخرجت كيس الهدية الأحمر واستدارت لتضعه على السرير، فوجئت بسيلا منكمشة على نفسها وترتجف، اقتربت منها:
_ما بكِ يا سيلا؟
_لا تؤذيني.. أر... أرجوكِ.

نطقت بصوت متقطع واهن، اعتصر قلب فلك ألمًا عليها، ما الذي قاسته المسكينة يا ترى حتى فقدت الأمان لهذه الدرجة؟ طاشت صحف الذكريات في رأس فلك ذكرتها بالمواقف الصعبة التي مرت بها هي أيضًا لقد سرقت الأمان من قلبها وحطمته حتى كادت تفقد الشعور بكل ما حولها، تدحرجت بضع دمعات فوق وجنتيها، اقتربت من سيلا احتضنتها وشاركتها حزنها ودموعها، لا تدري فلك ما أصابها لكن شعورًا ما تسرب من نفس سيلا إلى نفسها، شعرت وكأن سيلا هي فلك بالماضي، لا تريد لسيلا أن تعاني كما عانت هي، تود حمايتها والقرب منها، سيلينا هشة، ضعيفة، عاطفية، لقد كانت فلك مثلها قبل أن تجعل الأيام منها فتاة قاسية، وكأنها زهرة صبار خبأت رقتها بالكثير من الأشواك واختارت أن تؤذي لكيلا تؤذى، لكنها بهذه الطريقة آذت قلبها بنفسها بدون أن تدري، لا تريد لسيلا أن تُصبح مثلها، في يوم من الأيام قالت مهجة كلامًا جميلًا لم تفهمه فلك إلا الآن، قالت: "بعض القلوب حينما تنكسر لا تجرح الآخرين بأطرافها الحادة بل ينساب ما بداخلها من رحمة إلى قلوب المحزونين من حولها، فتلتئم جروحها بمداوتها لجروحهم، فالعطاء يا ابنتي بمثابة الدواء".

ستحاول فلك لأجل سيلينا ولأجل نفسها، لن تسمح لأي شيء بأن يؤذي رقة هذه الفتاة ويحولها لنسخة سيئة من نفسها.

بعد قليل هدأت سيلينا، مسحت دمعاتها قائلة:

_آسفة لم أتمالك نفسي، ما الذي كنتِ تريدينه مني.

نهضت فلك متجهة للخزانة:

كنت أريد مساعدتك في أمر ما، لكن قبل ذلك تعالي واختاري فستانًا آخرًا من عندي.

_فلك..

نادتها ثم صمتت، شعرت فلك بترددها فعادت لجانبها، تكلمت:

_تعلمين ليس لدي ملابس هنا ولا أغراض، حتى دراستي توقفت عنها، هل بإمكاني أن أثق بكِ؟

_طبعًا.

_حينما رأيتني أقف مع سعيد كنت أريد أن أطلب منه اصطحابي للمنزل منذ الصباح الباكر لأجلب بعض الأشياء، لكنني لم أستطع التحدث أمام الجميع خفت أن أستأذن من السيدة فأتعرض لتحقيق بشأن عائلتي وشأن بعدي عنهم لا أريد لأحد منهن أن يعرف مكاني، أردت الذهاب سرًا.

لمعت عينا فلك وارتاح قلبها لكونها بعيدة كل البعد عن سعيد وأن هذا موقف عابر حدث، أضافت سيلا:
_هل لكِ أن تساعديني في الذهاب؟ سأساعدك بما تشائين أعدكِ.
صفقت فلك بيديها مردفة:
_وأنا أعدكِ أيضًا.
ثم جلبت الكيس الذي وضعته آنفاً فوق السرير قائلة:
_علميني كيف أستخدم الهاتف يا سيلا.
تناهى لمسامعهن صوت السيدة مهجة ترحب بالطبيب فوثبت سيلينا واقفة:
_سأعلّمك مساءً، أريد الآن محادثة الطبيب قبل رحيله تعرفين مدة بقائه قصيرة.
فتحت فلك لها الباب طالبة منها أن تحتفظ بأمر امتلاكها هاتفًا سرّ بينهما ابتسمت لها سيلا علامة موافقتها على صون أسرارهما وخرجت.
*****

خرج الطبيب من غرفة الصغيرة، وكان في طريقه للصعود إلى مكتب السيدة مهجة حينما جاءته سيلا مسرعة

تناديه، أشاح بوجهه عنها ولم يجبها كان يبدو متعبًا وعابس الملامح، سألته:

_ماذا هناك يا دكتور؟ أنت بخير؟

صعد أولى الدرجات بدون التفات، تبعته بسؤال آخر:

_لماذا لا ترد علي ولا تريد رؤيتي بهذه الطريقة؟

قال بنبرة جفاء:

_عائلتك ستعود في منتصف الشهر القادم.

تفاجأت من معرفته بأمر كهذا وهو لا يتواصل مع والديها إلا نادرًا جدًا عند الضرورة، مؤكد بأنه قد عرف من خلال شخص آخر.

_كيف عرفتَ ذلك؟

_من هو أدهم يا سيلينا؟

سرت رعشة في جسدها وانسحبت الدماء من وجهها، قالت بانفعال:

_كلّمت أدهم؟ هل يعرف أنني هنا؟

صمت تمامًا، أضافت:

_أدهم رجلٌ سيئ جدًا!

أشار لها أن تصمت وأخبرها بأنهما سيتحدثان في الأعلى وليس أمام الجميع، وصلا للأعلى كانت السيدة تنتظره

فاستأذن منها أن تتركهما وحدهما لبعض الوقت، دلفا للغرفة وتركا الباب مفتوحًا.

_اجلسي.

قال لها وهو يتجه للكرسي المقابل.

_لا أستطيع الجلوس قبل أن أفهم ما جرى.

_ولا أنا أستطيع.

نظرت إليه مستفهمة، فتابع:

_لا أستطيع فهم ما جرى، ولا أستطيع تصديق ما حدث في ذلك اليوم.

ابتلعت ريقها بصعوبة:

_من.. من أخبرك؟

_أختكِ كاترين.

_كاترين هي السبب في كل شيء، هل أدهم بخير؟

_تقولين عنه رجل سيء ثم تطمئنين عليه؟ عجيبة أنتِ!

قالها بنبرة سخرية، فأوضحت:

_صحيحٌ أنني أكرهه لكنني لم أقصد أذيته، أعماني الخوف والغضب فرميته بصحن زجاجي ذو حواف مزخرفة.

كانت تتحدث وصوتها مختنق مرتجف، نهض مستغربًا:

_لكن كاترين لم تخبرني بهذا!

قاطعته متابعة:

_كاترين كانت تضربني وتسرق أغراضي، وتمنعني من الخروج، إنها تكرهني، اتفقت معه، سر..سرقت مفتاح غرفتي تلك الليلة، كانت تساعده ليتمكن مني، كلاهما خبيث ومؤذٍ.

اكتسى وجهه الأبيض بحمرة الغضب:

_كاترين قالت بأنها قد اكتشفت علاقتك بأدهم فخافت عليكِ وهددتك بإخبار والديكِ فهربتي من المنزل، وأنها أرسلت من يحضرك لأنها تخاف عليكِ.

_كاذبة، ولله إنها لكاذبة.

سألها بلهفة:

_هل استطاع أذيتكِ تلك الليلة؟

مسحت دمعاتها وحركت رأسها نفيًا ثم قالت بصوت مبحوح:

_لا.. كاترين أذنتني نفسيًا وجسديًا واجتماعيًا وبكل أنواع الأذى أما هو فكانت أذيته نفسية فحسب، لقد أنقذني الله منه.

ناولها مُصعب بعض المناديل وعاد للطاولة ليصب لها كأس ماء، قال:

_أنا آسف لأنني صدقتها وأسأت الظن بكِ.

شربت القليل من الماء، أردفت:

_أنتَ لا تعلم كمية الخوف الذي عشته، لقد أتلف القلق والتوتر أعصابي، عانيت قلة النوم والطعام وأقفلت باب غرفتي كي لا أخرج وأراهما، سلبوا قلبي الشعور بالأمان.
ضرب الطاولة بقبضته قائلًا والغضب يملأ فؤاده:
_من هو أدهم هذا حتى يدخل بيتكم بهذه الطريقة؟
_ابن خالي، لقد أوصته أمي بالاهتمام لأمرنا وتلبية احتياجات البيت في غيابهما، حتى والدته تأتي لمنزلنا كل أسبوع لتطمئن علينا ولا تعترف بسوء أفعال ابنها ولا تنهيه عنها رغم معرفتها بها، لدينا مدبرة منزل تأتي يومين في الأسبوع للتنظيف وغيره لكنها طماعة وتقف بصف كاترين لأنها تمنحها مالًا إضافيًا.
لم يعد يستوعب بشكل جيد، سألها:
_لماذا كاترين تساعده، ما شأنها به؟
_إنه صديقها.
_ما دام صديقها هي فما شأنه بكِ.
_إنه يحبني أنا ولذلك هي تكرهني.
صفعته كلماتها صفعة قاسية هل هناك أناس كهذه بالفعل؟ لا يتخيل واقعية هذه القصص المقرفة والمحزنة، استمع لها وهي تخبره بأن أدهم أراد منها محادثته والخروج معه كما تفعل أختها لكنها كانت تتهرب من ذلك وترفض، فقرر هو

وكاترين أذيتها وتلويث سمعتها، هتف والدماء تفور في عروقه:

_رباه! أين والديكِ عن كل هذا؟ علينا إخبارهما لا يمكن الصمت عن أمرٍ كهذا!

قالت بحرقة وهي تتنفس تسحب شهيقًا:

_والدتي على علم بالأمر.

كاد يجن جنونه، كيف هذا؟ كيف تعرف وتبقى مكانها بعيدًا عن ابنتها؟ ضرب جبينه بكفه ودار حول نفسه لا يستطيع الوقوف أو الاستيعاب، سألها:

_كيف تعلم؟ ماذا تعلم عن الأمر؟

_أخبرتها أن أدهم يحاول أذيتي وكاترين تساعده، أخبرتها أنني أحبس نفسي في غرفتي مقفلة إياها وأموت كل ليلة ألف مرة، لكنها قالت بأن علي الصبر وتدبر الأمر بحكمة، وأن والدي سريع الانفعال ولو علم بالأمر سيؤدي ذلك للكثير من المشاكل العائلية، ستفقد العائلة سمعتها، أخبرتني بأن علي أن أكون فتاة عاقلة تدبر أمورها بنفسها حتى عودتهما وألا أتسبب لهما بفضيحة، وقالت بأنها ستتحدث مع كاترين لكن كاترين متلاعبة كذبت عليها واستمر الأمر على ما هو عليه.

صمتت ثم أضافت:

_أنا ممتنة لك لأنك أحضرتني إلى هنا، أنا هنا بأمان وهذا ما يهمني أكثر من أي شيء آخر.
نظرت إليه فكان واجمًا مهمومًا، قالت:
_أنا آسفة لإزعاجك بمشكلاتي دكتور مُصعب.
_وأنا آسف لأنك تعانين وحدك.

*****

لا يزال يذكر تلك الليلة منذ شهرين حينما عاد فجأة للمنزل إذ كان هنا في عمل فقرر زيارة المنزل، وصل في وقت متأخر، وحينما دلف للداخل فوجئ بالدفء ينبعث من غرفة المعيشة رغم تأخر الوقت دخل إليها وتجمد حينما رآها، لا تزال كما هي بنفس الجلسة اللامبالية التي كان يراها عليها نائمة أثناء القراءة وتحتضن كتابًا ما بيديها، أثار انتباهه ذلك الدفتر الصغير الذي معها، فزع لرؤيتها ومزّق قلبه الحنين إليها، لم يعرف أهذا وهم أم حقيقة، إن الأرواح التي تغادر دنيانا لا تعود، هذا محال، لا بدَّ أنه يتخليها لشدة شوقه لها فأخذت صورتها تنعكس في كل ما يراه، اقترب منها لم يجرؤ على لمسها خوفًا من أن تتلاشى، رآها ترفع ناظريها إليه لثوانٍ ثم تغط في النوم مجددًا، انسابت دمعاته وخرج عازمًا على عدم العودة إلى هذا المنزل مرة أخرى.

لكنه لم يستطع ألا يأتي الآن بعد سماعه بأن مريمة مريضة منذ مدة ولم تشفَ بعد، آلمه قلبه عليها، يشعر بأنه أبٌ مهملٌ وقاس القلب لكن ما باليد حيلة، مواجهة الأمر فوق طاقته، يدري بأن هذه الطفلة رزق من الله عليه العناية بها وشكره عليها، يواسي نفسه بأن الأب مهمته جلب الحاجيات فقط، أما مهمة العناية ومنح العاطفة تحتاج امرأة أكثر منه وها هو يدفع لمربيتها لأجل القيام بذلك على أكمل وجه، واجهته أمه العام الفائت بأن عليه الزواج لأن الطفلة بحاجة لعناية مكثفة وحنان يستمر وعائلة حقيقية، فسلمى لن تدوم لها لبقية الحياة، بالإضافة لحاجته هو إلى أنس وسكن، يكفيه تضييعًا لسنوات عمره، ليس في الأمر قلة وفاء لكن الحياة تمضي وهذا الوقوف يجعله سجين الماضي ويقتل شعوره بالحياة، أخبرها بأنه افتقد الحياة حين فقد زوجته وتجاهل حديثها المتكرر كل حين، ثم تهرب منها بالغياب أكثر وأكثر، لا أحد يشعر بالألم سوى صاحبه، من قال أننا نموت فقط عندما تتوقف دقات قلوبنا؟ نحن نموت لفقد أحبة سكنت هذا القلب فنفقد أنفسنا بعد فقدهم وتغادرنا الحياة، في تلك الليلة نامت سلمى مع فلك ونام هو بجوار ابنته.

بعد الفجر دلف للمطبخ ليأخذ كأس ماء، فوجئ بها مجددًا واقفة بفستان نيلي وحجاب أزرق بلون السماء، تتحرك

بهدوء وخفة وهي تعد الفطور، يا أله ما به؟ هل أصابه الجنون فأصبح يراها وكأنها لا تزال هنا؟ أم أن هذه روحها؟ أم هو شبح يتمثل في صورتها ويظهر له كلما كان وحده في هذا المنزل، سنا ماتت الجميع يعرف ذلك ويقر به، ولكن كيف رآها في المرة السابقة وكيف يراها الآن أمامه؟

هذه المرة لم يهرب بل قرر الاقتراب منها، استدارت فجأة وفزعت لرؤية رجل طويل يقف خلفها ويحدّق فيها، وقع صحن الجبن من يديها وتناثرت مكعبات الجبن أرضًا، أغمض عينيه بقوة ظنًا منه أن هذا وهم وسيفتح عيونه فلا يرى أحدًا لكنه حينما فتحهما وجدها منحنية تلملم القطع من الأرض، قالت:

_آسفة لم أكن أقصد لكنني خفت ولم أتوقع اسيقاظكم بعد.

مهلًا هل نطقت؟ إذن هذه حقيقة وليست وهم أو حلم أو خيال.

_هل تحتاج شيئًا يا سيدي؟

نبرتها مختلفة، قالت سيدي، وترتدي حجابًا برغم أنه منزلها، لم يفهم ما الذي يحدث، لم يرد، ماتت الكلمات على أعتاب شفتيه، أربكها وجوده ولم تعد تعرف كيف تتصرف أو تتحرك تحت مراقبته الشديدة لها التي لا تفهم سببها،

مؤكد أنه السيد فارس والد مريم الذي كانوا بانتظاره، تشعر وكأنها رأته مسبقًا وبنفس هذه النظرة التي تطل من عينيه، ولكن أين ومتى؟

_كيف عدتِ؟

لم تفهم ماذا يقصد بهذا السؤال لكنها أجابته:

_لا تزال السيدة نائمة تركتها، وجئت لأجهز لكم طعام الفطور وسأذهب.

لم يفهم لماذا تتحدث بهذه الطريقة الغريبة إليه وكأنهما غريبان، وهل يُسمح للموتى بالعودة لتحضير طعام الفطور ثم الرحيل مجددًا؟ حدّق بها فجأة وكأن كلمة "سأذهب" لمعت وأضاءت في عقله، اقترب منها قائلًا:

_أرجوكِ لا تذهبي مجددًا، لا تتركينا أرجوكِ.

وقعت الملعقة من يدها وارتبكت كثيرًا، دلفت فلك في ذلك الوقت للمطبخ، نظرت لكليهما أحست بأن هناك خطبٌ ما، ألقت تحية الصباح عليهما ثم التفتت لسارة قائلة:

_لم أتوقع مجيئك.

حمدت سارة الله في سرها ألف مرة على مجيء فلك، لم يفهم فارس ما الذي يجري هنا، كان متعبًا جسديًا ونفسيًا وقد أعمته عاطفته عن التفكير بعقلانية، استدار وخرج

بوجه شاحب جعلته الأحزان يبدو أكبر مما هو عليه، أردفت فلك:

_اسمعي يا سارة سأذهب مع سيلينا لشراء خضار طازجة مع سعيد وسنتنزه قليلًا في الحديقة.

_والسيدة مهجة؟

_لقد استأذنتها، شكرًا لأنك جئتِ بالوقت المناسب، وداعًا.

ردت وهمت بالخروج، استوقفتها سارة:

_فلك لا تذهبي.

_السيد فارس لا يُخيف، ولن نتأخر أعدك.

_لا أخاف منه ولكن...

خرجت فلك ولم تدعها تكمل كلامها، كان هناك شعور غريب في قلب سارة يتآكلها ويقضم طمأنينتها بأنيابه، ولم تدري ما سبب هذا الشعور.

أكملت سارة تحضير طاولة الإفطار، دلفت لغرفتها لتأخذ شيئًا ما فوجدت سلمى في سريرها، أسعدها ذلك اقتربت منها وقبّلت جبينها ففتحت عيناها:

_صباح الخير.

_صباح النور يا سلمى، هل تحسنت صحتكِ؟

أجابتها بأنها قد تحسنت قليلًا ونهضت مسرعة لتطمئن على ميمي ولتكون موجودة عند موعد الفطور فالسيدة تكره عدم

الالتزام بالمواعيد، عادت سارة لغرفة المعيشة فوجدت السيدة عبير جالسة مع السيدة مهجة، استغربت من مجيئها واقتربت لتعتذر منها عن خروجها بدون إذنها، فأجابت:

_أحسست بأنك ستكونين هنا فجئت لأتناول الفطور معكم ولأنني أريد رؤية فارس والاطمئنان عليه.

دخلت سلمى حاملة ميمي معها، أخبرتهم أن فارس ليس في غرفة ميمي ولا تدري أين هو، فقالت مهجة أنه عاد لغرفته في الصباح وأمرت سارة بالصعود وطرق باب غرفته لإعلامه بأن موعد الفطور قد حان، صعدت وطرقت الباب بوجل كادت تتحدث من وراء الباب لكنه فُتح وأطل فارس من ورائه:

_ما الأمر؟

تأملها للحظات، وتذكر بأنها خادمة جديدة تعمل في الطهي هنا كما أخبرته أمه، كادت تتكلم لكنه قاطعها:

_ما اسمكِ؟

_سارة، تدعوك السيدة لتناول الطعام.

إن أمه كما هي لا تتغير أبدًا، مواعيدها مقدسة وأيامها مُنظمة وتسير بروتين اعتيادي، وكأنه يوم واحد يتكرر على الدوام ويعزز الشعور بالاكتئاب!

انتفض وكأنها تذكر شيئًا ما:

_قفي عندك هنا.
غاب لبرهة ثم عاد ومعه سلسلة ذهبية تتدلى من طرف يده، قرب كفه إليها سائلًا ببرود:
_ما هذا يا سارة؟
*****
كانت سيلا تتأمل الطريق من شباك السيارة وتستنشق نسمات الصباح النقية بعمق ليتجدد الهواء في رئتيها، أصغت لهديل الحمام الشجي الذي يبعث في النفس سكينة وسلامًا، نزلوا قليلًا لاحتساء الحليب في الحديقة، ألقت الشمس تحية الصباح عليها بضوئها وقبّلت وجنتيها بشعاعها الدافئ، أمسكت بكف فلك بين كفيها:
_شكرًا لكِ من كل قلبي.
_على الرحب يا سيلا، أخبريني لماذا اخترت الصباح الباكر؟
_هناك شخصية في المنزل لديها محاضرة ثابتة في هذه الساعة، إنه الوقت الأفضل لدخولي البيت.
أقبل سعيد وأعطى كلًا منهما كأسًا ورقيًا يحتوي حليبًا ساخنًا وعلى وجهه رشة قرفة زكية الرائحة، أخبرهما أنه سيذهب لإحضار الخضار ليتما يتنزها قليلًا وانصرف.
*****

اتسعت عيناها دهشة عند رؤية السلسلة بيده، راحت تلتمس شيئًا ما في عنقها تحاول العثور عليه فلم تجده، هتفت:

_إنه لي! انظر إليه عليه اسمي.

بنبرة حادة سألها:

_ما الذي يفعله عقدكِ هذا في غرفتي؟

_لا أدري، ربما سقط مني حينما ساعدت السيدة في حزم حقيبة ملابسك الشتائية يا سيدي.

هل دخولها أثار غضبه؟ أضافت:

_ لم أدخلها سوى مرة واحدة.

دلف للداخل ثانية وعاد بسلسلة أخرى طبق الأصل عن الأولى ذات السلاسل الناعمة المتداخلة، ذات القفل والزهرة الصغيرة التي تزين طرف الاسم من ناحية اليمين حتى الاسمين متشابهين تمامًا والفرق بينهما حرف واحد فقط، الأول "Sara" والآخر "Sana".

_ما هذا؟

لم تكن تفهم عمَّ يسأل أو ما الذي يريد سماعه منها، إنها المرة الأولى التي ترى فيها العقد الذي يشبه عقدها، أعاد سؤاله بلهجة استنكار وغضب، تمتمت ببلاهة:

_لا أدري.

_تشابه العقدين ليس صدفة يا سارة، شبهك بـ سنا لا يمكن أن يكون صدفة كذلك، وقوع عقدك وعملك عندنا هل هذا صدفة أيضًا؟

_آسفة يا سيدي لا أفهم عمن تتحدث ولا علاقة لي به، أعد إلي عقدي من فضلك علي الانصراف.

_من أنتِ وما الذي جاء بك إلى هنا؟

_قلتُ ما لدي.

انصرفت سارة بقلب مضطرب وملامح يعلوها الانزعاج الشديد، تفكر في غرابة حديثه إليها وطريقته غير اللبقة معها، يا ترى متى سيعيد إليها ذلك عقدها الثمين العزيز على قلبها؟

*****

بعد قليل كانت فلك وسعيد في السيارة تحت المنزل على الرصيف المقابل لمدخل البناية، كان الشارع راقيًا والمباني في تلك المنطقة فاخرة وكذلك السيارات المصفوفة، ظهرت سيلينا خارجة من المدخل معها حقيبة ظهر كبيرة، اقترب منها رجل طويل القامة نحيل الكتفين ببنطال ضيق رمادي اللون وجاكيت جلد بلون خمري، بدا لهما وكأنه غريب سيسأل عن شيء ما، أو أنه أحد سكان المبنى، لكن سيلا

حينما رأته عادت خطوتين للوراء واضعة كفها فوق فمها، سارعت فلك للنزول لكن سعيد نهاها عن ذلك مخبرًا إياها أنها ربما تكون مشكلة عائلية عليهما ألا يتدخلا فيها، عاندته بعصبية وكادت تنزل فقال مجددًا:

_تمهلي أرجوكِ، هؤلاء أناس لا يمكننا مواجهتهم.

تمهلت وعادت لجلستها تراقبهما من مكانها، كان يقترب منها ببطء وهي تعود بخطواتها للوراء بخوف، فستانها طويل واسع، وحقيبتها ثقيلة لن تستطيع الركض أو الهرب، قال أدهم بتهكم:

_أحسبتِ أنكِ ستُفلتين يا حُلوة؟ ستدفعين ثمن اخطائكِ غاليًا!

صمت ثم أضاف:

_كنت أعرف أنه لا بد من عودتك إلى هنا وإن كان خفية، رجالي يراقبون البيت منذ هروبكِ حتى الآن، أمرتهم بالانصراف وجئت للقبض عليكِ بنفسي.

صمت ثم اقترب خطوة أخرى مردفًا:

_ها قد أتيتِ بقدميكِ، كنت أترقب حضوركِ كل يوم.

لم تعد فلك تستطيع الصبر أكثر ولم تعد تجدي محاولات سعيد في ثنيها عن النزول، أضاءت في ذهنها كلماتٌ قالتها نور فلم تنساها:

_لستُ خائفة يا سعيد، لكنني أخاف من أن أكون في موقف يستدعي مني فعل ولا أفعله، يتطلب كلمة ستغير الكثير إن قلتها فلا أقولها، أخاف من استطاعتي في رفع الظلم عن مظلوم بريء فأصمت لأساهم في ظلمه أنا أيضًا، أكره أن أكون قبيحة في مرآة قلبي!

قالتها بثقة ثم فتحت الباب ونزلت، تذكر سعيد أخيرًا أين رأى سيلينا لقد استوقفه بعض الرجال أكثر من مرة وسألوه عنها وهم يشيرون إلى صورة ما لها معهم، نزل سعيد بسرعة، شعر أدهم باقتراب أحد ما، فاقترب ممكسًا بمعصمها بقوة جارًا إياها لمدخل المبنى، صرخ سعيد:

_قف عندك!

دفعها للداخل ووقف أمام الباب، صرخت فلك:

_أرجوك افعل شيئًا لأجلها يا سعيد.

نقّل أدهم نظره بين سعيد وفلك، تأملها لبرهة:

_ فلك؟

استدار سعيد إليها:

_من هذا يا فلك؟

_لا أعرفه.

قال أدهم:

_عجيبٌ أن عمكِ لم يقتلك يا فلك! صحيح أن القطة بسبع أرواح كما يقال!

استفزتها كلماته كثيرًا، باغته سعيد بلكمة قوية فوق وجهه لكنه تفاداها سريعًا وردها إليه، نشأ بينهما شجار عنيف جعله يبتعد عن مدخل المبنى فسارعت سيلا للخروج وركضت مع فلك للسيارة، كظم أدهم غيظه عند رؤيتها تفر هاربة، لا بأس لن يتسبب في فضيحة للعائلة هنا خاصة أن الحركة بدأت تدب في الشوارع، تلقى ضربة قوية بقبضة سعيد فوق صدره بينما هو يراقب هروبها، سارع سعيد للسيارة بعد تسديده لتلك الضربة وبدا أدهم غير مهتم لهذا النزال السخيف في نظره، سيعيدها إليه حتمًا ولكن حينما تخرج من هذه المنطقة، سيلقنها هي وهؤلاء الأوباش الذين معها درسًا لا يُنسَ، عاد لسيارته وأسرع وراءهم.

هتفت فلك:

_الحمد لله أننا نجونا.

_لو عرفت أن هناك مشكلة كهذه ستواجهنا لما صحبتكما في هذا المشوار أبدًا.

تمتمت سيلا:

_أنا آسفة جدًا لم أتوقع وجوده أو اللقاء به، المؤسف أنني أعرفه جيدًا لن يدعنا نذهب عن طيب خاطر أنا خائفة جدًا.

أجابها سعيد بسخرية:
_لا تخافي الأمر بسيط جدًا، إنه فقط يسير وراءنا تمامًا!
صمت ثم أضاف:
_ما أسوأ ما قد يحدث؟ نموت؟ لا يموت الناس الا بانتهاء آجالهم، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا فلا تخافا.
صاحت فلك بغيظ وانفعال:
_يا إلهي يا إلهي، أتمنى أن أقطعه إربًا بيدي هاتين.
سألها سعيد بغيرة:
_من أين له أن يعرفك يا فلك؟
_لا تنظر إلي بهذه الطريقة يا سعيد، إنه رجل أحمق سبب لي المشاكل منذ زمن بعيد، أتمنى لو أننا الآن نركب شاحنة حتى نعود بها للوراء وندعسه.
كان سعيد قد غيّر الطريق حتى لا يتبعهم للمنزل لكنه وصل لطريق سفر كان الشارع واسعًا، وكبيرًا وفارغًا وصار الإفلات منه أشد صعوبة، ظهرت أمامهم شاحنة كبيرة بشكل مفاجئ لم يعد باستطاعة سعيد فعل أي شيء للهروب منها صاح قائلًا:
_أرأيت ها هي أحلامك تتحققت يا فلك لكن الشاحنة ستدعسنا نحن.
أغمضوا عيونهم بقوة وحدث الاصطدام بطرفة عين.

*****

لاحظت مهجة أن سارة عادت بغير الوجه الذي ذهبت به لإيقاظ فارس، لكنها صمتت وأجلت الحوار معها لوقت آخر، عادت سارة لغرفتها واعتذرت عن مشاركتهم في تناول الطعام، فهي ليست منزعجة فحسب بل تشعر وكأن وحش القلق يجثم فوق صدرها ويجعلها بالكاد تتنفس، أرادت أن تفعل شيئًا ما يخفف عنها ثقل ما تشعر به فلم تجد سوى القراءة، أخرجت الدفتر الصغير من مخبئه وارتمت فوق السرير تلتهم سطوره بنهم:

"مرحبًا يا دفتر.

أتوق للثرثرة عن كل التفاصيل، أتعلم كنت متحمسة جدًا لهذا اليوم أتنظره، وأترقب مجيئه لدرجة أنني لم أستطع النوم كما يجب واستيقظت باكرًا، إن الحفلة ستقام في منزلنا، جاءت قريباتي منذ يومين وبدأنا بالتزيين والتسنيق، اخترنا بالونات ذهبية وبيضاء تتناسب مع لون الستائر والأثاث، وشرائط زينة وردية تتناسب مع الأزهار الجورية التي طلبناها لنحضرها غدًا، حتى أنواع الحلوى والضيافة اخترتها بعناية ونسقت ألوانها بين الذهبي والأبيض والوردي، ولقد أوصيت إحدى الفتيات لتطرز لي طارة تحتوي اسمي واسمه والتاريخ اللطيف الذي جمعنا معًا،

عليّ الآن الاستحمام وترتيب غرفتي قبل مجيء مصففة الشعر، فتحت خزانتي وأخرجت الفستان بعناية تأملته ودقات قلبي تتراقص، كان بلون زهر اللافندر، يتكون من طبقتين من القماش الأولى قماش حريري من النوع الممتاز يعلوها طبقة شيفون واسعة عند الأكمام وتضيق من أسفلها حول معصم اليد، مطرز بالكريستال والألماس الناعم على شكل أزهار صغيرة مع بتلاتها الطويلة التي تمتد بشكل أنيق فوق الكتف الأيسر من الأعلى حتى منطقة الحزام وأسفل منه بقليل بشكل أقل، وعند نهاية الأكمام، وضعته فوق السرير ونزلت للأسفل لأحتسي قهوتي، كان المنزل هادئًا جدًا ظننت أن أمي لم تستيقظ بعد لكن كان هناك صوت همهات خافتة في غرفة المعيشة ليس من عادة والداي التحدث هكذا، اقتربت من الباب فوجدت أمي واقفة قبالة رجل خمسيني، نحيل، معظم خصلاته يكسوها البياض، تناهى لمسامعي قوله: "صدقيني ستكون فضيحة لا تُنس في الاحتفال!".

لقد تسمرت مكاني، جزءٌ في داخلي يناشدني للمضي وعدم الاستماع لكي أبقى بروح فرحة ومرحة ولا أُفسد حفلتي إن سمعت ما لا يروق لي الآن، وجزء آخر مني يريد سماع ما سيقوله الرجل حتى لا يبقى فكري مشغولًا فيما سيحدث

ويُفسد لي الحفلة، مشيت بالاتجاه المعاكس وعزمت على عدم التنصت لحوارهما، لكنني لم أستطع وعدت مجددًا للاختباء خلف الباب، أردت الاستماع لأخمد نار القلق التي بدأت تشب في داخلي، إنه صوت أمي رجوت أن أسمعها تردعه او يكون الموضوع بسيطًا ولا يستحق قلقي، قالت:
"ومن هذا الذي سيصدقك؟"

"معي أدلة على صدقي، زوجتي شاهدة ولا تنسي أن التوءم الثاني معي"

صرخت أمي بارتباك:
"إنها ابنتي أنا، ألا تملك ضميرًا أيها الرجل ألم توافق على إعطائي إياها لماذا تأتي مطالبًا بها كلما ساءت أوضاعك؟ أنت لا تريدها أنت تريد المال يا منعدم الضمير!"

"لقد بعتُ ضميري منذ اللحظة التي وافقت فيها على إعطائك إحدى ابنتي، لقد احتملت دموع زوجتي كل ليلة، احتملت نظرتها الحزينة المعاتبة وصمتها الطويل، لقد كرهت نفسي، لم يعد لدي ما أخسره أكثر مما خسرت، الحياة صعبة وأنا مجرد فلاح بسيط هدته الظروف"

لم أكن أصدق أيًّا مما أسمع يا دفتر لقد تخدر شعوري من الصدمة، لم تعد قدماي قادرة على حملي، تحاملت على نفسي حتى لا أقع، كنت أنتظر من أمي أن تنفي ذلك لكنها سألته عن المبلغ الذي يحتاجه مقابل سكوته تمامًا عن الأمر، سمعت الرجل يطلب مبلغًا كبيرًا، لقد أعطته أمي اثنتين من أساورها الذهبية وطلبت منه برجاء أن يرحل ويختفي ولا يعود أبدًا، أعطته فوق ما أراد، طلب منها الاعتناء بي ومنحي الحب والتأكد من أخلاق الرجل الذي سيتزوجني ورحل، انهارت أمي تمامًا بعد ذهابه وبدأت تنشج وتبكي، حينها تأكدت بأنها الحقيقة بالفعل!

شعرتُ وكأن هناك من سكب برميلًا من المياه الباردة فوقي ارتعش جسدي غاب قلبي وفكري لثوانٍ ثم وجدت نفسي غارقة بمعرفتي لحقيقة مُرة غابت عني لسنين، سرت للمطبخ احتسيت مرارة الخيبة مع مرارة القهوة ثم نهضت إلى الحمام، لا أذكر كم بقيت في الداخل، كنت جالسة أبكي تحت دوش الماء كل تلك المدة، اعتصر قلبي وجف لكثرة ما ذرفت من الدموع، كانت دموعًا صامتة، حارة، آه لو بإمكاني إخراج ذاكرتي لأغسل منها آخر خبر سمعته وأمحو أثره، لو بإمكاني أن أعود بالزمن بضعة خطوات

فقط لأمشي لحظة سماعي لتلك الهمهمات متجاهلة إياها، وآه من حسرة لو!

نظرت لنفسي في المرآة فانعكست لي ملامح باكية، وهل تبكي الملامح؟

عيونٌ يحاوطها احمرار، تحسست وجهي بكفي كان ساخنًا لا أدري أهي حرارة الماء أم المشاعر؟ سحبت عدة أنفاس متتابعة لأمنع نفسي من العودة للبكاء، شعرت بصداع يمتد من جبهتي لمنتصف رأسي، راودتني رغبة عارمة بالهرب من المنزل، لكنني قررت الهرب من الحقيقة بعد تفكير دام لدقائق همستُ لنفسي:

"هل تصدقين لحظةً واحدة وتُكذبين عمرًا عشتيه يا سنا؟"

أضاء هاتفي وإذ برسالته ترسم ابتسامتي رغمًا عني، على الأقل سأحاول أن أكون بخير لأجله هو، وداعًا الآن يا دفتر وصلت المصففة".

أغلقت سارة الدفتر بذهول وهتفت:

_يوم احتراق الأرض!

*****

فتحت عينيها ببطء لا ترى سوى سقفًا أبيضًا، حاولت التحرك للنهوض أو الجلوس فشعرت بألمٍ في ظهرها استدارت برأسها للناحية الأخرى فوجدت محلولًا معلقًا في يسراها، عادت الذاكرة للوراء لوقت الحادث، طافت التساؤلات في عقلها أين سيلا وسعيد يا ترى؟ هل هما بخير؟ ما الذي جرى لأدهم ومن أسعفهم؟ أغلقت عينيها وتمنت أن تُغلق صنبور التفكير الذي ينهمر في عقلها بدون توقف، دخلت إحدى الممرضات ابتسمت لرؤيتها مستيقظة:

_حمدًا لله على سلامتكِ، هل تشعرين بأي ألم؟

ردت فلك:

_كم الساعة، من جاء بي إلى هنا؟ أين الشاب والفتاة وكيف حالهما؟

_لديكِ بعض الرضوض والجروح في أماكن مختلفة، والشاب يعاني من جرح في رأسه وهناك رضوض كثيرة في جسده.

_والفتاة؟

_أي فتاة؟

تساءلت الممرضة فردت فلك:

_كانت معنا أثناء الحادث وأظن أنها أُسعفت معنا.

_يا آنستي لم يكن هناك سواك أنت والشاب.

قالت الممرضة الأخرى التي دخلت منذ قليل:
_نعم صحيح، والذي أحضركم إلى هنا كان رجلًا أربعينيًا قوي البنية وبدين.
_نعم ولقد دفع كافة التكاليف بنفسه.
فكرت في سيلينا في نفسها: "مؤكدٌ أنه ليس أدهم، ولكن أين سيلينا؟"
*****
دلفت مهجة المطبخ وشعاع الغضب ينطلق من عينيها، هدرت:
_ألم تعودا بعد؟
استدارت سارة تومئ برأسها نافية، بدت وكأنها ليست على ما يرام، كانت واجمة وهي التي لطالما أدهشت الجميع بإيجابيتها وابتسامتها التي تزين ثغرها في كل حال.
_ذهبا من الصباح شارفت الظهيرة على الانتهاء، هاتف سعيد مغلق تمامًا، أنا قلقة جدًا سأتصل بوالده لعله يعرف شيئًا.
كادت تخرج ثم عادت بضع خطوات للداخل:
_ما بكِ يا سارة؟
_لا شيء يا سيدتي.

لا تكره السيدة شيئًا بمقدار كرهها لكلمة "لا شيء"، تُغضبها هذه الكلمة وتستفزها، "لا شيء" تعني أن لا شيء على ما يرام، ولا شيء لدي لأخبرك به، تعرف بأن جميع الفتيات يوارين كل شيء خلف كلمة "لا شيء"!

هي امرأة تحب الوضوح، تجيب الاسئلة بأجوبة تناسبها، تبوح بشعورها وأفكارها إن وجدت من يسألها باهتمام، أما فتيات هذا الجيل لا يجدن سوى الكتمان والاستمرار في النكد والدراما!

سألتها سارة بدون أن ترفع ناظريها إليها:

_متى بإمكاني الذهاب للبيت؟

_لا يزال هناك وقت للعطلة الشهرية يا سارة، إضافة إلى أن السيدة عبير تحتاجك.

_لا أريد العودة معها.

قالتها بعناد الأطفال، فردت:

_أكملي عملك يا سارة.

أسكتتها السيدة وخرجت مسرعة، لا تدري ما الذي يحدث في الآونة الأخيرة لهؤلاء الفتيات!

*****

_هناك من يود رؤيتك يا آنسة.

استدارت فلك للجهة اليمنى فاتحة عينيها بوهن رأت السيدة مهجة مقبلة نحوها، قالت بلهفة حقيقية وهي تمرر يدها فوق رأس فلك ووجهها:

_أنت بخير؟ هل هناك ما يؤلمك يا ابنتي؟

ردت بابتسامة واهنة:

_بخير

_الحمد لله، أين سيلينا يا فلك؟

_لا أدري.

قبّلت السيدة رأسها وخرجت لترى سعيد وتفهم منه ما جرى، لم ترد إتعاب فلك أكثر واضح أنها متعبة، كانت فلك سعيدة لمجيء السيدة ولهفتها الدافئة، ودت لو بقت لجوارها مدة أطول، تحب تلقي الحنان والاهتمام وأن تُعامل وكأنها طفلة، ودت كثيرًا لو كان لديها أمًّا كالجميع!

*****

خرج فارس بصحبة السيدة عبير، سارة وسلمى تجلسان جنبًا لجنب وتحيكان الصوف، كسرت سلمى الصمت مردفة:

_أنت صامتة وشاردة بشكل مريب، ما بكِ؟

_ربما متعبة.

مهما كان الإنسان رائعًا وبسّامًا ستأتي عليه أيام تجعله واجمًا، منطفئًا نحن بحاجة لإظهار ضعفنا مهما بدونا أقوياء وبشوشين، لأن إخفاء التعب متعب أكثر منه، وإخفاء الحزن محزن أكثر منه.

ثم سألت:

_سلمى هل تعرفين السيدة سنا زوجة السيد فارس؟

_لا، فلك فقط من تعرفها لأنها تعمل هنا منذ وقت طويل، أنا جئت بعد وفاتها من أجل الاعتناء بميمي، غفر الله لها ورحمها برحمته الواسعة.

أرادت سلمى أن تبدد الصمت وتخلق جوًا من الأنس والثرثرة:

_بماذا تشعرين حينما تحيكين يا سارة؟

_أشعر بأن حياتنا تشبه هذه القطعة التي نحيكها، كل غرزة تؤدي إلى التي بعدها، لذلك كل الغرز مهمة وكل خطوات حياتنا كذلك مهمة وستوصلنا في النهاية لشيء لم نكن نتوقعه في البداية، ربما توقعناه وجاء وفقًا لتوقعاتنا، ولكن قد ينتهي بشكل جديد وغريب ومختلف، لذلك حتى المنعطفات أو الأخطاء ستؤدي لشيء ما ذا معنى وأثر في حياتنا، لا شيء يحدث عن عبث سبحان الله!

نال كلامها استحسان سلمى وأُعجبت به أيما إعجاب.

_سلمى.
_عيناها، نعم؟
_ماذا لو وصلنا للنهاية ثم اكتشفنا أن هناك حلقة مفقودة في القطعة التي نحيكها، ماذا علينا أن نفعل؟
كانت سلمى فتاةً لماحة فطنة لقد فهمت أن سارة تقصد بعدًا آخر لهذا السؤال ولا تقصده حرفيًا خاصةً بعد كلامها عن التشابه بين غرزات الحياكة ومواقف الحياة، أجابت بنبرة حانية:
_قد لا نستطيع العودة للوراء لإصلاح الأمر بشكل مثالي يا سارة، لذلك بإمكاننا تقبل هذه الغلطة التي حدثت وإصلاحها بطريقة مختلفة، كأن نُخيطها ونُغلقها لكي لا تُفلت أكثر فتفسد المزيد من الغرزات، ثم بإمكاننا إلصاق وردة أو شريطة ملونة أو أي قطعة زينة لإخفاء مكانها، وكذلك علينا أن نفعل مع أخطائنا الشخصية، أن نعترف بها ونتقبلها، ثم نسعى لإصلاحها بحكمة وتأني ونزينها بجعلها علامة فارقة في تغييرنا للأفضل.
ربما لا ينطبق كلامها تمامًا عما تعانيه سارة، سألت:
_وماذا لو تجاهلنا تلك القطعة المفقودة وكأننا لم نرها؟

_الهروب ليس حلًا يا سارة، كما أخبرتك قبل قليل الحلقة المفقودة وحدها في الوسط ربما تكبر وتُفسد ما حولها، والأهم أنها لن تغيب عن بالك مهما حاولتِ تجاهلها.
سكتت ثم أضافت:
_ لا أدري ما الذي تفكرين فيه يا سارة، ولكنني أعرفكِ فتاةً شجاعة فلا تتخلي عن شجاعتك.
طرقات عنيفة مزعجة على الباب جعلتهما تفزعان، رفعت كل منهما شالها ولفته حول رأسها وركضتا معًا لفتح الباب، وجدا رجلًا طويلًا يقف في المقدمة ووراءه العديد من الرجال الذين يتسمون بالضخامة ويرتدون ملابسًا سوداء، سألت سلمى:
_من أنتم وماذا تريدون؟
صاح الذي يبدو وكأنه قائدهم:
_أين تخفونها؟
_لا نخفي أحدًا هنا، عمن تبحثون؟
هتف بعصبية:
_إما أن تخرجونها أو أننا سندخل بالقوة.
أردفت سلمى باتزان:
_إنني صادقة، بإمكان شخص واحد منكم الدخول للتأكد والتفتيش بطريقة هادئة إن أردت.

تقدم وعيونه تقدح شررًا معلنًا موافقته لكلامها، نظرت إليه سارة باضطراب كانت خائفة ولا تريد دخول أحدٍ منهم، لكن سلمى كانت واثقة وهادئة لأنها صادقة والعناد والتصادم معهم سيجعل الأمر أصعب، وقد يدخلون بالقوة ويكذبون صدقهما ويعيثوا الفوضى في أنحاء المنزل، دخل خالي الوفاض وخرج كذلك وقد تزايد غضبه.

*****

كانت فلك وحدها في الغرفة حينما دخل أدهم غاضبًا ومعه رجلان من خلفه والممرضة تركض وراءه وتأمره بالتزام الهدوء ومراعاة حال المرضى، صرخ غاضبًا وهو يضرب الحائط الذي فوق سرير فلك:

_أين أخفيتموها؟ اعترفي أين هي الآن يا فلك.

ما إن رأته فلك حتى تحاملت على نفسها للجلوس وبادلته الصياح بمثله:

_ أنت الذي عليه أن يعترف يا عديم الضمير، أين أخذتها؟ لن أسامحك لو تسببت بأذيتها، والله لن أسامحك لقد آذيتني مرة ولن أسمح لك أن تؤذيني فيها مرة أخرى.

جاءت السيدة مهجة مسرعة معها ابنها الذي جاء منذ قليل لاصطحابها، وقف فارس قبالة أدهم مردفًا بحزم:

_خذ رجالك وانصرف سريعًا، أولًا: هذا مستسفى، وثانيًا: لا أحد يتصرف بهذه الطريقة مع آل السيد فاحترم نفسك.
_وإن لم أخرج؟
قال أدهم باستفزاز فردّ فارس ببرود:
_الأمر بسيط ستأتي الشرطة لترميك وإياهم خارجًا!
_على أي حال فتشت منزلكم ولم أجدها، يبدو بأنها هربت لوحدها سأعثر عليها بنفسي.
استدار خارجًا وتبعه من معه، بدأت مهجة تغلي كغليان الزيت فوق النار عند ذكره لتفتيش منزلها، كانت ساخطة أشد السخط على تلك الفتاة التي تدعى سيلينا، أما فلك فقد كانت خائفة عليها كثيرًا وترجو كونها بخير وأمان حيث هي الآن.
*****
جلست سارة في المقعد الخلفي وحدها بصحبة مهجة في سيارة فارس، كانت تراقب الأمطار التي تنهمر بغزارة، لقد فهمت سبب شعورها بالقلق منذ الصباح لطالما كانت أحاسيسها في مكانها، وكأنها تمتلك حاسة سادسة تستشعر فيها حدوث الأشياء السيئة قبل حدوثها، أخبرتها السيدة بأن سيارة سعيد تعرضت لحادث وفلك في المستشفى ولا يمكن إخراجها قبل الغد، وافقت على مضض صحيح أنها تحب

فلك لكنها لا تحب النوم في مكان لا تعرفه، على الأقل في المستشفى وبجانب فلك أفضل من العودة مع السيدة عبير لمنزلها، عندما وصلوا همت بالنزول مع السيدة مهجة شعرت بنظرات فارس ترصد تحركاتها فتجاهلته تمامًا ولم تحاول رفع ناظريها إليه، حاولت ضبط منسوب التوتر الذي يجري في دمائها، كانت الشوارع فائضة بماء المطر نزلت ومشت بخطوات حذرة جدًا كي لا تدخل المياه لحذائها، صفعت الريح خديها ببرودتها القارسة قبل الدخول للمستشفى، حينما وصلتا لغرفة فلك ركضت إليها وضمتها بقوة وحنان، هناك شيء ما سحري في العناق يجعلنا نرتاح ونتخفف من ثقل الشعور، وكأن الهموم التي في قلوبنا تشبه الغيوم السوداء وعندما نتعانق تصطدم ببعضها وتتساقط كما المطر.

طال عناقهما لم تستطع سارة التحكم بدموعها، تمتمت:

_حمدًا لله على سلامتك كنت خائفة عليكِ.

رفعت فلك عيناها لسارة مردفة:

_سارة أنا خائفة على سيلينا.

_لنستودعها الله وندعو لها ليحفظها ويعيدها إلينا سالمة.

شعرت فلك بانكسار في نفسها تريد أن تدعو الله ولكنها غابت عن الدعاء لمدة طويلة جدًا، بأي وجه سترفع كفيها

للسماء وتدعو الله، بأي قلب سترجوه وميزانها خالٍ مما يرضيه؟

_من ذلك الرجل يا فلك؟ وما قصة سيلينا؟

قطع شرودها سؤال السيدة فالتفتت إليها مردفة بعينين متعبتين:

_سأخبركِ.

قالت سارة وهي تتجه للكرسي وتفتح الكيس الذي أحضرته معها:

_لقد حضرّت لكِ حساءً لذيذًا وسأطعمك بيدي، ستتحدثان بعد الطعام.

*****

كانت تركض لاهثة في شارع طويلٍ ومُظلم خالٍ من المارة، تشعر بسائل دافئ يتدفق في طرف وجهها الأيمن ومعصميها، وألم فظيع ينخر رأسها، توقفت تلتقط أنفاسها لبرهة من الزمن تحت إحدى منارات الشارع، تبينت الكثير من بقع الدماء الحمراء تُغطي فستانها الأبيض المتهالك، الممزق الأطراف ، كانت تشتم رائحة خشب يحترق ولا ترى أي مصدر للنار حولها، حتى الذين كانوا يطاردونها اختفوا فجأة ولم تعد تراهم، دفات قلبها قوية متراكضة

تشعر بها في حنجرتها، وكأن قلبها سيخرج من فمها لشدة الخوف، نقّلت نظرها بفزع نحو كل الاتجاهات فلم ترَ سوى طبقات متتالية من الظلام تتزايد كلما نظرت لنقطة أبعد، حتى السماء كانت منطفئة لا قمر فيها ولا نجوم، حاولت سحب أنفاسها ببطء لتعبئ رئتيها المتعبتين من كثرة الركض، تراجعت بضع خطوات للوراء دون أن تلتفت لتستند بظهرها الى عمود الإنارة وتراقب كل شيء بعينيها ليتما تستريح قليلًا لكنها اصطدمت بجسد أحد ما، استدارت فالتقت عيناها بعيني أدهم ينظر إليها بنظرات لئيمة، قاسية، مُتشفية، أحكم قبضته حولها فأخذت تصرخ وتصرخ لكن صوتها قابلها بالخذلان ولم يخرج، وكأن حبالها الصوتية أصيبت بالشلل فخرجت الصرخات مهزومة بلا أي صوت ولا صدى!

أظلمت الدنيا فجأة وتسللت لأنفها مجددًا رائحة أحطاب أو حريق لا تدري رائحة ماذا هذه وما مصدرها، لكنها هذه المرة مصحوبة برائحة ماء ورد قوية، أحست بقماشة باردة فوق جبهتها، تناهى إلى مسامعها صوت امرأة تقرأ المعوذات بصوت أقرب للهمس، فتحت عينيها بصعوبة، تشعر بالألم في كل جسدها، وجدت أمامها امرأة في

الستينات من عمرها انتبهت لاستيقاظها أخذت تحمد الله ثم سألتها:

_ما بكِ يا بنتي؟ كان كابوسًا صحيح؟ كنت تبكين وتأنين منذ ساعة للآن، حرارتك مرتفعة جدًا وجبينك يتفصد عرقًا، كادت تنهض فداخت وغزاها الشعور بالصداع، وكأن الألم يجتاح رأسها كمسمار كبير غُرز في صدغها.

كانت تشعر وكأن كل عظمة في جسدها تتكئ على الأخرى بوهن، كما لو أنها خرجت من معركة لتوها، هل كان كابوسًا بالفعل أم حقيقة تتذكرها وتتردد في أحلامها بعدما فقدت وعيها وأنقذها أحد ما في ذلك الوقت؟

_أي.. أين.. أ.. أنا؟

سألت بصوت متقطع مغمور بالتعب.

_اطمئني أنتِ بأمان.

غابت العجوز الأنيقة عن نظرها لبعض الوقت ثم عادت ببسمة دافئة:

_كنت خائفة عليكِ فنسيتُ الطعام على الموقد فاحترق، لكنني أُعد لكِ حساء سريعاً عليك تناوله حتى تستطيعين شرب الدواء.

سحبت القماشة وبللتها ثانية بالماء البارد وأعادتها فوق جبهتها:

_منذ البارحة وأنتِ نائمة، لقد أنهكت روحكِ الكوابيس يا صغيرتي.
رغم تأكدها بأن هذه ليست أمها بل تبدو أكبر سنًا، لكنها سألت بضياع وبصوت خافت:
_أنت ماما؟ ماما هل جئتِ من أجلي؟
طالعتها العجوز بنظرات حزينة مشفقة، فُتح باب الغرفة وسمعت صوت خطوات تتقدم.
_هل انخفضت حرارتها يا أمي؟
يبدو الصوت مألوفًا لكنها لا تقوى على النهوض لتعرف من صاحب الصوت.
_لا يا بني، لكنها استيقظت منذ قليل أخيرًا.
اقترب منها بابتسامة مواساة ربما قد اعتاد عليها أثناء معالجته للمرضى، وضع حقيبته جانبًا وعدّل من وضع نظارته ثم أخرج مقياس الحرارة ليقيس حرارتها، لا تدري كيف استطاع إنقاذها والإتيان بها إلى هنا، تدحرجت الدمعات من عينيها تباعًا.
_أنت بخير؟
ابتسمت شاكرة إياه، ثم سألته:
_كيف..أحضرتني... إلى.. هنا، أين.. نحن؟
_عليكِ الارتياح لتستردي عافيتك بشكل أسرع يا سيلا.

*****

ذهبت مهجة لمنزلها بعد سماعها ومعرفتها بقصة سيلينا وأدهم من فلك، جلست سارة على طرف السرير تجدّل شعر فلك.

_فلك أما آن لكِ أن تعودي؟

_إلى أين؟

_إلى الله، أطال الله في عمركِ ولكن أما رأيتِ كيف يأتي المصاب على حين غرة، وكذلك الأجل إذا جاء لا يؤخر يا فلك، أخاف عليكِ.

_هل بإمكاننا تأجيل هذا الحديث يا سارة.

_حسنًا.

_سارة ألم تقولي لي في بداية صداقتنا أنكِ تريدين معرفة قصتي قبل أن أصبح مدبرة منزلية، هل ترغبين في سماعها؟

_طبعًا، سأنصت بحب.

ردت وهي تجلس لجانبها وتسحب الغطاء فوقهما، أردفت فلك وهي تنظر للجدار بعمق وكأنها تشاهد شريط الماضي يمر أمامها:

_كنتُ في الرابعة عشرة من عمري حينما توفي أبي، حينها كنت في الثالثة إعدادي ومُقبلة على امتحانات تعرفين أنها

مرحلة مهمة عندنا وعليها شهادة فارقة في سنين الدراسة التي تليها، كانت حالتنا المادية ضعيفة جدًا تمر علينا أيامًا ننام فيها بدون طعام، كنتُ أواجه الأيام بالدعاء والبكاء فحسب، أمي كانت منطفئة تمامًا آلمني عجزي أمام حزنها وقلة حيلتها وذلك ما عزز في انطفائي معها، تراجع مستواي الدراسي كثيرًا بعدما كنت فتاة مجتهدة، نشيطة، كنت فتاة بأحلام وردية.

بلعت ريقها وتابعت:

_جاء جدي ذات ليلة أمر أمي بجمع أغراضها، هرعت حينها لأساعدها في جمع أغراضي عدتُ لجدي قبل دخولي للغرفة سألته عن أمور دراستي وماذا سيحدث لمدرستي، أجابني حينها دون النظر إلي أن عمي بمثابة أبي وهو من سيأخذني ليربيني وهو من سيقرر أمر دراستي، نظرت إليه ببلاهة حينها كأنني لم أفهم، فأوضح لي أنه جاء لأخذ أمي فقط، تركته ودخلت غرفة أمي وأنا على وشك البكاء لكنها أخبرتني أن الأمور فوق إرادتها ومضطرة لتركي لأن جدي سيزوجها لشخص ما يعرفه.

نظرت فلك لسارة مردفة:

_هل يرحل الآباء هكذا ويتركون كل شيء وراءهم؟ هل تفعل الأمهات هكذا وتتخلين عن بناتهن؟ أفهمتي الآن لماذا أكرههما؟

لقد عشت مع عمي وكأنني خادمة، قال لي أن الدراسة لا تفيد الفتيات رمى كتبي ودفاتري ومنعني من الذهاب للامتحانات التي كنت انتظرها، منح ألعابي لأطفاله، منعني من الخروج والتلفاز ومن كل الأشياء التي أحبها يا سارة، قال لي أنها أشياء لا تجوز، لم يخبرني عن السبب أو يتفاهم معي بحب ويشرح سبب عدم جوازها لأدرك وأفهم.

بدلًا من جعلي أحب الدين وأوامر الله جعلني أنفر منها وأتهرب من التزامها فقط لأنه يجبرني، ثم أحببت شخصًا ما، كان يجلب لي هدايا جميلة، ويتعامل معي كما لو أنني إنسانة طبيعية كما البقية حينما كنت أشعر أنني ناقصة ويتيمة وفقيرة، لم أكن أستطيع النظر للفتيات ولا تكوين الصداقات معهن، كنت أزدري نفسي أمامهن وأكرههن جميعًا بدءًا من بنات عمي اللواتي يسخرن مني إلى كل فتاة ألمحها هنا وهناك.

تنهدت بقوة:

_أنا حمقاء أعرف ذلك لكنني لم أستطع التحكم بمشاعري، وحينما رفعت سقف أحلامي وطلبت من ذلك الشاب بكل

بلاهة أن يتزوجني رفض وانهدت آمالي للمرة الثانية وكُسر قلبي، عايرني حينها بشكل مُذل وجارح، لكنني لم أكن فتاة هادئة تبتلع جرحها وتصمت بل كنت انفعالية جدًا صرخت فيه حينها وتفوهت بالكثير من الحماقات والشتائم.

أضافت بسخرية وهي تضحك:

_وبالتأكيد لم يشفع لي الحب الكاذب، فلم يسامحني بل اشتكى لعمي بكل شيء وأخبره بأشياء حدثت وأخرى لم تحدث، ضُربت حينها ضربًا مبرحًا وحُبست في القبو المظلم مع الحشرات والفئران، بإمكانك القول أن الكوابيس التي تُرى في الأحلام عشتها واقعًا ملموسًا.

_وكيف وصلتِ لمنزل مهجة فيما بعد؟

أخبرتها فلك أن والد السيدة سنا كان يبحث عن خادمة لابنته ترافقها أثناء فترة حملها وتعتني بها، فوصلوا إليها بطريقة ما ودفعوا لعمها مقابل أخذها للعمل، ثم بقيت في منزل مهجة لم يسأل عنها أحد وكذلك هي لم تحاول أن تسأل أو تبحث عن أحد منهم، أمسكت سارة كفي فلك مردفة بنبرة متأثرة:

_أنا آسفة لجعلك تتذكرين كل هذا يا فلك.

_لقد حزنت وبكيت حتى استنزفت الكثير من أعصابي ومشاعري، صحيح أنني متأثرة بالماضي لكنه لم يعد يؤلمني كما السابق يا سارة، لقد تجاوزته.
_بعض الانتصارات حزينة.
_بعض الانتصارات تحمل في طياتها الكثير من الانكسارات يا سارة.
_انظري لتربة الأرض التي خلقنا منها يا فلك، إنها تجف وتتكسر، تحترق وتتشقق وتموت لكن الله يغيثها ويحييها بعد موتها برحمته، كذلك هي قلوبنا، اطلبي من الله أن يغشى قلبك برحمته فيحييه.

أسندت فلك رأسها على كتف سارة وأغمضت عينيها بوهن واستسلام.
*****

شربت الدواء بعد تناول الطعام بمساعدة أم مُصعب الامرأة الطيبة، كانت جالسة على السرير تستند على إحدى الوسائد الكبيرة، اقترب الطبيب مُصعب يحمل كوب بابونج في يده جلس أرضًا قرب مدفئة الحطب، كان المنزل بسيطًا جدًا، أثاثه مريح ولطيف برغم كونه قديم الطراز، أنيق بلون

رمادي فاتح به تداخلات من اللون الأزرق والستائر زرقاء كذلك، ابتسم سائلًا إياها:

_تشعرين بتحسن؟

هزت رأسها إيجابيًا، أكمل كلامه:

_كنت في أحد المستشفيات حينما رأيت رجلًا داخلًا بعجالة وغضب يحملك معه، عرفت حينها أنه أدهم وقررت أن أتأكد من ذلك.

أخذ رشفة من الكوب الذي في يده وتابع بهدوء:

_تبعته وانتظرت انصرافه وتأكدت حينها من أنه هو بالفعل، اطمأننت عنكِ فأخبروني بأن لديك كدمات قوية وبعض رضوض وكأنك قد تعرضتِ لحادث ما، لا أُخفيكِ سرًّا رؤيته وحدها كادت تشعل غضبي فأطفأتها ثم جاء كلام الطبيب فكان بمثابة صب البانزين فوق النار الخامدة.

صمت مجددًا كانت تراقب اتزانه في الحديث، لا تُصدق أن الدكتور مُصعب قد يغضب، عادة حينما نتكلم ونشير لأمر قد أغضبنا أو أزعجنا سابقًا يتسلل إلينا شيء من ذلك الشعور أثناء الحديث، لكنه يتحدث عن موقف أشعل غضبه بأسلوب هادئ وبارد، تساءلت: "أهناك جليد قد يغلي؟".

حاول ضبط شعوره، لم يخبرها بمدة جنون أفكاره حينها، وبجنون الكوابيس التي تخيلها، في ذلك الوقت لم يكن خائفًا

عليها فحسب، بل تملكه الخوف من حجم مشاعره ومما قد يفعله لأجلها.

_ثم ماذا حدث؟

سألت، فأجابها بلا مبالاة:

_هربتُ بكِ إلى هنا.

_لماذا؟

_سيلا كيف تسألين لماذا؟ لستُ أحد معارفك، ولا أمتلك أوراقًا رسمية للخروج بك، غير أن حالتك مستقرة وتكاليفك مدفوعة لم يتبقَ سوى عودة أدهم ليخرجك فحسب.

سألت وكأنها تذكرت فجأة:

_فلك بخير؟ كنا معًا وقت الحادث.

_إذن كان حادثًا بالفعل! لا أدري أين فلك حينما أذهب للاطمئنان على ميمي سأراها وسأخبرك كيف هي، اطمئني ستكون بخير، لم يكن حادثًا قويًا.

_ستخبر السيدة مهجة بأنني هنا؟

_بالطبع لن أفعل خاصةً الآن.

قالها ونهض للخروج من الغرفة، استدار فجأة وعاد للداخل أردف بحزم:

_علينا أن نجد حلًا.

لم تجد ردًا مناسبًا، فأضاف:

_يتوجب علينا إخبار والديك يا سيلا.
_لا، لن نخبرهما.
_الخوف يجلب الخضوع والاستسلام، عليكِ أن تتحلي بالشجاعة يا سيلينا.
كلامه صحيح لكنها لا تريد أن تتسبب بالمشاكل للعائلة، فالعلاقة بين والديها هشة من أساسها، وسيمتلئ قلب كاترين وأدهم بالحقد نحوها، رفضت مجددًا.
قال بانفعال:
_ماذا ستفعلين إذن؟ أستنتظرين معجزة؟
_نعم تمامًا، أعتقد بأنني سأنتظر معجزة.
فتّش في وجهها عن علامة سخرية لكنها بدت جادة فيما قالته ولا تمزح مطلقًا، تنهد ومضى للخارج عابسًا دون النطق بكلمة أخرى، يؤلمها عجزها وقلة حيلتها ويفتت قلبها هذا البكاء الذي لا يُبكى!
*****

استيقظت فلك ولم تجد سارة بجانبها تفحصت الغرفة بنظراتها فلم تعثر عليها، وصل فارس لاصطحابهما للمنزل فأخبرته بأنها لا تعرف أين سارة، اتجه للنافذة يراقب الطريق بشرود ثم سأل فلك:

_هل تثقين بها؟
_نعم كثيرًا.
_لماذا جميعكم يحبها، وأنا لا أحتمل وجودها؟
_ربما لأنها تشبه زوجتك الراحلة يا سيدي.
_هذا الشبه لا يريحني، لا أصدق بأنه صدفة، هناك سبب خفي وراء ظهورها في المنزل لا أدري ما هو، هكذا أشعر لذلك لا أثق بها.
دلفت سارة مسرعة ومعها باقة صغيرة من الورود الجورية الطبيعية قدمتها لفلك بابتسامة دافئة، لكن وجهها لم يكن على ما يرام عيناها شاردتان، ذابلتان، وكأن حزنًا ما ذهب بلمعتهما، سألها فارس ببرود:
_أين كنتِ؟
لم ترغب في إجابته فآثرت الصمت وكأنها لم تسمع شيئًا، ساعدت فلك على النهوض.
_لماذا لا تجيبين؟
_كنت أجلب الأزهار.
_لا أصدقك، أنتِ تخفين أمرًا ما.
_حسنًا، إنني أخفي في جيبي قنبلة ابتعتها للتو سأفجر فيها هذا المستشفى بعد قليل أتمنى أن ينال هذا الجواب استحسانك سيدي.

حدّجها بنظرات غاضبة ثم استدار ومضى للخارج.

*****

داعبت أشعة الشمس وجهها ففتحت عيناها ببطء تمنت أن يزور قلبها هذا النور الدافئ، دغدغت أنفها رائحة المخبوزات والقهوة التي تفوح وتنتشر في أنحاء المنزل، حاولت النهوض فآلمتها عدة مواضع في جسدها، دخلت أم مُصعب تحث الخطى بهدوء فابتسمت لرؤيتها مستيقظة، ألقت عليها تحية الصباح ببشاشة وفتحت الستائر على مصراعيها.

_أساعدك في الوقوف؟ أتشعرين بتحسن؟

_الحمد لله أفضل، لكن هناك بعض الألم.

دلف مُصعب الغرفة يحمل صينية تحتوي فناجين القهوة، إذ أن سيلينا نائمة على السرير الموجود في غرفة المعيشة، قال مبتسمًا:

_صباح الخير، هيا يا سيلينا بسرعة انهضي.

_حاضر.

قالتها وهي تتعجب من إيجابيته وقد أخافها البارحة بانفعاله وبالوجوم الذي كان عليه طوال اليوم، نهضت بصحبة أم

مُصعب نظر الطبيب إليها وأشار إلى فمه وهو يبستم مردفًا:

_ابتسمي يا سيلا، وجددي عهدكِ مع الأمل كل صباح، راحتنا النفسية هي أفضل علاج لآلامنا الجسدية.

اصطنعت ابتسامة خفيفة ومضت، بعد قليل جلست معهم وتناولت الفطائر مع القهوة، قالت ممازحة:

_كنتُ أظن أن الأطباء لا يأكلون هذه الأشياء مثلنا.

ضحكت الأم مجيبة:

_كان يرفض العجين والمقليات وكل ما يحتوي على الكافيين لأنها ضارة، ثم استسلم في النهاية وبدأ يطلبها مني في فترات متباعدة.

قال مُصعب:

_الأطعمة الصحية يصفها الطبيب للمرضى وينصح بها الآخرين، لكنه يأكل ما طاب له من الطعام.

رشف من قهوته ثم قال بحماس:

_أتعلمين؟ لم أنم البارحة حتى وجدت حلًا.

_حلًا لماذا يا بني؟

_للمشكلة التي تغرق فيها فتاة المعجزات التي بجانبك.

ثم التفت لسيلينا:

_إن كنتِ لا تزالين بانتظار المعجزة فأنا أحاول صنعها متوكلًا على رب المعجزات.

همهمت بيأس:

_ما هو الحل؟

فهمت الآن سبب تفاؤله الصباحي ونشاطه، بعض الأشخاص يقفون في وجه الصعاب بتحدٍ وإصرار، لا يستريحون حتى يهزمونها بدلًا من الرضا بهزيمتهم أمامها.

_ألم تقولي لي بأن أمكِ تعرف بالأمر؟ سنكلمها اليوم، عديني أن توافقي على كل ما سأقوله.

صمت قليلًا يرقب ردة فعلها فلم تقل شيئًا كانت تنظر إليه ببلاهة فحسب، يكره الصمت كما لا يكره أي شيء آخر، مفتاح الأفكار والمشاعر والتعبير هو الكلام، الإنسان صندوق مفتاحه الكلمات، وكلما حاول فهمها والحديث معها تصمت، استفزه سكوتها فاستفزها بقوله:

_السكوت علامة الرضا.

_بل السكوت علامة اليأس من هذا الحوار، دكتور أنت لا تستطيع رؤية الأمر من وجهة نظري التي تؤرقني، وأنا لا أستطيع تنفيذ خططك ونصائحك.

قالت الأم:

_مُصعب يفكر بشكل سليم يا ابنتي، لماذا لا تحاولين؟

_إنه يريدني أن أوقع على ورقة بيضاء لا أدري ما الذي سيُكتَب فيها لاحقًا.
_أنت لا تثقين بي يا سيلا.
_بلى، أثق بك.
_كلا، تصرفاتك تقول غير ذلك.
_أثق بك يا دُكتور مُصعب، ولكنها مشكلة تخصني أنا لا شأن لأحد بها.
أطلق زفيره ببطء وأخذ ينقر بأصابعه فوق متكأ الأريكة على يمينه نقرات هادئة متتالية ينفّس فيها عن انفعاله، ويهز رجله بعصبية، كانت أمه تراقب فيه كل حركة وسكنة فتسبر أغوار روحه وتعرف خفاياه وتفهمه ليس فقط الآن، بل هي كذلك على الدوام وهذا عوّدها على أن يكون إنسانًا مفهومًا من قِبل من هم حوله، إنها الوحيدة التي لا تفهمه وتحيجه للشرح والإقناع والكلام أكثر مما يطيق، إنها فتاة عنيدة، لا تملك سلاحًا تدافع فيه عن نفسها وتحمي به ضعفها سوى عنادها!
أغضبه قولها بإنها مشكلة تخصها ولا شأن لأحد بها، تعامله كـ غريب وهو الذي يكاد يخبرها بأنها تخصه هي ومشكلاتها وكل أمورها، لو كانت فتاة أخرى لما بذل لأجلها أقل هذا الجهد والتفكير، أتظن بأن قولها هذا

سيوقفه؟ أبدًا! ما دامت قد اختارت طريق العناد فسيسلكه معها ولن يستسلم، نهض مردفًا أثناء ارتداء معطفه وتجهيز نفسه للخروج:

_ما دامت تخصك فهي بطريقة ما تخصني أيضًا، وداعًا سأعود بعد ساعتين لنتحدث مع والدتك.

*****

ما إن سمعت ميمي صوت طرقات الباب حتى رمت دميتها وركضت نحوه، رأت سلمى مقبلة لتفتح الباب فتوقفت مكانها بلا حراك ترمقها بحزن وعناد، دلفت سارة وفلك ثم السيد فارس فركضت ميمي إليها وانفجرت بالبكاء، أسرعت فلك للداخل بعد نزع حذائها لأنها تشعر بالصداع وصراخ ميمي يزعجها جدًا، اقتربت سارة قليلًا ثم توقفت، ستدع الفتاة مع أبيها حتى يراضيها بنفسه.

ربت فارس فوق رأسها قائلًا:

_ما بكِ يا ميمي؟ كفي عن البكاء يا حلوتي.

لم تتوقف بل ازداد بكاؤها، جثا على ركبتيه واحتضنها، تلفت حوله فلم يجد سوى سارة سألها:

_ما بها؟

_لا أدري.

رد ساخرًا:
_نسيتُ أنكِ المسكينة الكتومة التي لا تعرف أي شيء إطلاقًا مع الأسف.
_ربما أعرف أشياء قد لا تعرفها أنت يا سيدي.
أغاظه كلامها فسألها مجددًا:
_إذن ما بها؟ علامَ تبكي؟
_كيف لي أن أعرف وقد كنت معكما في المستشفى.
صمت تمامًا كان قد نسي أنها لم تكن بالمنزل وقد أتت معهم قبل قليل.
_ميمي يا حلوة بابا كفي عن البكاء وإلا ستمرضين.
_لا أريد، لا أريد.
اقتربت سارة منهما جلست أرضًا قريبة منها سألتها:
_ماذا تريدين إذن؟ هل هناك ما يؤلمك؟ من أزعجك؟
لم تجيب أي من أسئلتها، فتابعت سارة مستفزة إياها:
_إما أنكِ بللتِ سريركِ، أو أنك لم تدرسي ولديك اختبار.
ابعتدت ميمي عن والدها واقتربت نحو سارة صارخة:
_لا لا، المعلمة ذهبت ولم تعد حتى الآن، وأنت وفلك أيضًا، جميعكم تذهبون وتتركونني وحدي، لا أحد يحبني.
_لكنني أحبكِ.

صدرت تلك العبارة في آن واحدٍ بصوتين مختلفين، أحدهما رجولي بارد، والآخر أنثوي دافئ تصحبه ابتسامة، التفتت ميمي لسارة:

_كاذبة، ستتركينني أنتِ أيضًا أنا لا أحبكِ ولا أحبكن جميعًا.

ركضت عائدة لحضن والدها المندهش مما يسمع من ابنته، تابعت وهي تبكي:

_ماما سلمى سترحل.

رفعت رأسها تنظر لوالدها وعينيها البريئتين مليئتين بالدموع التي تسيل فوق وجنتيها الورديتين المنتفختين:

_بابا أريدُ ماما تحبني، أريد ماما لا ترحل.

احتضنها والدها بصمت مطبق، ونهضت سارة متأثرة تحث الخطى نحو غرفة سلمى لتفهم ما الأمر.

*****

_هل سمعتِ يا فلك؟

_لا أنا متعبة لم أنم البارحة جيدًا، ماذا هناك؟

جلست سارة على طرف السرير:

_سلمى حامل.

نهضت فلك جالسة وصفقت بفرحة:

_مبارك، ياله من خبر سعيد!

_لكنها ستتركنا وتذهب للعيش مع أهل زوجها
_هذا أفضل لها، ستكون بحاجة للراحة ولمن يعتني بها.
_ألستِ حزينة لفراقها يا فلك؟
_سأشتاق لها بالطبع ولكن ما يهم يا سارة أنها ستكون سعيدة.
دمعت عينا سارة لتعلقها الشديد بسلمى، اقتربت فلك منها ومسحت لها دمعاتها بيديها مردفة:
_أخبرتنا السيدة مهجة ذات يوم أن أحبابنا كالطيور يا سارة، نحبهم، نأنس بهم، لكننا لا نستطيع حجزهم وحبسهم في أقفاص ليبقوا معنا، حتمًا سيرحلون ويبتعدون ليحلقوا نحو حياتهم الخاصة، وسعاداتهم الصغيرة التي كانوا يحلمون بها ويسعون للوصول إليها، لذلك على من يحب الآخر يا سارة ألا يقص له جناحاه، ومن يحبنا بصدق سيعود لرؤيتنا كل حين مهما ابتعد عنا، وهذا الكلام نقصد به أصدقاءنا، إخوتنا، وأولادنا، قالت السيدة هذا الكلام حينما فارقتنا إحدى الفتيات التي تأثرنا بفراقها كثيرًا.
دلفت سلمى للداخل:
_ألن تودعانني؟
ركضتا إليها وضمتاها، ابتعدت سارة قليلًا تمسح دمعاتها وتردف ممازحة بعد رؤيتها لدموع فلك:

_لم أكن أعرف أن فلك تتأثر بالوداع.
_لدي مشاعر يا سارة، لكنها كالأطباق الغالية الموجودة عند مهجة؛ لكنني لا أخرجها إلا للضرورة ولا أستعملها أمام الآخرين إلا نادرًا.
ضحكت ثلاثتهن وتشاركن البسمات والدمعات، مهما كانت طريقة الوداع لطيفة إلا أنها مؤلمة على أي حال وكيفما كانت.

*****

أعطته موافقتها على مضض لكنها خائفة مما سيقوله، كانت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، والسيدة أم مُصعب تجلس في ركن الغرفة تقطع الخضار، تمتم مُصعب:
_كفى يا سيلا اجلسي، ستسببين لي الدوار.
_إنها لا تجيب، دعنا نتوقف عن الاتصال بها.
_سأحاول مرة أخرى، علاج المخاوف مواجهتها يا سيلا، الهروب لا يساهم سوى بتضخيم القلق والمشكلة.
نادت أم مُصعب سيلينا لتجدل لها شعرها الذي يزعجها أثناء العمل فاستجابت بلطف، ارتجفت يديها حينما وصلها صوت أمها من مكبر الصوت في هاتف الدكتور مُصعب.

_أهلا حضرة الطبيب ما الأمر؟ هل بناتي بخير؟
أشار مُصعب لسيلا بالاقتراب والصمت.
_هناك أمر هام أريد أن أكلمك بشأنه.
_بناتي بخير؟
_إحداهن ليست بخير، علينا مساعدتها، ابن أخيك يحاول أذيتها مرارًا وتكرارًا.
فهمت الأم ما يرمي إليه هتفت بحدة:
_ابتعد عن الأمور التي لا تخصك حضرة الطبيب، وأنا سأتصرف مع الحمقاء قليلة العقل التي أخبرتك.
_أيرضيكِ أنها بالمستشفى الآن؟
صمتت الأم لثوانٍ ثم سألت:
_لماذا؟ أهي بخير؟
_أخبرتك أنها ليست بخير هناك الكثير من الجروح والرضوض في جسدها وتبكي أثناء نومها وتعاني من الكوابيس، لقد تعرضت لحادث أثناء هروبها من ذلك الوغد.
_التزم حدودك حينما تذكر أي فرد من أفراد عائلتي حضرة الطبيب! اعتني بها في المستشفى ودعها تعود للمنزل لا أريد سماع أي شيء آخر بهذا الشأن، هل فهمت؟

_حسنًا، فهمت يبدو أنني سأطلب العون من زوجك السيد بسّام لعلنا نجد حلًا معه، وداعًا.
مُصعب يجيد فنون الوصول للنتائج التي يأملها بغض النظر عن لباقة الطريقة، استوقفته بعصبية:
_انتظر، اسمع جيدًا لا أريد لأحد أن يعرف بهذا الأمر بتاتًا، لا أريد أن تطالني الناس بألسنتها، لا أحد سيعرف ولا حتى زوجي.
_إذن عليكِ مساعدتها، لدي حلٌ مؤقت لحمايتها.
_ماهو؟
_أريد موافقتك وزوجك أولًا.
قالت بنفاذ صبر:
_على ماذا؟
أخبرها بهدوء لا يتناسب مع قوله الذي وقع على الأم وابنتها كالصاعقة.
_دكتور أنت جاد فيما تقول، بالله عليكِ أيعتبر هذا حلًا؟
_لديكِ أفضل منه؟
صمتت الأم فأجابها:
_الوقت لا يمر لصالحنا أبدًا، ثقي بي كل الأمور ستكون على ما يرام.

رفع ناظريه ببرود نحو سيلينا التي تحدّق فيه وعلامات المفاجأة تبدو واضحة عليها، لقد توقعت كل أنواع الحلول إلا ما قاله مُصعب للتو!

*****

دلفت فلك للغرفة منهكة القوى متعبة، ارتمت فوق السرير ثم هتفت:

_أخيرًا نامت قد تعبت.

ردت سارة:

_وأنا أنهيت أعمالي للتو، أشعر بأنني لا أستطيع التحرك، أرغب في النوم لمدة أسبوع كامل.

_صحيح، هذا المنزل ثقيل على فتاتين فحسب وإحداهما مريضة، لقد بتنا وحيدتين يا سارة.

_هل اشتقت للشجار مع نور يا فلك؟

ضحكت فلك:

_نعم، بصراحة أحب امتلاء المنزل، بات الآن منزلنا هادئًا مملًا.

_صحيح، لكننا لا نزال معًا وهذا يسعدني يا فلك، لطالما كنت وحيدة في منزلي، فلك..

_نعم؟

_من الذي أهداكِ تلك المرآة الجميلة التي تبدو وكأنها من العصر الفيكتوري؟ أحببتها هي والمشط الذي معها وتذكرتهما الآن.

ضحكت فلك:

_ليس سعيد طبعًا، إنها السيدة سنا أُعجبت بهما كثيرًا ذات يوم وأنا أساعدها بترتيب غرفتها فأهدتهما لي، كانت كريمة ونقية القلب.

_رحمها الله، سأنهض للصلاة وأعود لنثرثر.

_اذكري سيلا في صلاتك ودعائك يا سارة.

_لماذا لا تفعلين ذلك بنفسك يا فلك؟

_إن الله لا يجيب دعائي غير أني قد توقفت عن الدعاء منذ مدة ليست بالقصيرة.

_انظري لسلمى لم تيأس رغم أنها تلح بذات الدعاء منذ خمس سنوات، لكن الله لم يأذن لدعائها بالإجابة ولقلبها بالجبر إلا اليوم، قد تتأخر الإجابة لحكمة يعرفها الله ولا نعرفها، لا تيأسي من الدعاء أبدًا، حتى لو ابتعدت ليس هناك حواجز بينك وبين الله بإمكانك العودة إليه دائمًا وسيقبلك طالما أنك صادقة، ونادمة على البعد والذنوب، ومقبلة إليه بحب ورجاء.

*****

كانت تقرأ أذكارها بعد أداء صلاة الفجر في المطبخ قرب باب الحديقة الزجاجي، تراقب قطرات المطر، سمعت حركة خفيفة تنبئ باستيقاظ أحد ما، لم تعر الأمر اهتمامًا تابعت وردها وتأملها.

كان صاحب تلك الحركة الخفيفة هو فارس، قد حزم أمتعته في حقيبة صغيرة استعدادًا للرحيل، البقاء هنا يستنزف طاقته ومشاعره، ابنته مسؤولية كبيرة يقتله عجزه أمامها، دلف للمطبخ ليأخذ معه عبوة مياه، ملأ صدره الضيق لرؤيتها وكذلك شعرت هي!

لا تدري كيف يفكر هذا الرجل، كيف هانت عليه دموع ابنته التي كانت تبكي في الأمس من الفقدان؟ كيف قرر الرحيل ليسبب لقلبها الصغير جرحًا جديدًا، لم تعد تحتمل الصمت أكثر، هتفت:

_لكن مريم بحاجتك.

_لا أستطيع أن أقدم لها أي شيء.

_وجودك قربها هو أفضل ما قد تقدمه لها الآن يا سيدي.

تجاهل كلامها وأخذ عبوة مياه متجهًا نحو الباب.

_إنكَ تُشبهها.

استدار وفي ملامحه إشارة استفهام عن هوية المشبه به، لم تجبه وانتظرت سؤاله المنطوق.

_من تقصدين؟
_تلك الراحلة، كلاكما يحل مشكلاته بنفس الطريقة.
_أي طريقة؟
أجابت بلا مبالاة:
_الهروب.
عاد مقتربًا منها مردفًا بتحذير:
_إياك والحديث عنها ثانية، أنت لا تعرفينها حتى تحكمين عليها.
_قد أعرف عنها مالا تعرفه أنت.
قالتها ومضت بسرعة فتبعها غاضبًا طالبًا منها أن توضح ما قالت، لكنها دلفت لغرفتها وأغلقت خلفها الباب بقوة، ابتسمت راضية عما فعلت هو الآن لن يستطيع الذهاب، سيحاول معرفة ما تخفيه، كانت ستعود لفراشها لكنها أخذت شيئًا ما وخرجت ثانية بهدوء، وجدته في المطبخ يعدُّ القهوة.
_هل تعرف هذا؟
سألته ورفعت بيديها الدفتر الأصفر الصغير.
أطفأ النار واستدار إليها مندهشًا، رد سؤالها بسؤال:
_من أين أتيت به؟ إنه دفتر سنا.
_سأخبرك بكل ما أعرفه ولكن بشرط.

_ما هو؟
أضاف بلهجة وعيد وتهديد:
_إياك والكذب، لو شعرت بأنك تفعلين كل هذا لأجل شيء ما وكنت هنا كل هذه المدة لهدف ما؛ سترين مالا يعجبك يا سارة.
أعادت الدفتر لجيبها الواسع واقتربت تكمل إعداد القهوة، ردت وكأنها لم تسمع شيئًا من حديثه الفظ:
_أريد منكَ أن تحضر العقدين الذهبيين.
امتثل لطلبها وحينما عاد كانت تُخرج الأطعمة لتحضير الفطور، حينما رأته تركت ما بيديها وأقبلت واضعة أمامه على طاولة المطبخ صينية تحتوي فنجان قهوة وطبق فيه بعض التمر وكأس ماء، جلست قبالته مردفة بصوت متزن:
_بداية لا أريد سماع تعليقات جارحة، أنا صادقة في كل ما سأقوله لك، والذي عرفته لم أكن أسعى لمعرفته بنفسي لكنها الصدفة.
وضع العقدين فوق الطاولة وشرب بعض الماء، أومأ برأسه كنوع من التفاعل لتكمل كلامها.
مدت يدها ساحبة العقد الذي يحمل اسمها وأخذت تعبث فيه بأصابعها وهي تتحدث:

_البارحة عند عودتنا للمنزل كنت عازمة على الرحيل والعودة للقرية وكأنني لم أعرف شيئًا عزمت على الرحيل وأنا غريبة كما جئت غريبة إلى هنا، لكن دموع مريم أثّرت بي جعلتني أفكر كثيرًا في قراري، خاصةً بعد معرفتي بأن هذه الطفلة تعنيني.

توقف فنجان القهوة مكانه قبل أن يرتشف منه أعاده للصينية، وحدق بها باستفهام وتركيز، تابعت:

_هل تريد أن تعرف أين كنتُ صباح البارحة؟

_لم أعد أهتم بأين كنت وقتها، أريد فقط أن أعرف ما علاقتك بزوجتي وابنتي.

_ذهبت في الصباح الباكر للريف عند والدتي، جعلتها تقرأ ما شككت فيه من المذكرات وحدثتها عن العقدين المتشابهين وعن شبهي بها.

_لا أحد يشبهها!

_سنا توءمي.

نطقتها ونظرت إليه، كانت الدهشة مرسومة على محياه بدقة.

_عبير لم تنجب سوى طفل واحد وهو سنا، أين كنتِ أنتِ؟

_عبير لم تنجب.

_لا أصدقكِ

_المذكرات تحتوي على كل شيء يا أستاذ فارس وبخط يدها، إنه دفترها هي، عثرت عليه في أحد الأدراج ولم أعرف صاحبته قرأته لعلي أتعرف عليها وأعيده إليها، لكنني لم أتوقع أبدًا وصولي إلى ما وصلت إليه.

صمتت قليلًا ثم أكملت:

_أما عن العقدين، فقد اشترت لي أمي عقدًا يشبه عقد ابنتها التي حُرمت منها، لقد سمتني اسمًا يشبه اسم توءمي، كان لديها أملًا ضئيلًا في فؤادها بأن تلتقي الأختين يومًا ما، لا أدري ما عيار الذهب في عقدها، لكن عقدي من النوع الأخف منه، بإمكانك التأكد من هذا عند الصائغ، تفضل إليك دفترها، معك الآن دليلان.

عبثت بالعقد وصمتت لبرهة، ثم أضافت:

_أمي تعرف الحقيقة كاملة والسيدة عبير تخفيها، فإن لم تصدق بإمكانك مواجهتها بنفسك، لقد طلبت مني البقاء عندها قبل عودتك من السفر لسبب ما، فهمته حينما اكتشفت الحقيقية، إنها تشكُ بي وتكرهني، لقد أرادت إبعادي عن المنزل حين مجيئك، ربما خافت من لقائي بك ومن الشبه الذي قد يُلفت انتباهك.

_لماذا أخفت سنا عني كل هذا؟

_لأن الحديث عن الجراح القديمة يُعيد فتحها، لقد خشيت أن تفقدك إن أخبرتك بالحقيقة، فهربت منها وكأنها لم تعرفها.
تنفست قائلة بعد أن نهضت لتعد الطعام:
_لذلك أخبرتك بأن الهروب طريقتكما.
ابتعدت عنه تاركةً إياه ضائعًا، مشتت الفكر والقلب.
دلفت فلك للمطبخ وتفاجأت من وجود السيد فارس، ألقت تحية الصباح ثم خرجت لتوقد المدفأة، نهض فارس مردفًا:
_سأعود للنوم، لا أريد تناول الفطور.
لم ترد سارة بأي كلمة، مضى للخارج آخذًا معه الدفتر والعقدين.

*****

طرقات عنيفة على الباب جعلت سيلينا تنادي الطبيب مُصعب وهي ترتجف، أقبل مطمئنًا إياها واتجه للباب، ما إن فتحه حتى فوجئ بأدهم ماثلًا أمامه بصحبة رجال الشرطة اقترب أحد الرجال قائلًا:
_معنا أمر بتفتيش منزل حضرتك.
_لماذا؟

_هناك دعوة ضدك تقول بإنك اختطفت فتاة من المستشفى.
ألهذه الدرجة بلغت حقارته ليدعي بمثل هذه الدعوة التي بإمكانها إفساد سمعة الطبيب ومنعه من عمله للأبد لو تم إثباتها؟ كان أدهم ينظر إليه باستعلاء وتشفي، قال مُصعب بصوت جهوري متجهًا برأسه للداخل:
_أحضري دفتر العائلة وتعالي يا ابنة العم.
أقبلت سيلينا معها هويتها ودفتر العائلة، ترتدي فستانًا بلون البن وترمي بشالٍ عسليٍّ فوق رأسها، تناولهم من يدها وسلمهم لرجل الشرطة الواقف قبالته مردفًا:
_تفضل لقد أخرجت زوجتي بنفسي من المستشفى واسأل مدير المستشفى، أهذهِ هي الفتاة المطلوبة؟
دقق الضابط ببطاقتها الشخصية وبالمعلومات التي قالها أدهم، استدار موجهًا سؤاله إليه:
_هي صحيح؟
_نعم.
قال مُصعب باتزان ولهجة حازمة وواثقة:
_سيدي أنا لا أحب اللف والدوران هو من حاول اختطاف زوجتي المريضة فعدت بها إلى المنزل لأداويها هنا بنفسي، هل هناك من يخطتف زوجته؟

ارتسمت علامات الدهشة والبلاهة على وجه الضابط، بينما كان أدهم يشتعل غضبا هتف صائحًا:

_ربما دفتر العائلة مزيف والزواج مجرد خدعة.

تأكد الضابط من دفتر العائلة كان حقيقيّ جدًا وكذلك الوثائق.

سأل الفتاة بالطبع لن تكذب أمام الشرطي بحقيقة من يريد خطفها وأذيتها.

_سيلينا سُئلت من فيهما الصادق.

رمقها أدهم بحقد، أجابت:

_بالطبع زوجي، الرجل الذي معك يحاول أذيتي ويطاردني دائمًا يا سيدي، أخاف منه، نظرته وحدها ستعلمك بأنه الخاطف الكاذب.

استدار الضابط نحو رجاله وصرخ فيهم أن يأخذوه ويتحركوا.

_اعذرنا للإزعاج دكتور مُصعب، ليلة طيبة.

تنهدت سيلا بارتياح وكأن صخرة كبيرة قد أزيحت عن صدرها، ابتسم مُصعب مشيرًا إليها للدخول ثم أغلق الباب واتجها لغرفة المعيشة، قالت الأم بابتسامة ثقة وانتصار:

_ألم أخبرك أن خطط مُصعب ناجحة؟ هيا تعالا لنشرب الشاي بذهنٍ خالٍ مرتاحٍ الآن.

ابتسمت سيلينا بالفعل لقد نجحت خطته، لقد عمل على كل الجهات لحل مشكلتها، اتفق مع أحد الأشخاص ليكتب له عقد زواج على الأوراق وكأنه قد حدث قبل شهرين ثم ذهب وثبته على ذلك التاريخ في المحكمة، وأخذها للبصم وإخراج دفتر العائلة، تحدثت مع مدير المشفى وأقنعه بما حدث، لعب لعبته بشكل صحيح على الجميع لينقذها، يتمنى فقط ألا يأتي ذلك الوقت الذي سيذهب به لطلاقها، يتمنى أن تتحول هذه الخدعة لحقيقة يعيشها لكنه لا يعرف كيف سيسعى ليصل إلى ذلك الهدف وينجح فيه.

_شكرًا لكَ من كل قلبي دُكتور مُصعب.

أراد أن يجيب بـ (حبًا وإكرامًا يا ابنة العم) لكنه لن يتمادى أكثر، لقد اتفقا معًا بأنها مرحلة مؤقتة لإخراجها من المأزق، لن يجعلها تعيش في علاقة أُرغمت عليها، يريد أن تختاره بنفسها وإرادتها حينما تكون آمنة، مطمئنة، وإن لم يحدث هذا فيكفيه أنه ترك أثرًا جميلًا في حياتها ستتذكره دائمًا.

سألته والدته:

_فيمَ أنت شاردٌ يا بني؟

_لا شيء يا أمي أشعر بالتعب، حان موعد نومي، تُصبحان على خير.

_وأنت بخير يا بني.
_وأنت من أهل الخير وممن يتنعمون به.
ابتسم لهما ودلف لغرفته، جلستا معًا وتسامرتا ثم خلدت كل منهما للنوم.

*****

كانت نور جالسة وتفرش محاضراتها فوق طاولة المطبخ بجانبها فنجان قهوة كبير، تنسدل خصلات شعرها فوق الطاولة وتنام على الأوراق.
_صباح الخير.
_صباح النور وجدان.
_تدرسين؟
_نعم يا وجدان، هذه الطلاسم لا تنتهي، لدي امتحان صعب والسيدة مهجة اتصلت بي ووبختني لغيابي تريد عودتي لتدريس الصغيرة.
جلس قبالتها يتأمل حركاتها، أردف:
_هذه الأشياء تسرقكِ مني يا نور.
_أنا آسفة تحملني هذه الفترة فحسب، أنا مضغوطة جدًا.
_دعي العمل إذن، ما فائدته؟
تركت القلم وتوجهت بنظراتها إليه.

_أنا الآن زوجكِ، مسؤول عنكِ، وأستطيع تأمين كل ما تحتاجينه يا نور، علينا أن نفكر في أمورنا ومستقبلنا وموعد زفافنا، ألا تلاحظين أننا معًا لكن كلاً منا في عالم آخر.

_وجدان سنفكر في كل هذه الأشياء لاحقًا أعدك.

_حتى أنا ستفكرين بي لاحقًا؟

كانت نبرته حزينة معاتبة، صمتت ولم تجد إجابة، أضاف:

_أتعرفين شعور انتظار رسالة ما، مكالمة ما، سماع صوت إشعار يتبعه ابتسامة مشرقة ودقات قلب سعيدة؟ أن تعرفي بأنك تشغلين حيزًا من تفكير شخص ما ذلك يمنحك شعورًا دافئًا لطيفًا.

همست:

_أنا آسفة.

راح يعبث بخصلاتها الطويلة النائمة على الطاولة.

_أتذكرين تلك الفترة التي كنت ترسلين لي فيها رسائل محفزة ولطيفة في أوقات مختلفة؟ كانت تلك ألطف فترة بالنسبة لي، كنتُ أنتظر رسالتك لأشعر بأشعة الشمس وضوئها، لأستشعر برودة النسمات وأرى ألوان الأشياء من حولي، كنتِ بمثابة فراشة كلما ظهرت في محيطي الرمادي تمنحه ألوانًا وأنوارًا.

_كنتُ أتمنى لو باستطاعتي انتزاع تلك الفترة من حياتي.
وكأن كلماتها قد طبعت صفعة قوية فوق وجهه، ترك العبث بخصلاتها وكف يديه سائلًا:
_ألأنني كنتُ فيها؟
_أبدًا يا وجدان لم أكن أقصد، لكنني أكره نفسي في تلك الفترة كنت متساهلة بتعاملي مع الجميع وغير ملتزمة، كانت رسالاتي بريئة وعفوية حينها لكن انظر ما الذي فعلته بك، لم أكن أتوقع أن أثرها عليك عميق لهذه الدرجة.
سكتت قليلًا ثم أضافت:
_أنا آسفة لما تشعر به لكنني أخبرتك مرارًا وتكرارًا أنني لستُ مستعدة للزواج بعد.
نهض واجمًا وغادر بهدوء دون أن يتفوه بأي كلمة.
*****
طلبت سيلينا من الطبيب أن يُعيدها لمنزل مهجة، ودعت أمه الطيبة وشكرتها ثم ركبت معه في السيارة، سألها:
_أتشعرين بالبرد؟
_لا، أنا أحب البرد.
_استيقظت البارحة ليلًا، سمعتك تبكين.
صمت ثم تابع:
_ما سبب البكاء؟ هل لا زالت تلاحقكِ الكوابيس.

_لا.
_ما الأمر إذًا؟
_ربما هي دموع الفرح.
ضحك قائلًا:
_إنكِ فتاة بقلب طفلة، أتواجهين كل مشاعرك بالبكاء؟
أومأت بخجل، سألها:
_أخبريني ما خططكِ المستقبلية؟
_بداية سأرتدي الحجاب الذي لطالما تمنيت ارتداءه وعارضني الجميع، وسأسحب أوراقي من كلية الفنون لأسجل العام المقبل في كلية أخرى، و.....
تابعت حديثها بتلقائية وانشراح لطالما كانت قراراتها المهمة في أيدي الآخرين يختارونها حسب رغبتهم وكما تتطلب صورتهم وواجهتهم الاجتماعية أمام الآخرين، لم تكن يومًا بناءً على طلبها وكما تحب وتسعى، لقد كذبت عليه لم تبكي ليلة الأمس من الفرح، بكت خوفًا من فقدانه هو، أتعبها التفكير في تلك اللحظة التي سيتركها فيها وتعود الأمور لما كانت عليه سابقًا، بكت لأنها تكن له بعض المشاعر وتتمنى أن تبقَ بجواره بقية عمرها، لكنه أدى ما عليه وذهب للنوم وكأنه قد انتهى من مهمة رسمية ويريد الراحة بعدها، إنه جاد وحازم معها أكثر الوقت، كان قلبها

يؤلمها لأنها لا تعرف ما نظرته عنها بعد كل ما حدث وكل ما عرفه عنها وعن عائلتها، لا تعرف ما شعوره ناحيتها، لطالما حلمت بإنسان ينتشلها من أسرتها ومجتمعها ويبعدها عن تلك البيئة لتعيش كما تريد وتحب وليس كما يجب على أمثالها أن يعيشوا، بكت لأنها عزمت على اتخاذ قرارات جديدة وتخشى تبعات هذه القرارات، تريد أن تصبح فتاة شجاعة مثله ومثلما ينصحها دائمًا، تخاف الفشل لكنها ستحاول، ها قد وصلوا أخيرًا، نزلت مسرعة وطرقت الباب بلهفة طفلة عادت لصديقات المدرسة بعد طول غياب، فتحت فلك الباب فأضاء وجهها بابتسامة مشرقة واحتضنتها بقوة.

_كنت قلقة عليكِ حمدًا لله على سلامتكِ يا سيلا.

_اشتقت إليكن، كانت أيامًا عصيبة لكنها مرت بلطف الله وعونه.

راحت تنظر إليها تتفحصها:

_أنت بخير يا فلك؟ تأنيب الضمير كاد يقتلني لأنني كنت سببًا في الحادث.

_أنا بخير.

أقبلت سارة هتفت بفرح:

_لقد عدتِ أخيرًا الحمد لله.

اقتربت سارة من فلك نكزتها بكوع يدها:
_هاهي دعوتكِ قد أجيبت يا فلك، هل اطمأن قلبكِ الآن؟
_نعم نعم، الحمد لله، هيا بنا للداخل.
ردت سيلينا:
_سأرى السيدة مهجة لأعتذر منها وأعود إليكما، ماذا تفعلان الآن؟
_نُقطّع أوراق الملفوف لنسلقها ونحشيها من أجل الغداء.
أجابت سارة، وكانت فلك مندهشة من شيء صغير مدور يحتضن إصبع سيلينا، سحبت كف سيلا متمتمة:
_لا أصدق! هل كل من تختفي في هذا المنزل تعود إلينا متزوجة؟
_مبارك يا سيلا.
قالت سارة فابتسمت سيلينا بشيء من الحزن وأخبرتهما أن يؤجلا المباركات والحديث لحين عودتها من مكتب مهجة لتشرح لهما ما جرى.
ما إن عادتا للمطبخ حتى طُرق الباب ثانية، نهضت سارة وإذ بها نور قد وصلت قبّلت كلتا الفتاتين كادت تتجه لغرفة ميمي وسلمى أخبرتها سارة أن مريمة عند مهجة، وسلمى غادرت المنزل.

دلفت نور فوجدت سيلينا والسيدة تتحدثان استأذنت لأخذ ميمي ودرّستها في غرفتها كالعادة، حينما انتهت عادت حيث الفتيات، هتفت فلك مداعبة:

_تفضلي ساعدينا يا عروس، أصبح لدينا عروستان.

_ماذا تفعلن؟

ابتسمت سيلا:

_نلف أوراق الملوف، تعالي لتسمعي كنت على وشك إخبارهن بقصة زواجي السريع العجيب.

ضحكت نور واقتربت للجلوس معهن قائلة:

_وأنا لدي قصة زواج سريع عجيب أيضًا، تخيلي أن الخطوبة وعقد القران كانا في يوم واحد!

_وأنا كذلك.

ضحكت البنات، وصل السيد فارس طرق باب المطبخ مناديًا سارة، خرجت إليه لدقائق ثم عادت.

_ماذا يريد يا سارة؟

_لا شيء يا فلك يطمئن على ميمي.

_اها، أشعر أن هناك عروسًا ثالثة هنا، لماذا كان جالساً معكِ هنا صباحًا؟

ردت سارة بحزم وانفعال:

_أتمنى ألا تعيدي كلامكِ هذا مرة أخرى مطلقًا، اتفقنا؟

شعرت فلك بالضيق من طريقة سارة بالرد، صمتت كلاهما وأكملت عملها بانزعاج، كل ما هناك أن السيد قد اتفق على موعد مع السيدة عبير وطلب منها إحضار والدتها غدًا.

أردفت سيلينا:

_أريد لهذه الأجواء أن تكون مبهجة يا فتيات، وبختني السيدة مهجة لساعة كاملة وألقت علي أنا ونور محاضرات طويلة في مكتبها، ألن تستمعن لما حدث معي؟

أجبن بـ نعم وبدأت الثرثرة تضج في المكان، لمة المطبخ جميلة، دافئة، في المطبخ لا يُطبخ الطعام فحسب بل تُطهى الأسرار، وتنضج الأفكار، وتُغسل القلوب من أكوام الهم والكتمان حينما نغسل الأطباق بهدوء ونتصالح مع أنفسنا وأفكارنا، وحينما نثرثر مع من نحب في ركن المطبخ ونحن نتساعد معًا بكل حب.

*****

خرجت نور من غرفة المكتبة بنفسية تختلف تمامًا عن التي دخلت بها، كانت قد استشارت السيدة مهجة في أمر علاقتها بوجدان وبآخر حوار جرى بينهما بعد أن انتهت من القراءة لها، السيدة مهجة تكون في مزاج رائق وهي بالمكتبة ما شجع نور على الحديث معها بأريحية، فأخبرتها السيدة بأنها مخطئة في كلامها، وأن بإمكانها التخلي عن العمل طالما

أنها لم تعد بحاجة إليه وزوجها قادر على تلبية احتياجاتها، لأن هناك أشياء أخرى أهم الآن عليها أن تلتفت إليها، كمنزلها المستقبلي ومهاراتها وحياتها الخاصة، هي بحاجة لأن تستغل الوقت لبناء مستقبلها في تعلم الطبخ والترتيب والذوق وأمور المنزل لأجل زواجها القريب، نصحتها بأن عليها ألا تطيل مساحات الجفاء بينهما وأن يُراعى الود وتُقدر مشاعر الطرف الآخر واحتياجاته وأن يُعبر عنها بصدق ووضوح وعدم الانتظار من الآخر أن يعرفها ويلبيها بدون البوح بها فهذا محال.

تتذكر كلماتها وتسترجعها بينها وبين نفسها حينما قالت لها:

"إن لم نتذكر من نحب في خضم انشغالاتنا لا معنى لتذكرنا إياهم في وقت الفراغ، الكلمات اللطيفة التي تُقال لنا هي زادنا وسلاحنا الذي نواجه به أعمالنا الصعبة وأيامنا الكئيبة ولياليا الباردة المظلمة يا نور، اقتحمي عالمه بتصرفات بسيطة، دافئة، مليئة بالحب كل فترة وأخرى، لا أقول لكِ اجعليه محور حياتك لا أبدًا بل وازني بين أمورك وامنحي الأشياء حقها من وقتك واهتمامك ومشاعرك.

يا ابنتي علينا أن نعتبر الحياة كدائرة متحركة، يجب أن نضع فيها كل الأشياء التي تهمنا من: (علم، وعمل، ومهمات، ودراسة، هوايات، أهل، أقارب، أصدقاء، زوج

وغيرها) ثم علينا وضع أنفسنا في مركز الدائرة هكذا ستدور كل الاشياء حولنا وسنعطي كل منها الاهتمام المطلوب حينما يحين دورها، وعلينا الحذر من وضع شيء ما أو شخص ما في المنتصف لأننا في هذه الحال سندور حوله هو فقط على الدوام، فنرهقه ونرهق أنفسنا ونهمل بقية جوانب الحياة، وسنتأذى كثيرًا بو فشلنا أو فقدنا ذلك المركز الذي ندور حوله، ونجعله محور حياتنا"

أقنعها كلام السيدة وقررت أن تبدأ مع وجدان صفحة جديدة.

*****

دخلت سارة غرفة فلك ليلًا وإذ بها تبكي بحرقة، حارت في أمرها وحاولت تهدئتها سألتها:

_مابك؟ ماذا هناك؟

مسحت دمعاتها بيديها قائلة:

_ماذا تريدين؟

_إنها ليلة مثلجة وباردة أضفنا الكثير من الأخشاب، سنسهر معًا هذا آخر يوم لنور معنا ستترك العمل هنا، حتى مريمة والسيدة ستجلسان معنا لبعض الوقت، لقد صنعتُ عصيرًا وسيلا تعد كعكة البرتقال، سعيد أحضر فستقًا

سودانيًا لأجلكِ، كان يود رؤيتك وتسلميه لكِ بنفسه لكن السيدة مهجة هي من فتحت له.

ردت بصوت متحشرج:

_وماذا حدث؟

_أخبرها أنه جلبه من أجلها ثم انصرف.

تخيلت فلك ما حدث فضحكت وهي تمسح دمعاتها.

_لماذا كنتِ تبكين يا فلك؟

_أبكي على نفسي.

رفعت سارة حاجبيها بتساؤل فتابعت كلامها:

_أنت لا تعرفين كم أنا سيئة، إن الأخطاء والذنوب التي وقعت فيها كثيرة جدًا، أنا غارقة في الوحل يا سارة هذا يخيفني!

_السيئون الحقيقون لا يشعرون بأنهم كذلك، ولولا وجود الضوء في أعماقك لما رأيتِ أخطائك ولا بكيتي عليها، دموع التوبة مضيئة يا فلك تمحو عتمة الذنوب والعثرات.

_سمعت مقطعًا من إحدى سور القرآن وأنا أتصفح في الهاتف قبل قليل، لقد هزت كياني، لم أستطع أن أتمالك دموعي، كانت تصف أهل النار يوم القيامة تخيلي أنهم يتمنون شربة ماء فقط ولا يجدون وإن يستغيثوا يغاثوا بماء شديد الحرارة يزيد النار نارًا والعطش عطشًا، أخاف أن

أكون منهم يا سارة أنا إنسانة ضعيفة لا أصبر على حرق بسيط يصيب إصبعي كيف سأحتمل ذلك العذاب؟
أخبرتها سارة بأن هذه العذابات لمن ظلم وتكبر وتجبّر، هذه العذابات الشديدة لمن لا يخشى الله ولا يطيع أوامره، وأن الوقت لم يفت بعد، هناك دائمًا فرصة للعودة للتوبة للتغير ما دمنا على قيد الحياة، شرحت لها عن رحمة الله الواسعة، وأن هذا الألم والاحتراق النفسي يجب أن يُتبع بتوبة صادقة.
تدحرجت دمعة أخرى، همست فلك:

_لكنني أمتلك ماضٍ أسود وقلب لا يقل سوادًا عنه، أنت لا تعرفينني جيدًا يا سارة.
_لكن الله يعرفك، ومن تدبيره أن يسر لكِ سماع آية تؤثر فيكِ وتعيدكِ إليه، ربما اشتاقت السماء لصوتك يا فلك، انظري كيف تؤثر الآيات فينا، كثيرًا ما تبعدنا الحياة عن الغاية التي خُلقنا لأجلها فيا فوز من استغل قدراته وما وهبه الله إياه ولو كان مجرد هاتف ليؤثر في الناس ويذكرهم بالله وبالجنة والنار.
صمتت ثم أضافت وهي تمسح دمعات صديقتها بأناملها:

_لا تيأسي دعي الألم يحركك للإسراع إلى الطريق الصحيح، يقال أن من تحرّق تحرّك، ويقال أن الله خلق سبعة أبحر وأحب من عبده دمعةً خشيهُ فيها، هذه دموع مضيئة يحبها الله.

_هل سيغفر الله لي؟
_التائب من الذنب كمن لا ذنب له، انتظري.
سارعت لجلب مصحفها الصغير من أعلى الخزانة وفتحته لتتلو عليها آيات عظيمة من سورة الزمر:
{قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ}

*****

عادت سارة لغرفة المعيشة، كل الأشياء كانت جاهزة ومُرتبة، ركضت مريم نحوها:
_أنا سعيدة، هيا تعالي سأقطّع الكعكة، أين فلك؟
حملتها سارة وقبّلتها مردفة:

_ستأتي حالًا، إنها في الحمام.
أقبلت فلك بعد أن غسلت وجهها جيدًا، كانت هناك آثار خفيفة للدموع ترتسم حول عينيها، تحلقن حول المائدة خيّم الهدوء لبرهة إلا من صوت تآكل الأخشاب واحتراقها، وصوت ارتطام حبات البَرَد بالنوافذ الزجاجية، لا شيء يضاهي نعمة الدفء في الليالي الشتائية، بدأت الثرثرة وقطعت ميمي الكعكة مع جدتها بفرحة كبيرة، أخذت السيدة قطعتها وقطعة فارس ونهضت لتجلس معه في غرفته، هي تعرف بأنه يفضل الوحدة ويمثّل بأنه نائم طوال الوقت لكنه لا ينام تريد أن تقتحم عزلته، تود لو يعود ابنها مقبلاً على الحياة كما كان سابقًا، طلبت الفتيات منها البقاء معهن لكنها رفضت برفق وانسحبت لتدعهن يثرثرن براحتهن، تحبهن وكأنهن بناتها وتشعر بالحسرة لأنهن ليسوا كذلك، تؤمن بأن للفتيات قدرة عجيبة في صنع البهجة دائمًا وبأبسط الأمور والكلمات.
رفضت ميمي الخروج مع جدتها فقربتها سارة إليها وأشرفت على طريقة تناولها للطعام.
هتفت نور:
_هيا لنعلب لعبة جديدة.
سألت سيلينا:

_ما هي؟
_سأقول جملة، ومن آخر كلمة في الجملة ستضعها الفتاة التي قي جانبي بجملة جديدة تبدأ بها، سأبدأ أنا "دافئة هي الليالي التي تجمعنا"
تطلعت سارة إلى ما ستقوله فلك التي حان دورها فقالت:
_تجمعنا الأيام مع الأشخاص السيئين لندرك قيمة الشخص الصحيح حينما يأتي.
_يأتيني الحنين إليك كل ليلة.
أجابت سيلا وهي تفكر في مُصعب وفي شوقها إليه، وصل الدور عند سارة ردت:
_الليلة التي ستحاول فيها أن تصلح ما بينك وما بين الله، ستصلح كل الأشياء المؤلمة.
استمرت اللعبة وتسامرن بود لساعات، كانت ليلة لا تُنسَ، سيفوح أريجها في ذاكرة كل واحدة منهن طويلًا.
*****
كان الجو غائمًا والبرودة لاسعة، نسمات الهواء تلفح الوجوه وتجعلها تتيبس، كانت نور تتمشى قرب الجامعة بعد أن أنهت محاضراتها وتنتظر وصول وجدان، معطفها الطويل السميك المعبأ بالفرو لا يمنع وصول البرد إلى أوصالها، فركت كفيها إذ لم تعد تشعر بهما، أودى بها

التأمل لما حولها إلى الشعور بالحزن والأسى، لا تدري أهذه رقة قلب أم هشاشة!

تؤلمها كل دمعة تراها على الوجوه ولو لم تعرف سبب نزولها على وجنتي صاحبها، يؤلمها انطفاء عينين لطالما توهجتا حباً وأملاً، يعتصر قلبها لطفلٍ استوقفها في الطريق بملابس رثة طالباً منها شراء قطعة بسكويت أو علبة مناديل منه.

تفكر في مصير قطة ترتجف وتركض تحت السيارات تختبئ من المطر والبرودة.

تشعر بأنها مسؤولة عن كل هؤلاء، يثقلها عجزها تُجاه أي حزنٍ تلتقطه عيناها ولا تستطيع تبديله وتغييره، تمتلك قلباً مدهشاً جداً ولربما بدون ميمٍ ودال!.

كانت شاردة حينما وصل وجدان، تأملها فابتهج لرؤيتها تحمل المظلة التي أهداها لها منذ مدة، انتبهت لوصوله فسارعت إليه حاولت أن تبدد شعورها بالكآبة وذكرت نفسها بأن هناك رب عظيم حكيم أحن على مخلوقاته منها وخلق كل شيء لسبب وحكمة، جلست في المقعد لجانبه قائلة بنبرة حاولت جعلها مَرِحة:

_قطتك تتجمد وأنت تتسكع في الطرقات!

ضحك وكأنه نسي ما فعلته كلماتها الأخيرة به وكم أحزنته، كأن رؤيتها كفيلة بأن تمحو تاريخ الأسى عن قلبه، سواء أكانت هي سبب ذلك الأسى أم شيء آخر.

_كيف حالكِ؟ بماذا تريدينا أن نتحدث؟

_بخير ونعمة من الله، لقد فكرت في كلامك، وأود أن نتحدث بشأنه.

ابتسم مردفًا:

_حسنًا، ما رأيك أن أصحبك إلى مكانٍ أحبه كثيرًا ونتحدث هناك؟

أومأت موافقة، سلك طريقًا جبليًا بعيدًا، هادئًا جدًا، تأملت نور أشجار السرو التي تعانق السماء وتتمايل بمشهد مهيب وجميل مع الرياح الخفيفة، شيئًا فشيئًا شعرت نور وكأن الغيوم تقترب سألته بشغف:

_أخبرني أين ستأخذني؟

_إنها مفاجأة

_أرجوك، أشعر وكأن الطريق بلا نهاية.

_لكنه جميل صحيح؟

_نعم، ومخيف قليلًا.

استغرب من قولها ضحك قائلًا:

_اطمئني لن أرميكِ من أعلى الجبل.

_لا أقصد ذلك ولكن الطريق خالٍ أخاف مجيء عاصفة ثلجية قوية وأن ينقطع بنا الطريق هنا.
_دعي مخاوفكِ جانبًا واستمتعي بالرحلة.
بعد نصف ساعة أوقف السيارة، نظر إليها ناداها فلم تجب، كانت غارقة في النوم، حاول إيقاظها فردت بتذمر:
_دعيني أنام أرجوك اذهبي يا سيلا.
ضحك قائلًا:
_يبدو أنك تركتِ مخاوفك ونمتِ باطمئنان تام.
رفعت رأسها وحاولت أن تفتح عينيها وتنفض عنهما النعاس، سألت بهمس:
_أوصلنا؟
_نعم، تعالي لتشاهدي أروع منظر في حياتك.
خرجا معًا وإذ بهما أعلى أحد الجبال التي يكسوها الثلج بحلته البيضاء فتبدو كعروس متألقة بكامل زينتها وجمالها، بدت الأراضي الممتدة على طول النظر بلون أبيض ساحرة جدًا وبديعة، رفعت نور رأسها للأعلى تتأمل ندف الثلج الصغيرة التي تتساقط كقطع القطن الناعمة.
_الله! إنها تأتي من كل مكان سبحان الله.
أمسك بكفها مردفًا بابتسامة:
_تعالي.

_أريد أن أستلقي هنا أرضًا وأتأمل تساقط الثلج.
ضحك قائلًا:
_ستنامين فيما بعد، أتعلمين؟ لطالما أتيت هنا وحدي وتمنيت كونكِ معي.
ابتسمت ومشيا معًا، صحبها نحو مقهى يقع على بعد بضعة خطوات، كان صغيرًا دافئًا يديره رجل عجوز وزوجته، كان المكان فارغًا تقريبًا إلا من رجل يقرأ في ركن المقهى ويحتسي القهوة، اقترب أحد الأطفال ومعه الكثير من أزهار النرجس التي يقطفها ويبيعها هنا في المقهى، اشترى وجدان منه باقة لنور، ثم اختارا طاولة في الشرفة، كانت مسقوفة وتطل على الطبيعة، لوهلة شعرت نور وكأنها في حلم لفرط السكنية والنقاء المنتشرين في المكان.
_الآن بإمكاننا أن نتحدث.
أحست بأنها نسيت كل ما كانت ستقوله له، استنشقت عبق النرجس ثم أردفت بعد صمت قصير:
_آسفة لما تفوهت به في آخر لقاء لنا، أحببت كونك أتيت تشتكيني إلى نفسي ولم تقحم الآخرين بيننا، أقدر ذلك كثيرًا.
توقفت ثم تابعت:
_تركت العمل عند مهجة، وسنعمل معًا للتخطيط لمستقبلنا، أعدك بأنني سأحاول من أجلك.

وجدان أنا لستُ الفتاة التي في مخيلتك تمامًا صورتي الواقعية تختلف عما رسمته أنت لي نتيجة محبتك، كما أن الأيام غيرت الفتاة التي كنتَ تعرفها سابقًا، وهذا يُخيفني أحيانًا، لا أدري إن كنتَ ستحبني لو علمت بأنني لستُ شغوفة بالتفاصيل كبقية الفتيات، ولا أجيد التعبير عن شعوري بوضوح وخجولة، أمتلك برودًا وعنادًا أسعى لضبطهما كثيرًا، وانفعالًا مفاجئًا لا أحبه، لكنني لا أتوقف عن إصلاح نفسي، وأريدك أن تعلم أنني...

قاطعها قائلًا:

_أنا أحب ما كنتِ عليه سابقًا، وما أنتِ عليه الآن، وما ستكونينه مستقبلًا يا نور، من يحب الآخر سيراه جميلًا في كل حالاته، أعرف أن هناك الكثير من الأشياء التي تتغير فينا بمرور الأيام لكن جوهر الإنسان وروحه لا يتغيرا أبدًا، وأنا لا أحبكِ لشيء فيكِ وإنما أحبكِ أنتِ بكل ما فيكِ يا نور.

ابتسمت ابتسامة خجولة وممتنة وسعيدة جدًا.

*****

كانت سارة تُمشط شعر مريم وتفكر بشرود في الاجتماع الذي سيحدث اليوم، فلك وسيلينا معًا في المطبخ يتفقن على الخروج معًا في يومٍ مشمس لتشتريا ملابسًا مناسبة لخطوة الحجاب التي ستتخذانها معًا، وصل سعيد معه والدة سارة فأقبلت سارة واستقبلت أمها، وبعد ربع ساعة وصلت السيدة عبير بصحبة فارس، كانت تتساءل عن الأمر الهام الذي يريد مناقشتها به، نادى فارس والداته وطلب من سيلينا العناية بالطفلة، نهضت فلك لتعد القهوة ونار الفضول تغلي في أعماقها، تشعر بأن هناك أمرًا جللًا سيتحدثون به.

كان فارس قد أخبر أمه سابقًا بالأمر وطلب منها ألا تخبر أحدًا حتى يتأكد من الحقيقة، جلس لجوار والدته وعبير أمامهما وسارة ووالدتها على الأريكة المقابلة لكل منهما سأل فارس:

_هل تتذكر إحداكما الأخرى؟

ردت عبير بازدراء:

_من أين لي أن أعرف أناسًا كهؤلاء؟

_على ما يبدو أنك نسيتني.

نظرت عبير لفارس مردفة بنزق:

_ما الأمر الهام الذي سنتناقش به يافارس؟ ومن هذه؟

_أريد أن أعرف من فيكما تكون أمًا لزوجتي.

رد ببرود، فهتفت عبير بعصبية:
_ما هذا الهراء يا فارس؟
قالت أم سارة بنبرة حزينة:
_أتذكرين ذلك اليوم الذي فقدت فيه كلانا قطعة من فؤادها؟
صمتت ثم أكملت:
_أتذكرين؟ جئت عندي تبكين وحاولتي كثيرًا حتى أقنعتي زوجي بأن يعطيك إحدى التوءمين لأنك فقدت ابنتك بعد ولادتها مباشرة.
قاطعتها عبير وهي تنظر لسارة بحنق:
_لم أرتح لوجودك منذ اللحظة الأولى لرؤيتك، كنت واثقة بأنك تنوين افتعال المشاكل.
تدخلت مهجة قائلة:
_سارة صادقة ولا تفتعل المشاكل.
_ماهذا إذًا لماذا أتت؟ لماذا تحاول جعل نفسها شبيهة لابنتي؟
أجابت سارة:
_أنا لا أعرفها ولم أكن أعرف بالأمر قبل مجيئي، قد لا تؤمنين بالصُدف وبأن كل ما حدث كان صدفة عجيبة، لكن تدابير الله عظيمة ودقيقة جدًا ولا بد للحقائق من أن تظهر

وتنكشف فالحقيقة كالشمس يمكن تغطيتها ولكن لا يمكن إخفائها.

تأمل فارس كلمات سارة وسرح قليلًا، صحيح تدبير الله دقيق جدًا لولا افتراق سنا عن عائلتها لما عرفها ولما أحبها، ولو لم تُكشف الحقيقة الآن لما وجد من تحب ابنته وتحن عليها بمشاعر أمومة حقيقية فالخالة أم، ولو عرف سابقًا أن سنا ليست ابنة عبير ربما لم تكن والدته لتوافق على زواجه بها فقد كانت تعتني كثيرًا بالمسميات الاجتماعية في شبابها.

سأل فارس والدة سارة:

_ما هي الحقيقة؟ أخبريني كيف استطعتم التخلي عنها؟

صاحت عبير:

_إنهم كاذبون يا بني، قصة مختلقة يريدون مقابلها المال، أعرف هذا النوع من الناس جيدًا، كم تحتاجون؟

رد فارس:

_لكن العقد يشبه عقد سنا في كل تفاصيله، ومذكراتها هذه لا أحد يعرفها سواها، في هذا الدفتر أسرار وتفاصيل وتواريخ، هناك ذكريات وكلمات بيني وبينها لا شاهد عليها سوانا، أنا من أهداها هذا الدفتر بيدي غير أني أحفظ خطها وأسلوبها، أتذكر الآن أيامًا ذبُلت فيها وأخفت عني حزنها

فلم أعرف سببه الآن عرفت كانت تلك هي الأيام التي اكتشفت فيها الحقيقة، ليس بإمكانك الإنكار أكثر من هذا يا سيدة عبير.

صمتت عبير وانسحبت الدماء من وجهها، أكملت أم سارة:

_كانت هذه السيدة في حالة انهيار فظيعة حينما فقدت طفلتها، قالت بأن عائلتها ستتدمر وسيطلقها زوجها لفقدانها الطفل أخبرتنا أنها تعاني كثيرًا وكنا نحن في أسوأ حالاتنا المادية لم نكن قد دفعنا تكاليف عملية الولادة بعد، حتى أننا لن نستطع شراء الملابس لهما بل تصدق علينا أهل القرية ببعض الثياب القديمة، ضعف زوجي أمام انهيارها أمامنا وأمام انهياره الداخلي وعجزه بينه وبين نفسه، فأعطاها إحدى التوءمين وجزءًا من قلبي.

ابتلعت ريقها ثم تابعت:

_كلما اعتنيت بسارة قلقت على الأخرى، كلما بكت سارة أضمها بقوة وأبكي على أختها التي تحتاج حضني، كل أفراحنا الصغيرة كانت ناقصة، ومشوبة بتأنيب الضمير والألم، طلبنا كثيرًا رؤية سنا لكنها مانعت بقوة، ألم تفكري يا عبير يومًا بوالديّ الفتاة؟ ألم تفكري في قلب أُمها المكسور؟

أجابت عبير بصوت يرتجف:

_لا لم أفكر أبدًا، عندكم واحدة لستم محرومين نعمة الذرية مثلي، كل أطفالي يموتون بعد الولادة، أردتها لي فقط، لا أم لها سواي ولا عائلة غير عائلتي، لا ينبغي لأحد أن يحبها بأمومة إلاي أنا أتفهمين؟

كنت مجنونة في حمايتها ورعايتها، أحببتها أكثر من حب أي شخص لها، أحببتها كجزء من روحي، لماذا تنبشون الجرح الآن لماذا؟

صمتت تبتلع دمعاتها وغصتها ثم أكملت وهي على وشك الانهيار:

_لا يؤلمني فقدها كما تؤلمني فكرة أنني لستُ أمها، إنها ابنتي أنا أتفهمون؟ أنا أمها وهي ابنتي أنا، أنا فقط.

انهارت عبير بالبكاء، لم تقوَ سارة على إمساك دمعاتها قالت بصوت متحشرج:

_أنا آسفة لأنني فتحت صفحة قديمة تذكر كلاكما بجرح لم تشفه الأيام، لا أدري ما ثمرة هذه الحقيقة، كنت أريد أن أثبت للسيد فارس أنني لستُ مخادعة، وأن شكوكه واتهاماته لي كانت غير مفهومة وأنني حينما عرفت الحقيقة لم أستطع الصمت عنها.

مسحت دمعاتها:

_لا أدري هل أنا شجاعة لأنني أردت كشف الحقيقة أم أنني غبية، وسنا هي الشجاعة لأنها تحملت أذى الخبر وحدها وصمتت حفاظًا على مشاعر من تحب!

هدأت السيدة عبير ونهضت نحو أم سارة بانفعال صرخت مهددة إياها:

_لو علم زوجي بالأمر سأقتلك صدقًا سأفعلها.

نهض فارس وأبعدها عنها قائلًا:

_لن نخبر أي أحد، كنت أريد التأكد فحسب.

_وهما؟

هتفت سارة واقفة:

_لن نفعل أعدك.

نظرت نحوها بكره قائلة لفارس بغضب:

_افصلها من العمل يا فارس لا أريد رؤيتها إلى الأبد.

قاطعتها سارة بقوة:

_مريم ابنة أختي ولن أتخلى عنها، عاطفة غزيرة اندفعت من قلبي اتجاهها منذ رؤيتها لأول مرة، بيننا رابطة دم، خالتها كأمها، وبقائي هنا هذا أمر لا يقرره سوى السيدة مهجة التي أثق بعدلها.

كان فارس يراقب حركات سارة وينصت لكل ما تقوله، شعر بالارتياح عند سماع كلماتها الأخيرة، وكأنه اطمأن

لمستقبل ابنته، ولكن هل ستحتمل سارة مسؤولية كلماتها؟ ألن تحتاج لمستقبل وعائلة تحلم بهما؟ هل ستترك صغيرته تعاني الهجران واحتياج الأم مرة أخرى؟
لملمت عبير بقايا كبريائها المكسور ودموعها وفتات قلبها وهمت بالانصراف حالفة باسم الله العظيم أنها لن تزور هذا المنزل ما دامت سارة تعيش فيه، وطلبت من فارس إحضار الطفلة إليها كل فترة وأخرى.

*****

بعد عدة أيام طلب فارس من والدة سارة العيش معهم في المنزل فهي تعد قريبتهم الآن، خجلت ثم أحبت الفكرة بعد تشجيع مهجة وسارة لها، أحضرت بعض متاعها وحاجياتها وانتقلت للعيش معهم، انسجمت مع مهجة بشكل غريب فالأخرى تعمل بالتطريز وتحب التأمل والأزهار وبينهما الكثير من الأمور المشتركة فالمرء يميل لمن يشبهه.
في المساء كانت السماء صافية والبدر يتوسط رحابة الأفق بتألقٍ آخّاذ، حفنة من النجوم المترامية هنا وهناك تتلألأ، خرجت فلك لتنشر الملابس المتكوّمة بسبب العواصف التي لم تهدأ منذ أسابيع، كان النسيم قارسًا لكنها شعرت به منعشًا لطيفًا، شعرت بحركة خفيفة بين الأشجار ظنت بأن

هناك قطة ما فتابعت عملها لكن الصوت عاد، نظرت فإذ بظلٍ طويل لرجل ما، تسلل الخوف لفؤادها، أعادت ما بيديها للسلة وخطت ببطء متجهة نحو الأشجار ومعها عصا، هتفت:

_من هنا؟

جاءها الرد هامسًا:

_أخيرًا رأيتكِ!

_آه سعيد؟

_نعم، اشتقت إليكِ، ما كل هذا الاختفاء؟ وما هذا الذي ترتديه؟

_إنه حجاب.

_أعرف أنه حجاب، لكنني فوجئت لقد طلبت منك مرارًا أن تتحجبي فلم تقتنعي.

زفرت مجيبة:

_سعيد أنا الآن فتاة جديدة، لا تذكرني بأي شيء من الماضي واذهب الآن من فضلك.

سكتت قليلاً ثم أضافت:

_ولا تكلمني مرة أخرى، وداعًا.

رد ببرود:

_حاضر، كما تريدين.

رده أشعل نيران غضبها، أهكذا بإمكانه أن يتخلى عنها بسهولة؟ هذا القرار كلفها صراعًا نفسيًا طويلًا، ودموعًا بللت وسادتها لليالٍ عديدة، لينتهي عنده الأمر سريعًا بكلمة "حاضر" وكأنها تطلب منه شراء رأس ملفوف ليرد بهذا الرد الذي آلمها واستفزها.

سألها:

_هيا ألن تذهبي؟

_بلى، أنتظر رحيلك أولًا لأعود إلى عملي.

_كنتُ أعرف تمامًا أن هذا سيحدث يومًا ما.

قالها ثم استدار ذاهبًا، لم تستطع إمساك نفسها عن سؤاله عما يقصده بكلامه، فتوقف وتابع بلهجة مريرة:

_بأنكِ ستتخلين عني يومًا ما.

استراحت لكون الأمر يعنيه.

_لماذا؟

_لم أشعر بأنك كنت تبادلينني كمية الحب نفسها، كنتِ تجامليننني أكثر الأحيان.

_ليس صحيحًا يا سعيد.

_بماذا تفسرين قرارك إذًا؟

أطلقت تنهيدة يصعب عليها إخباره بأن قلبها كان مجروحًا لذلك لم تقدم له مشاعر صادقة وعميقة لكونها تخاف من

خذلانٍ جديد، لتبرير بعض تصرفاتك تحتاج أحيانًا لشرح قصة حياتك كاملة، أجابته عن سبب قرارها الأخير فحسب:
_أدركت أننا سلكنا طريقًا خاطئًا علينا ألا نكمل السير فيه.
_ألم تفكري في الحزن الذي سيحتل قلبي؟
_أنا لا أظلمك في قراري بل قمة الظلم أن أتابع معك في علاقة تقود كلانا إلى النار.
هدأ قلبه حينما شعر أن كلامها صادقًا، وتوبتها حقيقية ونقية، فهم أن قرارها ليس كرهًا فيه أو حجة للبعد عنه، لو كان كذلك لما توقفت وبررت له، كما أنها ذكرت خوفها عليه هو أيضًا وليس على نفسها فحسب من غضب الله، هل يخاف علينا من لا يحبنا؟
عم الصمت لبرهة من الزمن وتمايلت بعض الأغصان مصدرة صوت حفيف لطيف يزيد الليل هدوءًا وسكينةً.
_علي الذهاب الآن.
كادت تمضي فناداها قائلًا:
_أستقبلين أن تسيري معي طريقًا صحيحًا؟ أريدك رفيقة في دربي، لا أريد سواكِ يا فلك.
لمح ابتسامة خجولة زينت ثغرها تحت ضوء القمر، فوصلت إليه الإجابة التي يأملها فابتسم مغادرًا بهدوء، عادت إلى عملها وشعورًا لطيفًا يتسلل إلى قلبها بخفة، كأنه

خيطًا من ضوء القمر دلف لينير بقعة ما في فؤادها ويؤنسه.

*****

كان مُصعب يتحدث مع فارس وهو ينتظر انتهاء سيلينا من تجهيز نفسها وأغراضها لاصطحابها لمنزلها، بعد قليل خرجت فأقبل نحوها وصعدا للسيارة، بدت شاردة طوال الطريق لم تتحدث إلا حينما توقفت السيارة، سألت:

_وصلنا؟

_نعم.

لم تتحرك وهو كذلك، كان يريد من الزمن أن يتباطأ أو يتوقف حتى لا يأتي هذا اليوم، لم يكن مستعدًا له، نظر ليدها فكان الخاتم لا يزال مستقرًا في مكانه باطمئنان وكأنها لم تحاول نزعه منذ أحاط بإصبعها، هتفت:

_لم أكن مستعدة لهذا اليوم.

راقه ما سمع، لقد اشتركا في شعورٍ ما وقالت ما يفكر به، أيعني هذا بأنها ليست مستعدة للابتعاد عنه أيضًا؟ أم لا تخاف مواجهتهم؟

قطعت عليه خيط تساؤلاته الذي يلتف حول قلبه وعقله بقولها:

_أشعر وكأنني حللت المشكلة بمشكلة، وانتقلت من ورطة لورطة أخرى.

قال باستنكار:

_تقصدين بأنني مشكلة وورطة؟

ابتلعت غصتها كادت تخبره أنه الورطة الوحيدة الإيجابية في حياتها والتي تؤلمها فكرة الابتعاد عنها، لم تكن تقصده هو بل تقصد أن الحل بحد ذاته كان يعد مشكلة، كيف ستشرح لوالديها؟ ردات فعل أمها ستكون مخيفة وعينفة، لن تنالها الشتائم والتأنيب بسبب إفشاء السر للطبيب فحسب، بل بسبب عملها وتركها البيت والدراسة، وعقد قرانها المفاجئ الذي سيتبعه الآن طلاق وافتراق، حتى حجابها لن يسلم ولن يسكت أحدٌ عنه، ستصبح سيرتها على كل لسان، ستصبح (ترند) العائلة قريبًا.

لم يريحه صمتها، إنها تحشد غيوم دموعها وتغرق في بحر أفكارها السوداء التي لا يعرف ماهي.

_ستبكين؟

سألها، أراد منها أن تتحدث بأي شيء ليفهمها، صمتها يستفزه بينما صمت الجميع يريحه ويسعده، هذا الاكتشاف هو الذي أثبت له كمية مشاعره نحوها.

أجابت:

_لا أقصد بأنك المشكلة، آسفة، لكنني حينما أفكر كثيرًا لا أجيد الكلام.

_ما الذي يزعجك؟

كان واضحًا وكانت لا تجيد سوى تمويه مشاعرها والحديث عن الأشياء التي تبدو منطقية بعيدًا عن شعورها:

_أخاف من كلمة "مُطلقة" في مجتمعٍ يهتم كثيرًا للسمعة والمظاهر.

_تذكري أن حياتك لن يعيشها سواكِ فلا تأبهي بكلام الناس، ما دام رب الناس راضٍ عنكِ فلا تهتمي برضا سواه، غاية الناس غاية لا تدرك، فافعلي ما يريحك أنتِ

أمطرت سحابة الحديث بالخيبة على كلاهما، شعر بالأسى لأن كلامها لم يحمل شيئًا من الشعور نحوه أو التمسك به، وهذا جعله يصمت ويلجأ للاستسلام للواقع برغم كونه ينتظر ومضة أمل منها ليتمكن من استبقائها معه عمرًا بأكمله، وملأ صدرها الضيق لكونه أنهى الموقف بنصيحة تشجعها على المضي في قرارها وكأنه يود الخلاص منها!

*****

"مرحبًا يا دفتر.
بإمكانك القول أنني سأكتب عليك للمرة الأولى والأخيرة فحسب، ربما تشتاق لصديقتك الراحلة كما يشتاق الجميع هنا لها، لا ألومك نحن نتفقد جزءًا من أنفسنا حينما نفقد شخصًا يعز علينا، لقد مرت عليّ عدة شهور في هذا المنزل بعد كشف الحقيقة، منذ أيام كنت في المطبخ حينما جاء فارس وأعادك إلي يا دفتر، قال بأنني أحق الناس بمعرفتها وبالمحافظة على أشيائها، أعاد إلي العقد أيضًا كان مطابقًا جدًا لعقدي السابق، لكن حدسًا غريبًا وسوس إلي أنه ليس هو، أحاسيسي عجيبة في صحتها يا دفتر!
سكت قليلًا بعد إعطائي إياه ثم أخبرني بأنه قد بدّل العقد القديم إلى نوع الذهب الثمين جعله كعقد سنا، لا يدري فارس بأنني أحب القديم على ما هو عليه وأن أشيائي مهما كانت بسيطة أحبها لأنني تشاركت معها أيامًا وذكريات وأن لا شيء بإمكانه تعويض مكانها في قلبي، كان أثمن هدية قد حصلت عليها في حياتي، لم أحصل يومًا على شيء خاص بي كبقية الفتيات، كنت ألعب في الحقول والبساتين والشاطئ بدلًا من اللعب في دمى العرائس والأميرات،

وبالكاد يكفينا المال لشراء مستلزمات المنزل، لقد ادخرت مال هذا الشهر كله لنفسي وإنها المرة الأولى التي احتفظ فيها ببعض المال لي، قالت لي السيدة مهجة أنني الآن أصبحت جزءًا من هذه العائلة وبإمكاني عدم العمل وسيجلبوا طباخة أخرى، لكنني رفضت ذلك لأنني أحب العناية بشؤون المنزل، أخذت غرفة نور لي لوحدي وبقيت تلك الغرفة لفلك، أظن بأنني سأشتري الكتب في المال الذي معي سأختارها تربوية وسأجلب قصصًا لصغيرتي الحُلوة كي نقرأها معًا، وكذلك سأحضر دفترًا صغيرًا يُشبهك، وسأطلب من فلك أخذي معها للخياطة لأجل حياكة فستانٍ جديد يليق بي كخالةٍ لميمي، إنني أختبرُ الآن مشاعرًا جديدة يا دفتر، أشعر بالندم أحيانًا على مجيئي لهذا المنزل، لم أعد أستطيع العودة لما كنتُ عليه قبلًا، المعيشة هنا تضع فوق عاتقيّ مسؤولية كبيرة وتسلب مني شيئًا من البساطة التي كنتُ أعيشُها، علي الآن أن أحسب حساب تصرفاتي وكلماتي وطريقتي في فعل الأشياء أمام الآخرين لأنني جزء من عائلة معروفة، ولأن هناك طفلة تتعلم مني وتمشي وراء خطواتي في طريق الحياة الطويل، آه يا دفتر...

تراودني الرغبة بالبكاء كلما نظرت لمريم، آمل تربية الصغيرة كما كانت تأمل سنا، أرجو منحها حبًا يشبه حب أمها العذب الدافئ، سأعتني بتفاصيلها الصغيرة كما كانت تود أن تفعل.

تراودني الرغبة بالبكاء كلما قلبّت بصورهما معًا، أُشاهد الفرق الحاصل بشخصية فارس ويؤلمني قلبي عليه؛ إنه الآن منطفئ، صحته ضعيفة وجسمه نحيل، وجهه شاحب، إنه وحيد جدًا، أتمنى التسلل لعالمه ولو بمقدار بسيط لكنني لا أستطيع!

أُفكر فيه في الليالي الطويلة الباردة، يا ترى كيف تمر عليه دون ثرثرة تبدد وحشته؟ دون قلبٍ دافئٍ يحتويه؟

أين يذهب بكمية الكلام الكثيف العالق في حلقه، لمن يبوح بفوضى المشاعر التي تخالجه؟

لا يحق لي قول مثل هذا الكلام يا دفتر، لكنني بطريقة ما أتمنى إضافة بعض لمساتي لحياته وتلونيها.

في قلبي مكانٌ واسعٌ للاحتواء، ورغبة كبيرة للعناية بكل إنسان لا يجيد العناية بنفسه، لذلك أجد صعوبة بالغة في ضبط نفسي أمامه كي لا تتسرب مشاعري نحوه بأي طريقة، هذا يرهقني، ويستنزف طاقتي في كثير من الأحيان، أحاول عدم الاصطدام برؤيته صباحًا أو مساءً،

وتقليل مساحات الحديث معه حتى وإن كان الكلام عن ميمي فحسب، آه يا دفتر...
أعرفتَ لماذا قررت الكتابة كما كانت تفعل هي؟ لأنها المرة الأولى التي أحمل فيها مشاعرًا وأحاديثًا أخشى قولها إلى أحد، وأخشى التفكير فيها، ولا أجد لها متنفسًا إلا الكتابة!
ما يحدث يقودني لكره نفسي، لقد فقدتُ سارة القديمة البريئة، أشعر أحيانًا وكأنني أعيش حياتها بكل مافيها، وبأنه لا يحق لي الاقتراب من بيتها الذي بنته، وزوجها الذي أحبته، وابنتها التي أنجبتها، لا أدري كمية الصبر والعون التي أحتاجها لأتابع في هذا الطريق الذي اخترته، أدعو الله كل يوم بأن يمدني بالقوة وأن يرزق قلبي السكينة.
وداعًا الآن يا دفتر."

*****

لقد استيقظ اليوم بنفسية جديدة، كلامه مع مُصعب منذ مدة جعله يفكر طوال ليالٍ عديدة، أبعد الستارة وفتح النافذة داعبت وجهه نسمات منعشة، تذكر تفاصيل حديثه مع مُصعب حينما كانا يقفان معًا وارتسمت ظلالهما أمامهما، سأله مُصعب حينها إن كان يعرف قصة الرجل الذي أراد

التخلص من ظله فأجاب فارس بالنفي وطلب منه أن يقصها عليه:

_كان هناك رجلٌ يريد التخلص من ظله بحجة أنه يزعجه كثيرًا ويكره رؤيته، في المرة الأولى أخذ يجري بأقصى سرعة لعله يبتعد ويهرب منه، لكنه لم يفلح في ذلك بل أتعب نفسه بدون نتيجة، ثم حاول ضربه بعصا كبيرة لعله يخاف ويرحل لكن بدون جدوى لقد بقي الظل معه، واستمرت محاولات الرجل طويلًا في المحاولات بين قتل الظل والهرب منه.

ما رأيك في هذا الرجل يا فارس؟ أتراه أحمق أم غبي؟

_كلاهما.

_لكننا مثله يا فارس.

رفع فارس حاجبيه استنكارًا فأكمل مُصعب:

_كثيرٌ منا يعالج مشكلاته بنفس الطريقة، ما إن يتعرض لمشكلة مؤلمة حتى يحاول حلها بالهرب، سواء أكان الهروب من المكان أو من الحياة أو من التفكير فيها فيرغم نفسه بضغوط وأشياء كثيرة كي لا يذكرها ولكنه سرعان ما يكتشف أن المشكلة لا زالت موجودة ولم تحل بمجرد الهروب منها.

وآخرين يحاولون حل مشاكلهم بالعنف والغضب والصراخ الدائم وكلا الطريقتين فاشلتين في علاج المشاكل.
فهم فارس أنه المقصود وأنه من النوع الأول، لم يغضب من تحدثه إليه بهذه الطريقة بل احترم نصيحته وتبعها بسؤال:
_كيف نحلها إذًا يا مُصعب؟
_سأعرض عليكِ حلين قيلا لصاحب الظل.
أولهما: أنه كان يستطيع ألا يقاومه ولا يفكر فيه، يقضي يومه بشكل طبيعي متقبلًا أن الظل سيذهب وحده في المساء دون جهد منه، وهكذا بعض المشاكل في حياتنا ستحل مع مرور الوقت فحسب، وانتبه لقولي لو تركناها وليس لو هربنا منها.
ثانيهما: كان عليه أن ينظر للظل على أنه طبيعة في الحياة وجزء منها لا نستطيع تغييره مهما حاولنا، لذلك كان عليه أن يتقبل هذه الحقيقة ويفهم أن وراءها حكمة ما لا يعرفه.
صمت ونظر للسماء بتأمل ثم أعاد نظره لفارس مبتسمًا بود:
_يا فارس لا توجد حياة بدون ابتلاءات، لأنه بدونها ليس هناك أجر وصبر وتفاوت بين إيمان الناس، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، تذكر كم فقد رسول الله

صلى الله عليه وسلم من أحبته؟ ولكن برغم حزنه كانت حياته مليئة بالعمل والعطاء والحب، الحياة لا تتوقف يا فارس.
فكر بطفلتك ونفسك وتذكر أن زوجتك -رحمها الله- تحبكما وتريدكما أن تكونا بخير وتعيشا بسعادة، فكفاك حزنًا يا رجل.

*****

_هيا ابنة العم نكاد نتأخر، سيبدأ الحفل بعد قليل.
أقبلت مسرعة بكامل بهائها وزينتها سألت بنبرة طفولية متدللة:
_ما رأيك؟ أبدو جميلة صحيح؟
ابتسم مُصعب ابتسامة عذبة:
_أميرة يا سيلينا، رائعة سيحسبونك العروس!
ضحكت:
_ليس لهذه الدرجة يا عزيزي، كنتُ العروس منذ شهرين، انتظر سأرتدي العباءة وأسدل الحجاب فوق وجهي حتى لا يرى أحد هذه الخرائط.

_بطلة هيا بسرعة.
_حاضر لن أتأخر.
ضحك مُصعب:
_ كم مدة هذا الوعد؟ ساعتين أم ثلاث؟
ابتسمت عائدة للغرفة.
في بداية زواجهما كان أهلها يستغربون من ندائه لها بابنة العم لكنه يحب هذا النداء كثيرًا، يشعر بأنه يحمل الحب الحقيقي والعميق، يكره الألفاظ الدارجة هذه الأيام يناديها دائمًا بـ: (ابنة العم، حبة القلب، ريحانة الدار).
أخذته ذاكرته للماضي قبل عدة أشهر فشرد مستغرقًا في الذكريات.
ذلك اليوم الذي عاشه مُصعب بأعصاب محترقة قبل أن تصبح ذكراه من أجمل أيام حياته، فحينما نزل كلاهما من السيارة لأن ناحيتها قليلًا، حتى وإن كان خوفها من الانفصال ينبع من خوفها من المجتمع وليس حبًا له وخشية فراقه، شعر بالمسؤولية اتجاهها، حاول رسم ابتسامة على شفتيه والتفت إليها مردفًا بمرح:
_أتنتظرين معجزة؟

فاجأها قوله وانقلاب مزاجه بلحظات معدودة، تذكرت الأيام الماضية حينما لم يبتسم ولم ينقلب مزاجه إلا عندما وجد حلًا، تتساءل أتراه وجده الآن أيضًا؟ أم أنه يسخر منها؟
ابتسمت له بعينين حزينتين، فأتبع سؤاله بسؤال:
_من أنقذك في المرة السابقة؟
_أنت.
_أنا بعد فضل الله وعونه، ومن سينقذك الآن؟
عادت لصمتها فهتف:
_أنا طبعًا.
روادتها الرغبة بالضحك لأسلوبه في الكلام، سألته:
_كيف؟
أجابها بعد أن دلفا للمصعد، ضغط مُصعب رقم الطابق الأخير رغم معرفته أن منزلها يقع في الطابق الثاني، أردف بشيء من الحماس:
_صحيح أنكِ لن تنعتين بـ: "المطلقة" لكنك ستحصلين على لقب جديد.
صمت ثم هتف:
_متزوجة! ستحصلين على هذا اللقب وهذا إن كانت المعيشة معي لا تزعجك.
تنهدت:

_وأنت؟ أليس لديك حياة وأحلام أخرى؟ أخاف كوني أجبرك على مساعدتي، وأزعجك بمشكلاتي، هذا يُشعرني بالذنب اتجاهك.

اقترب منها سائلًا إياها:

_سيلا من الذي أجبرك على القبول بالخطة السابقة؟

_أنت.

_ومن الذي اخترع هذا الحل الآن؟ أيضًا أنا، سيلينا! الرجال لا يتخذون القرارات المصيرية لمجرد مساعدة ومجاملة وجبر للخواطر، افهمي أنا لم أكن لأحاول بهذه الجدية والطريقة هكذا لأجل أية فتاة.

هالها ما سمعت، دقات قلبها المتثاقلة صارت خفيفة سريعة، خالجها شعورًا لطيفًا جعل الفراشات تتطاير في داخلها.

تابع مُصعب:

_أخاف أن أكون أنا من يجبركِ، وأن تكون موافقتك على قراراتي كانت موافقة لمجرد الهرب مما ينتظرك فحسب وليس من أجلي أنا.

تلألأت الدموع بعينيها:

_أبدًا يا مُصعب.

أخيرًا نطقت باسمه، كانت كلما اشتاقت إليه وجاءها ضيف الحنين الحزين تردد اسمه بصمت بينها وبين نفسها، تكتبه

على أطراف الأوراق وفوق الزجاج بعد مطر، الآن أخيرًا استطاعت نطقه، وسماعه بصوتها هي غير مصحوب بأي لقب قبله، قالت بنبرة خافتة وهي تلتقط دمعاتها بأصابعها:

_حتى وإن كان ما ينتظرني هو شيء جميل كنتُ سأفضّل الهروب إليك.

_حقًا؟

قطعت المسافة بينهما مردفة:

_هذا العالم مُخيف وبارد، دعني اختبئ في قلبك الدافئ إلى الأبد.

ضمها إليه قائلًا:

_هو لكِ.

*****

كانت فلك تحتضن ذلك الكائن الصغير بكلتا يديها وتهدهده برقة، لقد أحبته ملء قلبها، طبعت قبلة فوق جبينه بحنان، أقبلت سلمى:

_هل نام يا فلك؟

_بلى، إنه ملاك يا سلمى كم يُشبهك!

_لا شيء يسعدني كسماع أنه يشبهني.

أخذته برفق من بين يدي فلك مردفة:
_كما اتفقنا سأدعه عند جدته وأبارك لنور وأرى الفتيات ثم أعود أخاف عليه كثيرًا، لا يزال صغيرًا، أخبرتيهم بهذا صحيح يا فلك لا أريدهم أن يتضايقوا لمجيئي القصير.
_أخبرتهم وتفهموا ذلك يا سلمى لا تقلقي، وأخبرت سعيد أيضًا أن يأتي بعد ربع ساعة لإعادتك لمنزلك.
_ممتاز، شكرًا يا فلك والعقبى لكما إن شاء الله.
ضحكت فلك:
_آمين.

أما سارة فقد كانت في منزل مهجة جالسة تجدّل شعر مريم بشكل أنيق يليق بحفلة زفاف، قالت الصغيرة بسعادة بريئة:
_مرحى! سأحضر حفلة أخرى، أحب الحفلات وأحب رؤية العروسات اللواتي يشبهن الأميرات، أحبكِ ماما سارة لأنك بقيتي معي ولأنك تأخذينني للحفلات معكِ.
_وأنا أحبكِ يا حلوتي، غدًا ستكبرين أيضًا وستكونين عروسة جميلة مثلهن إن شاء الله.
استدرات ميمي نحوها:
_حقًا؟ هل ستبقين معي حتى أكبر وأصبح عروسة؟

ابتسمت سارة ابتسامة يشوبها الحزن، كيف لطفلة صغيرة أن تفكر بهذه الطريقة وتخاف من فكرة الغياب والفراق لهذه الدرجة؟ هل يا ترى ستستطيع البقاء معها؟

أضاف صوتٌ رجوليٌ من وراءها قد دلف لغرفة المعيشة لتوه:

_ما رأيكِ أن تبقين معنا لذلك الوقت؟ بل وإلى الأبد؟

بعد الكثير من التفكير قرر فارس أن سارة هي الفتاة المناسبة، إنها طيبة وعطوفة، تُشبه زوجته السابقة كثيرًا وتهيّج حنينه إليها، تُحب ابنته، سارة لها من اسمها نصيب، يشعر بأنها تشبه الشمس في نورها ودفئها، ربما ستستطيع إضاءة الأماكن المظلمة في قلبه وحياته.

لم تجبه سارة، فأضاف:

_لن تكوني أمًا لمريم فحسب، أريد أن نكوّن عائلة جميلة معًا، ليست مريم فقط من تحتاجك يا سارة.

لطالما أحبت أن يكون لوجودها معنى وأثر، وأن يكون هناك من يحب وجودها ويحتاجها، أمسكت مريم يدها:

_هل ستبقين معنا ماما سارة؟

نظرت سارة لكليهما ثم أجابت بابتسامة وضاءة:

_سأبقى وبكل سرور.

*****

تمت بعون الله وتوفيقه

قناة التلغرام للكتابات:
https://t.me/daniaqasaas

أُسعد بآرائكم اللطيفة على حساب الفيسبوك:

دانية قصاص.

شكرًا من القلب لـ:

_عائلتي الدافئة، وقلب أمي الحنون.

_(آية حمامي) الفتاة الجميلة التي أحبت روايتي الأولى بشغف لدرجة جعلتها تحفظها غيبًا، حماسك وحُبكِ لحروفي كانا حافزًا قويًا لإكمال هذه الرواية.

_(تسنيم العقلة) على ملاحظاتها وتشجيعها، إضافة لكونها مصدر إلهامي في كتابة إحدى الشخصيات.

المدققة الطيبة المبدعة: إلهام رسلان.

مصممة الغلاف اللطيفة جدًا: أسيمة طيفور.

ليالٍ باردة

روايةٌ تُحاكي برودةَ العالمِ و دفءَ القلوب،

في عالمٍ تسودهُ الليالي الحالكة، حيث تَجتمعُ

عدة خادمات في منزل السيدة مهجة الكبير،

كل واحدة منهن لها قصة وسر لا تعرفه بقية الفتيات،

تتتابع الأيام بهدوء وبأحداث دافئة حتى تتصاعد

شيئًا فشيئًا حتى تصل لذروة الحماس والتشويق!

كيف ستتفق الفتيات معًا؟

ماهي الظروف التي دفعت كلًّا منهن للعمل في هذا المنزل؟

بين دفتي الكتاب رحلة مفعمة بمشاعرِ تحمل الدفء والبرودة.

دانيــة قصاص

الغلاف: أسيمة طيفور